معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي

تأليف

دكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

قدم له

أ. د /أسامة سيد على

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
ووكيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة قناة السويس

بطاقة الفهرسة

اسم الكتـــاب : معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي

المؤلـــــــف : رجب محمود إبراهيم بخيت

الطبعـــــــة : طبعة أولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م

الناشـــــــر : مكتبة جزيرة الورد

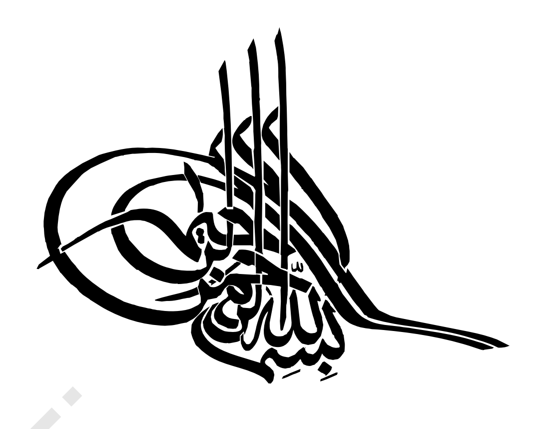
رقم الإيـــداع :

مكتبـــة جزيرة الورد – القاهـــرة / ميدان حليـــم

خلف بنك فيصل شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٢/٩٩٦١٦٣٥

٠١٠/٠١٠٤١١٥ - ٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦



{قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣}.

[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]

* * *

الإهداء

إلى الأستاذ الفاضل والعالم الجليل أستاذ الأجيال

الأستاذ الدكتور /

أحمد رمضان أحمد

* * *

مقدمــة

بقلم د. أسامــة سيــد على

يقول الله عز وجل:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾} [الحج: ٣٩ - ٤١].

بهذه الآية الكريمة أبدأ تقديمي لهذا الكتاب الذي قام بتأليفه:

الدكتور / رجب محمود بخيت.

فمنذ أن أذن الله عز وجل لنبيه ﷺ بالجهاد تحركت جيوش الإسلام لرفع راية الدين ونشر الحرية والعدالة والسلام بين الناس.

وعلى مر الزمان والسنين وعندما دعا داعي الجهاد لمواجهة خصوم الإسلام تحركت الجيوش الإسلامية عبر الحدود لوقف طغيان القياصرة وقمع عدوان الأكاسرة، فكان للمجاهدين المناضلين شرف الفوز المبين.

ومضت راية الإسلام خفاقة ترفرف من نصر إلى نصر حتى غدا للعرب والمسمين سجلا زاخرا بالمجد شرقا وغربا.

وللجيوش الإسلامية معارك مأثورة فاصلة، وفتوح باهرة، حملوا فيها السلاح ونظموا الصفوف وتصدوا لخصومهم وانقضوا على أعدائهم، فكان لهم النصر ولأعدائهم الخذلان.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يصف لنا صورة صادقة لتلك المعارك الفاصلة التي خاضها المسلمون وفيها برعت جيوش الإسلام وخاضت معارك عنيفة ضد الصليبيين والمغول وغيرهم، فحققوا انتصارات عظيمة عندما نازلت معاقل الروم وقلاع الفرس، وواجهت دولا ذات جيوش كثيفة وأسلحة ضارية فخاضت معها معارك مريرة في العراق وفي الشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس، وأحرزت في كل معركة نصرًا عزيزًا وفتحًا مبينًا.

وقد أوضح المؤلف في هذا الكتاب أن العرب ليسوا دعاة حرب ولا هواة قتال، إنما دعاهم إلى الحرب عدوان المعتدين وإثم الظالمين، ولم يشهروا السيف ولم يسفكوا الدماء إلا ردا لاعتداء وإزهاقا لباطل أو تحقيقا لمطلب عادل.

مع تمنياتي للمؤلف بالتوفيق والسداد.

وأترك القارئ الكريم مع هذا الكتاب الشيق.

أ. د / أسامة سيد على
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
ووكيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة قناة السويس

* * *

مقدمة المؤلف

الحمد لله وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

استفتح بالذي هو خير: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾} [لقمان: ٣٣].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١}

[الحج: ١].

أما بعد:

فالتاريخ - كما هو معروف - ذاكرة الأمة، ومستودع تجاربها ومعارفها وهو عقلها الظاهر والباطن وخزانة قيمها ومآثرها وأساس شخصيتها الغائرة في القدم والممتدة مع الزمن وللحبيب محمد ﷺ سيرة لما تستكشف أعماقها، ولخلفائه الراشدين تاريخ حافل عظيم، ولأمته تاريخ يزهو على تاريخ الأمم والشعوب والدول، فعلينا أن نستفيد من هذا التاريخ العريق، ونستخرج منه الدروس والعبر والمواعظ والسنن، ونستوعب فقه الحضارات، ونستلهم من القصص القرآني، والهدي النبوي والبعد التاريخي، رؤية شاملة لنهضة أمتنا بما يتلاءم مع حاضرنا كي تقوم بدورها الحضاري المنشود في هداية الناس، ويتأكد للقرون الباقية من عمر الدنيا أن رسالة الإسلام الخالدة التي بعث بها الحبيب محمد ﷺ لم تفن، ولن تفنى، وإن القرآن الكريم هو كلمة الحق الباقية إلى يوم الدين، وعلينا أن ننظر بعيوننا في أمورنا قبل أن نحتاج إليها لكي نبكي بها طويلاً.

وعندما يقول الناس: فلان فقد ذاكرته، عرفنا أنه على عتبة الجنون، فما بعد الذهول عما كان إلا العجز عن مواجهة ما يكون. وعندما يقول الناس: فلان ليس له مهاد يبنى عليه ولا تقاليد ينبعث منها، ولا تراث يستمد منه، عرفنا أنه زنيم، يرتجل سيرته، ومسلكه دون أساس ولا مقياس، وذاك ما عناه شوقي في قوله:

مثـــل القـــوم نســـوا تـــاريخهم ::: كلقيط عَـــىَّ في الحـــى انتســـابا
أو كمغلـــوب علـــى ذاكـــرة ::: يشتكى من صلة الماضى انقضـــابا

ونحن المسلمين أبناء تاريخ طويل عريض، ربما بدأت رسالتنا، مع بعثة إمام الأنبياء النبى العربى المحمد! ولكن هذا النبى القمة بين أن الإسلام رسالة الأنبياء كلهم، بيد أن جماهير غفيرة زاغت عنه، وقامت في الأرض دول مرهوبة تعبد أوهام الخرافة والسلطة وتبتذل خصائص الإنسان العليا بين يدى صنم من الحجارة أو صنم حى من أبنـاء آدم تلقـب بفرعـون أو بقيصـر أو بشـتى الألقـاب الخادعـة... ومحمـد نبـى الله ﷺ هـو الإنسـان الوحيـد الـذي هتـك سـدول الباطـل، وساق الجماهير إلى معرفة الله الواحد، واستنقذها بقوة من فتك القوى الشريرة.. ولـه ﷺ سيرة لما تستكشف أعماقها، ولأمته تاريخ حافل غريب لا أدرى لماذا عومل بالطريقة التي عومل بها؟ إنه في نظرى مجهـول الحقـائق مخبـوء الأسـرار، ولا أحسـب أمـة فـي الأولـين والآخرين أفقر إلى معرفة تاريخها من أمتنا الإسلامية!!{أَوَلَمْ يَهْدِ} أى: يتبـــــــين{لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ} [الأعـراف: ١٠٠] وقولـــه:{ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ} [السجدة: ٢٦] إن مـا وقـع أمـس لا يعنـى أصـحابه وحـدهم! يجـب علينـا أن نكتـرث بـه، ونفيـد منـه، ونوازن ونحكم، وإلا دفعنا ثمن جهالتنا من دمائنا واستقرارنا.. وقد أبان القرآن الكريم أن هناك عقلا يتكون من التجربة، ومن السير في الأرض، ومـن الرحلـة إلـى الماضـى! وبـين أن الإنسـان الـذي تقـوم معرفته على قراءات سريعة، وأحكام نظرية، أضعف حسا من إنسان

له معاناة في الدنيا وتجارب مع الناس... هذا العقل المتولد من المدارسة والمعاناة، هو الذي يشير إليه القرآن الكريم عندما يقول:{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾} [الحج: ٤٦] وقد تساءل القرآن الكريم مستنكرا حال قوم يمرون بآثار الماضين الهالكين، ثم لا يرعوون:{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾} [الفرقان: ٤٠]. ومن هنا نجد أن دراسة التاريخ فريضة دينية، وهي إلى جوار ذلك فريضة إنسانية، بل إنني - بعد التأمل في تاريخ المسلمين القريب والبعيد - أشعر بأنها ضرورة بقاء؟ وسياج لحياتنا ورسالتنا، إذا كنا حراصا على صون حياتنا وتبليغ رسالتنا...

ونهضة الشعوب من عوامل نجاحها والالتفاف إلى ماضيها لخدمة حاضرها واستشراف مستقبلها.

فنحن في حاجة إلى من ينشط ذاكرة الأمة العربية والإسلامية وأن يردها في حاضرها إلى ماض حافل بصور المجد والجلال، وأن يهديها، بالموازنة، إلى عوامل الضعف التي أنهكتها.

ويجب أن نعلم أن الذاكرة التاريخية للأمة هي التي تحميها من الانهيار، وأمة بدون تاريخ مثل شخص فقد الذاكرة تماماً، ونحن للأسف ذاكرتنا التاريخية مشوّهة، وذلك لأننا لا نحسن استدعاء التاريخ، ولا نحسن الاستفادة منه في حماية الحاضر وتحقيق الأمل في المستقبل؛ فالتاريخ في حقيقته هو علم الحاضر والمستقبل. ونحن نحاول أن نلجأ إلى التاريخ مع أننا في الواقع نهمل التاريخ. فينبغي

أن نعلم أن التاريخ هو صورة للعهود والحقب الماضية، وهذه الصورة تكون صادقة كلما كانت واضحة القسمات بيّنة السّمات.

ولكن كيف ترضى أمةٌ هي خير أمةٍ أخرجت للناس، بمن يمحو ذاكرتها، وذاكرة شعوبها، ويلغي تاريخها ويطمس مجدها؟!

كيف ترجى عزة أو يؤمَّل النصر، وقد اهتزت العقيدة، وفُقِد المثل الأعلى، وطمس التاريخ؟!

ولن تستعيد الأمة حقوقها، ولن تنتصر على أعدائها إلا حين تطلب العزة من مظانها، والعزة لا تطلب من الكافرين، فالعزة تطلب من رب العزة وحده لا شريك له، قال الله: { مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠].

وعلق على هذه الآية الإمام القرطبي رحمه الله، وهو ممن عاش أيام سقوط الأندلس وأفول شمس المسلمين هناك.

يقول رحمه الله: " هذا تنبيهٌ لذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تستحق؛ فمن طلب العزة من الله وحده، وصدق في طلبها في افتقارٍ لربه وذلة وسكونٍ وخضوع، وجدها عند الله - إن شاء الله - غير ممنوعة ولا محجوبة عنه، وفي الحديث: «مَن تواضع لله رفعه».

قال: ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده.

وقد ذكر الله أقواماً طلبوا العزة عند من سواه، فقال: { ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا

وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)} [النساء: ١٣٩ - ١٤٠].

قال رحمه الله: فأنبأك صريحاً لا إشكال فيه أن العزة لله سبحانه، يُعِزُّ بها من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، ومن اعتز بالله أعزه الله، ومن اعتز بغيره أذله الله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

في ماضي تاريخ المسلمين مرت فتراتٍ حوالَيه، مستهم فيها البأساء والضراء وزلزلوا، فاجتاح التتار ديار المسلمين، فضج منهم السهل والجبل، وأريقت دماء، وسجل التاريخ هول المناظر، وبشاعة الأحوال، وقد وُقِّف زحفُهم، ولكن لم يوقفه إلا العودة إلى الأصل والمنبع، إنه الإسلام ولا شيء غير الإسلام الذي تردد في بطاح عين جالوت، ولم يوقف تيار التتار سوى هذا النداء، نداء الإسلام:{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨].

إن العزة الحقة حقيقةٌ تستقر في القلب، فيستعلي بها المرء على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله، عزةٌ يستعلي بها على الشهوات المذلة، والرغائب القاهرة، وحين تتحقق العزة لمؤمن، فلن يملك أحدٌ إذلاله وإخضاعه، وإنما تذل الناسَ شهواتهم ورغباتُهم، ومطامعُهم

ومخاوفهم.

وليست العزة عناداً جامحاً، يستكبر على الحق، ويتشامخ بالباطل، وليست طغياناً فاجراً، يضرب في عتوٍ وتجبر، وليست اندفاعاً، يخضع لنزوة، ويذل لشهوة، لكنه استعلاءٌ على الذلة والمهانة، واستعلاءٌ على الخضوع لغير الله.

هاهو ربعي بن عامر، ابن الصحراء الجافة القاحلة، يباشر الإيمانُ قلبَه، ويستبطن القرآن بين جنبيه، فيقف أمام قائد الفرس، فيسأله رستم، بأبهته وعسكره: من أنتم؟ فيجيب ربعي بن عامر في عزة المؤمن إجابةً خلدها التاريخ: (نحن قومٌ ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) إنها عزة النفس، وعلو العقيدة، وشموخ الراية التي يقف تحتها المؤمن في مواجهة أعداء الله.

إنها الثقة بالحق الذي معه، والخير الذي يحمله، عزةٌ تجعله يحمل الآخرين على الحق، لا أن يذوب معهم في الباطل، وهي قبل ذلك وبعده الثقة بالله، والثقة بغلبة الحق وأهله، مهما أصابه من قرحٍ في مسيرة الحياة الطويلة، كما قال عز وجل:{وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ}

[آل عمران: ١٣٩ - ١٤١].

فهل يفقه هذا أهل الإسلام؟! وهل يعي المسلمون تاريخهم

ومسيرة دينهم؟!

إني تذكرت والـذكرى مؤرقـة ::: مجـداً تليـداً بأيـدينا أضـعناه
ويح العروبة كان الكون مسرحها ::: فأصـبحت تتـوارى في زوايـاه
أنى اتجهت إلى الإسـلام في بلـد ::: تجده كالطير مقصوصـاً جناحـاه
كم صرفتنا يـد كنـا نصـرفها ::: وبات يحكمنـا شـعب ملكنـاه
كنا أسوداً ملوك الأرض ترهبنـا ::: والآن أصبح فأر الـدار نخشـاه

إن تـاريخ أمتنـا يكشـف لنـا أن المسلمين انتصـروا فـي معـاركهم الكبرى جميعها رغم قلة قوتهم عدداً، وعدة مقارنة بعدوهم، ففي يوم بـدر يقـول سـبحانه وتعـالى:{ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾} [آل عمران: ١٣]، وهكذا كان الحال في اليرموك والقادسية، بل وفي حطين وعين جـالوت، ومثـل ذلـك فـي فـتح الأنـدلس والقسطنطينية، وفـي العصـر الحديث كانت المقاومة الباسلة للمحتل الفرنسي في الجزائر، وللمحتل الإيطـالي فـي ليبيـا، وللمحتـل الإنجليـزي فـي مصـر والعـراق وغيـر ذلك، وقل أن تجد في التاريخ مقاومة لمحتل لديها قوة مكافئة للمحتل فضـلاً عن أن تكون متفوقـة عليـه، ومن ثم لا بـد من تقديم ضـريبة العز، وبذل عربون النصر من خلال تقديم الشهداء، وضـرب أروع أمثلـة التضـحية والفداء، وأمـا الانتظـار إلـى أن تتعـادل الكفـة وتتكافـأ القوى فغير ممكن وخاصة في ظل حكومـات عربيـة لا هم لهـا سوى الحفاظ على كراسي حكمها.

يا ويحنا مـاذا أصـاب رجالنـا ::: أو مالنـا سـعد ولا مقـداد؟
نامـت ليـالي الغـافلين وليلنـا ::: أرق يـذيب قلوبنـا وسـهاد

سلت سيوف المعتدين وعربدت ::: وسيوفنا ضاقت بها الأغماد
هذا هو الأقصي يلوك جراحه ::: والمسلمون جموعهم آحاد
دمع اليتامى فيه شاهد ذلة ::: وسواد أعينهن فيه حداد
أواه يا أبتي على أمجادنا ::: يختال فوق رفاهٍا الجلاد
أجدادنا كتبوا مآثر عزها ::: فمحا مآثر عزها الأحفاد

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ في كل غزوة يشاركون فيها أقل عدداً وعُدّة من عدوهم، وكان اعتمادهم بالنصر على الله - تعالى - وحده، فكان النصر حليفهم والفوز رديفهم، عدا معركة واحدة هي معركة (حنين) شاركوا فيها وكانوا أكثر عدداًَ، فاعتمدوا - في البداية - على ذلك، حتى قال قائلهم: «لن نُهزَم اليوم من قلة»، فوكلهم الله - تعالى - إلى السبب الذي اعتمدوا عليه، فلم يُغن عنهم شيئاًَ{وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ} [التوبة: ٢٥].

فنحن أمة رسالة، نستمد قوتنا وعزتنا من ديننا أولاً، وإذا كان الله - تعالى - قد أمرنا بإعداد القوة المادية، فقد أمرنا قبل ذلك بإعداد القوة الإيمانية، فلا ينبغي الاعتماد عليها فحسب؛ وما قيمة الإيمان حينئذٍ إذا كان مطلوبًا منا - كما يزعم بعض الانهزاميين - أن نعد قوة كقوة العدو، وألا نقاتله حتى نماثله في القوة، فالمسألة توازن لا إفراط ولا تفريط، وإذا كان الإعداد المادي (مهمًّا) وهو كذلك؛ فإن الإعداد الروحي والزاد الإيماني (أهمُّ) وأوْلى. فمن المسلَّم به أن المقدمات إذا صحّت، أعقبها نتائج مثمرة بإذن الله.

وليوم " بدر " فيك آيات بَدَت ::: في نصرة الإسلام للأعيان
زحف البغاةُ المشركون بقضِّهم ::: وقضيضهم في جحفل العُدوان

يبغون غزو محمدٍ في " يثرب " ::: غضبًا لسيدهم " أبي سفيان "
والمسلمون وهم قليلٌ يومها ::: نفروا نفار القَسْور الغضبان
يتسابقون إلى الشَّهادة في الوغى ::: في لهفة الظَّمآن للغُدران
وكتائب الأملاك قاد لواءها ::: " جبريل " قد هَبطَت إلى الميدان
فإذا بجيش المشركين مفزَّعًا ::: ومصرَّعا، قد خَرَّ للأذقان
وفلوله نَكَصَت على أعقابها ::: مذهولة كالهائم الحيران
وإذا " بمكة " كل بيت مأتم ::: ومناحة مشبوبة الأحزان
الله أكبر قد أعزَّ محمدًا ::: وأذلَّ أهل الشِّرك والطغيان
وتتابع النَّصر المبين وصَلْصَلت ::: أجراسُه كالشَّدو في الآذان
واستسلمت للفتح " مكة " وانجلى ::: عنها ظلام الشرك والأوثان
وأُبيدت الأصنام آلهةُ الأُلى ::: ضلَّوا ضلال الصُّم والعميان
ثم انبرى العرب الكُماة " لرودس " ::: فاستسلمت للقادة الفرسان
ولفتح " أندلس " على يد " طارق" ::: نصرٌ، به نلنا أعز مكان
وعلى " التتار " وجنده مجدٌ لنا ::: في " عين جالوت " عظيم الشان
لا بالجيوش يُنال نصرٌ حاسم ::: لكنه بالصبر والإيمان

والشواهد تدل على أن حركة التاريخ لا تخضع للعوامل المادية فحسب؛ وإلا فما كان لموسى أن يصارع فرعون، ولا للضعفاء أن يقاوموا المستبدين من المستعمرين، ولا لمحمد ﷺ ومن آمن معه أن يقاتلوا قريشاً والقبائل العربية وفارس والروم. ولولا الخيانات لما سقط (العراق) حتى وإن تفوّق الأعداء في العدد والعدة، وبالرغم من تلك القوة القاهرة؛ فإن المقاومة العراقية ما زالت صامدة ثابتة، ولو تمكنت من امتلاك (بعض) أنواع الأسلحة التي يمتلكها العدو لما بقي أولئك الأعداء يومًا واحدًا في بلدهم. قال تعالى:{كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

كما أن التاريخ يقص علينا أن الإسلام انتصر في جميع عهوده التي كان المسلمون فيها متحدين متآخين، فبدأ الرسول ﷺ بالمؤاخاة الفعلية بين المسلمين، ثم حقق لهم معنى الإخاء الأكبر الدائم فيما بينهم، وصار العرب بفضل الإسلام كتلة واحدة بعد أن كانوا في الجاهلية قبائل متفرقة تمزقهم العداوات والأحقاد والإحن القديمة:{ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾} [الأنفال: ٦٣].

ولم يتمكن المسلمون من القضاء على أعدائهم بعد النبي عليه السلام إلا بوحدة الصف وتوحيد الهدف، كما حصل مثلاً في وقعة اليرموك وفي حرب المغول والتتر وانتصار المسلمين في موقعة عين جالوت، وفي معركة حطين وطرد الصليبيين من بلاد المشرق وفتح بيت المقدس.

كما أن المعارك والمواجهات التي خاضها ويخوضها المسلمون إنما هي جزء من مرحلة طويلة في مضمار الصراع، ولا زالت هناك مراحل مليئة بالمواجهات فلا ينبغي أن تختصر القضية في هذه الأحداث الجارية حالياً، ولا ينبغي أن نؤخذ بالأحداث الآنية فالأيام دول،{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران: ١٤٠].

وفي يوم أحد: " قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، يوم لنا ويوم علينا، ويوم نُسَاء ويوم نُسَر، حنظلة بحنظلة، وفلان بفلان، وفلان بفلان "، فقال رسول الله ﷺ:«**لا سواء، أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وقتلاكم في النار يعذبون**»، وإن الأحداث الراهنة - بما فيها من شدة وعسر -

تكشف صدق الصادقين وزيف المدعين الذين وجدوا في ظاهر الأحداث فرصة للتشفي من أمتهم ومبادئها، وتأكيداً لخنوعهم ودعوتهم المخذلة للارتماء في أحضان الخصوم والأعداء{مَّاكَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾} [آل عمران: ١٧٩].

إن أمتنا بحاجة ماسة إلى القدوة الفعلية المهتدية بالكتاب والسنة وهدي سلف الأمة التي تقف الألفاظ البليغة والعبارات القوية أمام فعلها عاجزة عن التعبير والوصف.

فالأمة الآن بحاجة إلى مدارسة سيرة رجال يبعثون فيها الهمة العالية والقدوة الحسنة إلى رجال عاشوا يقتفون أثر الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم وساروا على دربه، إلى رجال تحيا القلوب بذكرهم، حتى تستيقظ الأمة من غفوتها، وتقوم من كبوتها، ولكن شتان ما بين رجال ورجال، شتان ما بين رجال خلد الله ذكرهم على مر القرون وهم أموات، ورجال لا وزن لهم ولا ذكر لهم وهم أحياء، أولئك تحيا القلوب بذكرهم، وهؤلاء تموت القلوب بمجالستهم.

يقول " بشر الحافي ": " بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم ".

إنّ البنفسجَ ترتاحُ القلوبُ لـه ::: ويعجزُ الوصفُ عن تحديدِ معجبهِ

أوراقُه شُعل الكبريت منظرها ::: وريحه عنبرٌ تُحيا القلوبُ بهِ

فالذكرى الحسنة لا تأتي من فراغ أو غثاء لذلك كان النداء من السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيوضع له القبول في الأرض

ليس مَنْ ماتَ فاستراح بَميْتٍ ::: إنّما الميْتُ ميّتُ الأحياءِ
إنَّمَا المَيْتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلاً ::: كَاسِفًا بَالُهُ قَلِيلَ الرّجَاءِ
فَأُنَاسٌ يُمَصَّصُونَ ثِمَادًا ::: وَأُنَاسٌ حُلُوقُهُمْ فِي المَاءِ [(١)]

فهناك أناس أحياء الجسد لكنهم موتى القلوب{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾} [الأعراف: ١٧٩]،{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾} [الفرقان: ٤٤].

فهذا إبراهيم عليه السلام طَلَبَ الذكرى الطيبة لنفسه على جلالة قدره:{وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾} [الشعراء: ٨٤] والمعنى: اجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير.

وليس الموت انقطاع النفس ::: ولكن الميت مَن يحيى بلا أثر

يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسا تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم

(١) الثماد الماء القليل يبقى في الحفر. والأبيات للشاعرعدي بن الرعلاء الغساني، والرعلاء أمه. أنظر: الأصمعيات: ٥، ومعجم الشعراء: ٢٥٢، وتهذيب الألفاظ: ٤٤٨، والخزانة ٤: ١٨٧، وشرح شواهد المغني: ١٣٨.

أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

صور من الأحلام تثلج خاطري ::: ولقد تسر العاشق الأحلام
صور رسمت أمام قلبي لوحة منها ::: لعل جراحه تلتام
صور وتنسفها وقائع أمتي ::: نسفا ويبتلع المكان ظلام
وعلى رصيف الليل طفل واهم ::: نظراته نحو القلوب سهام
وسؤاله الملهوف يحرق مهجتي ::: أو ليس ديني يا أبي الإسلام
أو ليس منهج أمتي قرآنها ::: فبه لها في العالمين مقام
أو ليس قدوتنا الرسول محمد ::: تهدي إليه صلاتنا وسلام
أو ما لنا في المجد ألف حكاية ::: تعبت على تدوينها الأقلام
أو ما جرت أنهارنا رقراقة ::: بالخير ترفع فوقها الأعلام
أو ما لدينا النبع يصفو ماؤه ::: وعليه من شفق القلوب زحام
أو لم نكن جسر النجاة لعالم ::: يشقي به الضعفاء والأيتام
أو لم تصغ بدر بداية مجدنا ::: لما تهاوت عندها الأرقام
ألف تقابل ثلث ألف إنها ::: لأدلة للواهمين تقام
أو يكن بالفتح صرف عقيدة ::: في صدرها للمكرمات وسام
أو ما تري في الكون صوت بلالنا ::: وعلى صداه تهاوت الأصنام
أو لم تكن ذات السلاسل لوحة ::: مرسومة وإباؤنا الرسام
أو ما رأي اليرموك كيف استبشرت ::: ببزوغ فجر المسلمين الشام
أو لم تكن للقادسية قصة ::: أدلي بوصف شموخها الصمصام
أو لم نعلق في المدائن شمعة ::: بيضاء فر أمامها الإظلام
أو لم نلقن قيصرا وحشوده ::: درسا تحار أمامه الأفهام
أو لم ندع كسري على إيوانه ::: يبكي وتأكل صدره الآلام
أو لم يسلم جاذويه سلاحه ::: فرقا ويندب حظه بهرام
أو لم تخض بحر البطولة خيلنا ::: وبقلب أندلس لها إعظام

أو لم تقل للصين خيل قتيبة ::: جئنا يزف صهيلنا الإقدام

أو لم تفض حطين لحنا خالدا ::: تهفو إلى أنغامه الأنغام

أو لم تكن في عين جالوت لنا ::: همم لردع المعتدين عظام

أو هكذا ننسي المفاخر مثلما ::: ينسي الصغير هوي الرضاع فطام

أو هكذا أبتاه تسكر أمتي ::: سكرا يقدم كأسه الإعلام

أو هكذا تطوي عزائم جيلنا ::: قصص تصور فحشها الأفلام

قل لي أبي أنظل نأكل خبزنا ::: وعليه من دمنا المراق إدام

قل لي أبي أنظل نشرب ماءنا ::: والقدس يهتك عرضها وتضام

قل لي أبي أيبيت طفل ساهرا ::: في كفه حجر ونحن ننام

ورمت عيون المخبرين وراءه ::: وعلى شفاه الصامتين خطام

سكتوا لأن السيف مسلول إذا ::: نطقوا بما لا يرغب الأقزام

سيفان يا أبتاه سيف عدونا ::: صلت وسيف سله الحكام

وغرور أمريكا أحال رجالنا ::: خشبا تسمر فوقه الأحلام

أو ما لنا أبتاه عزم صادق ::: أو ليس بين صفوفنا مقدام

أو ما لنا في السلم نهج واضح ::: أو ما لنا وقت الحروب حسام

أو ما لنا في عالم اليوم الذي ::: يجري طريق واضح ونظام

أبتاه هذا بيتنا قد هدمت ::: جدرانه وأمامنا الهدام

أبتاه هذا جسم أمتنا تري ::: يه اللظى واستشرت الأورام

أبتاه هذا درب أمتنا شكى ::: يه الثري ما تصنع الألغام

كفر وربك يا أبي ينوي بنا ::: را ونحن كأننا الأنعام

قل لي أبي أنظل نعلق صمتنا ::: على الأنوف مذلة ورغام

أنظل نخفض للصليب رؤوسنا ::: ينام فوق فراشنا الحاخام

أو هكذا أبتاه ننسي ديننا ::: ويزيحنا عن مجدنا استسلام

كان الأب المسكين يحبس دمعه ::: لحزنه بين الضلوع ضرام

أبني لا تنطق فقد أجمتني ::: واه كم يؤذي الكريم لجام

هذه هي الأمراض قد فتكت بنا ::: عصرنا ودواءها الإسلام

ولكن يبقي الأمل، ويجب أن ندرك جميعا أن لحظات السقوط هي بداية الإقلاع وبداية الارتفاع وبداية التغيير الحقيقي، وأن في رحم مرحلة السقوط ينشأ جنين الانبعاث الجديد.

واغسلْ قلوب المسلمين وضعْ بها ::: أملاً به تحيا القلوبُ وتخفقُ

فما أحوجَنا ونحن في هذا الزمن، زمن الهزائم والانكسارات والجراحات إلى الأمل. فمن يدري؟! ربما كانت هذه المصائب بابًا إلى خير مجهول، ورب محنة في طيها منحة، أوليس قد قال الله: {وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ} [البقرة: ٢١٦] ؟!

لقد ضاقت مكةُ برسول الله ومكرت به فجعل نصرَه وتمكينَه في المدينة. وأوجفت قبائل العرب على أبي بكرٍ مرتدة، وظن الظانون أن الإسلامَ زائلٌ لا محالة، فإذا به يمتدُ من بعد ليعم أرجاء الأرض.

وهاجت الفتنُ في الأمة بعد قتل عثمان حتى قيل: لا قرار لها، ثم عادت المياه إلى مجراها، وتتوالى الفتوحات ليصل بنو عثمان قلبَ أوروبا. وأطبق التتارُ على أمةِ الإسلام حتى أبادوا حاضرتَها بغداد سُرّة الدنيا، وقتلوا في بغداد وحدها مليوني مسلم، وقيل: ذهبت ريح الإسلام، فكسر الله أعداءه في عين جالوت وعاد للأمة مجدها.

وتمالأ الصليبيون وجيشوا جيوشَهم وخاضت خيولَهم في دماء المسلمين إلى ركبها، حتى إذا استيأس ضعيفوا الإيمان نهض صلاح الدين فرجحت الكِفةُ الطائشةُ وطاشتِ الراجحة، وابتسم بيت المقدس من جديد. وقويت شوكةُ الرافضة حتى سيطر البويهيون على بغداد، والعبيديون على مصر، وكتبت مسبّة الصحابة على المحاريب، ثم

انقشعت الغمة واستطلق وجه السُّنة ضاحكًا.

وهكذا يعقب الفرج الشدة، ويتبع الهزيمة النصر، ويؤذن الفجر على أذيال ليل مهزوم، فلم اليأس والقنوط؟!

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

يا ليل أمتنا الطويـل متى نـرى ::: فجـرا تغـرد فوقـه الأمجـاد
ومتى نـرى بوابـة مفتوحـة ::: للحـق تقصـر عنـدها الآمـاد
أنا يـا أبي طفـل ولكـن همـتي ::: فجـر بـه يحلـو لي استشـهاد
لا تخش يـا أبـتي علـى فربمـا ::: قامت على عـزم الصـغير بـلاد
ولربمـا مـات القـوي بسـيفه ::: وقضى على مال الغـني كسـاد

أيها المسلمون، إن اليأس والقنوط ليسا من خلق المسلم، قال سبحانه:{وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ} [يوسف: ٨٧]. قال ابن مسعود: (أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله).

إذا اشتملت على اليأسِ القلـوبُ ::: وضاق لما بـهِ الصـدرُ الرحيـبُ
ولم تر لانكشافِ الضـرِ وجهـا ::: ولا أغـنى بحيلتِـه الأريـبُ
أتاك على قنـوطٍ منـك غـوثٌ ::: يمـنُ بـه اللطيـفُ المسـتجيبُ
وكـل الحادثـاتِ وإن تناهـت ::: فموصولٌ بها الفـرجِ القريـب.

ومن يستقرئ التاريخ يجد فيه ما يبدد التشاؤم، ويرفع اليأس، ويزرع الثقة ويُذكي الأمل؛ فليس شرطاً أن الأمم المؤمنة بالله لا تتفوق ولا تنتصر على أعدائها إلا إذا كانت مكافئة لهم، أو أقوى عدداً وعدة منهم.

بنو إسرائيل، كانوا يعيشون في مصر، وكانت بالنسبة لهم بيئة

قاتمة خانقة، قد أطبقت عليهم كل الإطباق، وسدت في وجوههم المنافذ والأبواب؛ فهم يعيشون في حاضر شقي، ومستقبل مظلم، وقلة عدد وعدة، وفقر وذلة، وفي ظل هذه الظروف يولد موسى - عليه السلام - وولادته وحياته كلها تحدٍّ لفلسفة الأسباب، ومنطق الأشياء: أراد فرعون ألا يولد فوُلد، وأراد ألا يعيش فعاش. يعيش في صندوق خشبي مسدود، وفي ماء النيل الفائض، وينشأ عند عدو قاهر، وسُخرة ظالمة، لا قوة تدافع ولا دولة تحمي؛ فيجد الضيافة الكريمة، ويرجع بأهله فيلفُّه الليل المظلم والطريق الموحش، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي بها، فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل، ويهتدي به العالم، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة، فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلها، ويكرم بالنبوة والرسالة، ويدخل على فرعون في أُبهته وسلطانه، وفي ملئه وأعوانه. وهكذا يهلك فرعون وقومه (الأغنياء الأقوياء) ويملك بنو إسرائيل (الضعفاء الفقراء):{وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾} [الأعراف: ١٣٧].

والأمة العربية قبل مبعث الحبيب محمد ﷺ كانت أمة موغلة في التخلف والضعف والهوان والانحطاط في معظم الميادين والمجالات، السياسية والعقدية والاجتماعية والسلوكية والحربية.

ومن كان هذا شأنهم فإنهم لا يفكرون ولا يحلمون حتى في المنام بالهجوم على الدول المجاورة فضلاً على الانتصار عليها، حتى إن

فارس والروم (الدول العظمى في ذلك الوقت) لم تفكرا مجرد تفكير في فتح الجزيرة والاستيلاء عليها، وذلك لقلة خيراتها ومواردها، وهوان أهلها عليهم.

ولكن الله - تعالى - امتن على تلك الأمة بأن بعث فيهم خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ، فجاء إليهم وعندهم من الفساد والهوان والبعد عن الفطرة ما ذُكر، وفي ظل سنوات معدودة، تغيرت حالهم، وانقلبت أمورهم، فخرجوا من جزيرتهم كالسيل الجارف يفتحون ويقهرون، بثياب مرقعة، وسيوف بالية، على خيل بعضها عارية؛ فما لبثوا أن ملكوا الدنيا، وانقلب رعاة الشاة والإبل إلى ساسة لأرقى الأمم.

هل نسيت الأمة رحمة الله وفضله وأن الدنيا متقلبٌ بين حزن وسرور، وضيقٍ وحبور، وأن العاقبةَ لمن اتقى، وأن الجنة هي المأوى ولسوف يعطيك ربك فترضى، وأن الدنيا دار البلاء فمن سخط فعليه السخط، ومن رضي فله الرضا؟! فمع الألم يصنع الأمل، وإذا حل الأجل انقطع العمل.

والله أسأل أن يوفّق قومنا ::: للصالحات قصيِّهم والدَّاني
ويعيد للإسلام سالفَ مجدِه ::: في وحدةٍ مشدودة الأركان
وعلى الطَّريق المستقيم يسوسُنا ::: عدلٌ، يبارك عدله العمران

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه
رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

معركة وادي لكة وفتح الأندلس

[الأحـــــــد ٢٨ مـــن رمضـــان عـــام ٩٢هــــــ ١٩ يوليو ٧١١م]

معركة وادي لكة وفتح الأندلس
[الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ / ١٩ يوليو ٧١١م]

سكان الأندلس في الأصل خليط من: الكلتيين والأيبيريين والوندال والألان والسويف والقوط الشرقيين والقوط الغربيين والفينيقيين والرومان، فهم في حقيقة الأمر خليط من عناصر فينقية ورومانية وجرمانية وإغريقية ويهودية، ثم جاءت العناصر الإسلامية التي يمثلها العرب والبربر (١).

وكان الفينيقيون قد أسسوا على سواحل إسبانيا عدة مستعمرات لهم، كما أسس الإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد بعض المراكز الاستعمارية في شبه الجزيرة الأيبيرية وأطلقوا على سواحلها اسم أيبيريا، وما لبث هذا الاسم أن أطلق على الجزيرة بأسرها، ثم خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية للقرطاجانيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وازدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة في عهدهم واتخذوها في حاضرة لهم. وهكذا تلقت شبه جزيرة أيبيريا منذ سنة

(١) حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، الأندلس / صقلية الشام، ط الدار الجامعية ببيروت، ١٩٨٦ م، ص ١٥ - ١٦، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٨.

٥٣٥ ق. م حتى سنة ٢٠٥ ق. م تأثيرين هامين: أحدهما أوروبي وهوالتأثير الكلتي واليوناني، والآخر تأثير آسيوي إفريقي أو سامي هو التأثير القرطاجني، ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتيني أوروبي عقب الغزو الروماني عام ٢٠٥ ق. م، أذ اصبحت أيبيريا إقليما رومانيا نشروا فيه الحضارة الرومانية والقانون والفن الروماني، وقضوا على نفوذ القرطاجانيين. وأسس الرومان مدينة طالقة وجعلوها من أهم مراكزهم العرمرانية في جنوب أيبيريا [١].

ثم مع ضعف الدولة الرومانية الغربية، اجتاحتها قبائل جرمانية في موجات متتابعة، وكان القوط الغربيون أحد فروع الجرمان الذين استقروا في شبه الجزيرة الأيبيرية في أواخر القرن الرابع الميلادي، وهم أعظم فروع الجرمان الشرقيين، وقد استقر القوط في منطقتي أربونة وطركونة من شبه الجزيرة الأيبيرية، لم تلبث تلك المنطقتان أن أصبحتا نواة لدولة القوط الغربيين، التي اتسعت جنوبي غالة وشمال إسبانيا[٢].

وقد تمكن القوط الغربيون من طرد عناصر الوندال من إسبانيا إلى إفريقية سنة ٤٥٦م، واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها نهاية القرن الخامس الميلادي، واتخذ القوط من طليطلة عاصمة لدولتهم، وتأثروا بالحضارة والنظم الرومانية في قوانينهم ونظمهم، واعتنقوا المسيحية وظلوا يحكمون الأندلس حتى مجيء المسلمين إليها، وتغلبوا عليهم سنة ٩٢هـ / ٧١١م، وقد ساد البلاد خلال

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس وآثارهم، ص ٥١.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس وآثارهم، ص ٥٢.

حكمهم وضع شاذ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية حيث كان المجتمع مقسما إلى طبقات يتحكم بعضها في البعض الآخر بعنف وقسوة [١].

وفي تلك الأثناء كانت المملكة القوطية تجوز دور إنحلالها قبيل الفتح الإسلامي بأمد بعيد، وكان المجتمع الأسباني يعاني صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق، ولم يكن القوط في الحقيقة أمة موحدة بمعني الكلمة، فإنهم لم يمتزجوا بسكان البلاد، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب، الحاكم والمحكوم أمة واحدة، بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف، أما سواد الشعب الأعظم فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة للسيد حتى الموت، وإلي جانب السادة والأشراف يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ، ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير، واستطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية، وفقا لمثل الكنيسة وغاياتها، ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات، واقتناء الزراع والأرقاء، وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع في أيدي فئة قليلة

(١) محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ط دار الوفاء للطباعة، القاهرة ١٩٨٤ م، ص ١٤٩، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٨، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٩.

ممتازة من الأشراف ورجال الدين، واختصت بترف العيش، ومتاع الحياة، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار.

أما الشعب فقد كان في حالة يرثي لها من الحرمان والبؤس، يعاني أمر ظروف العسف والظلم والإرهاق، ويخص وحده دون الطبقات الممتازة بأعباء المغارم والضرائب الفادحة، ومشاق العمل، والسخرة في ضياع الأشراف ورجال الدين، وتسلبه فروض العبودية والرق، كل شعور بالعزة والكرامة، ولم يكن الشعب كما قدمنا سوي كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطي، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض المغارم الفادحة، عبء الحرب والدفاع عن الوطن، وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام، قد فقدت وحدتها وروحها وقوتها المعنوية، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة، فكذلك كان الجيش الإسباني منذ العهد الروماني، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود، فلما حل القوط في إسبانيا وذاقوا نعم السلم، بعد مشاق التجوال والغزو وتبوؤا مركز السيادة والغلبة، اعتمدوا في الدفاع عن مملكتهم الجديدة على هذا الجيش الذي تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها، ولا ريب أن شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر بكثير من الأحرار، وهذا ما يعني أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى هؤلاء الذين يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالمهم، أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ أمد بعيد صفاتهم الحربية القوية، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا روما، وتوغلوا فيما

بين الدانوب والمحيط، بل كان خلفاء الأريك يحتمون بصخور البرنية غارقين في سبات السلم، لا يعنون بتحصين مدينة، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف[١].

وكان يهود الجزيرة الأيبيرية كتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع أنواع الجور والاضطهاد، وكانت الكنيسة منذ أن اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة، ففي عصر الملك سيزوت فرض التنصير أوالنفي أو المصادرة على اليهود، فاعتنق النصرانية كثير منهم رياء وكرها سنة ٦١٦ م، ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها، سنة ٦٩٤م وكان ذلك في عهد الملك إيجيكا، فقرر أن يشتد في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحبار في طليطلة للنظر في ذلك، وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها، ولأنهم ارتدوا على النصرانية التي اعتنقوها من قبل، وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية، وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضي عليهم بالرق الأبدي للنصاري، وأن يهبهم الملك عبيدا لمن يشاء، وأن لا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وأن يحرر أرقائهم من النصاري

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٣٠ - ٣١، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٨ - ١٩.

ويمنحون بعض أملاكهم، وأن ينزع أبنائهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية، وأن لا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية،ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني.

وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف، فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق، وكانوا كبقية طوائف الشعب المهيضة، يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون في أولئك الفاتحين الجدد الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين [١].

هكذا كانت أحوال إسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطئ الأندلس، وكان على عرش إسبانيا يومئذ الملك وتيزا (غيطشة)، خلف الملك إجيكا والده، وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعب أضناه العسف، وتصف المصادر الإسبانية القديمة الملك وتيزا (غيطشة) بأنه كان ملكا خليعا فاجرا، مغرقا في شهواته، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال، في حين يقول البعض منهم: إنه كان بالعكس ملكا فاضلا حسن السيرة، وافر الحكمة والعدالة، وأنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل،والمرجح أنه أحسن السيرة في بداية عهده ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم، ولكنه حاول أن يحد من نفوذ وسلطة الأشراف والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة، ولكنه أخمدها جميعا، وهدم جميع الحصون والمعاقل الداخلية لكي يحطم سلطان

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٣٢.

خصومه، ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ظمأ للخروج والثورة، وكان في مقدمة خصومه الذين يخشي بأسهم دوق تيودور فريد الذي نفاه أبوه الملك إيجيكا إلى قرطبة، وزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة في النكاية به، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس والد فافيلا دوق كانتابريا، ولكنه استطاع الفرار من نقمته. كان الشعب من جهة أخري يرزح تحت نير الجور والإرهاق فقد كان البلاط القوطي يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط [١].

ومع اقتراب المسلمون من شواطئ إسبانيا كان يقود الثورة الداخلية عندئذ زعيم قوي جريء هو ردريك دوق تيودور فريد الذي سمل وتيزا (غيطشة) عيني والده، فكان يحفزه باعث الانتقام أيضا، وكان يتزعم حزبا قويا، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية، فجمع جيشا كبيرا ونادي بنفسه ملكا، ووقعت بين الفريقين حرب أهليه شديدة. وهنا تختلف الروايات فيقال: إن وتيزا قتل في النضال وخلص الملك لمنافسه، وفي رواية أخري: أن ردريك ظفر به وسمل عينيه إنتقاما لأبيه، ويقال أيضا: أنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته، وتختلف المصادر أيضا حول تاريخ ولاية ردريك الملك، في حين استمرت الحرب والخلاف بين ردريك وولدي وولدي وتيزا (غيطشة) وهما إيفا وسيزبوت، وقد لقيا المعاونة الكبيرة من عمهما أوباس أسقف طليطلة وإشبيليه ورأس الكنيسة، والتف حولهما رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم، وكان

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٣٣.

ردريك قوي الجانب وافرالشجاعة والعزم، فاستطاع أن يخمد الثورة في كل ناحية،واستتب له الأمر حينا، ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطربا يهتز في يد القدر، وكان الخطر يجثم في ناحية أخري.

ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة، وكان الكونت يوليان حاكم سبته والمضيق محط أنظارهم ومساعيهم(١)

فقد كان يوليان أصلا عاملا من عمّال دولة الروم، وحكم إقليم مرطانية الطنجية بحكم كونه قائدا عامّا مفوّضا من قبل الإمبراطور، وتولّى يوليان إدارة هذا الإقليم وهو صغير السن، ثم طال به الزمن دون أن تتمكّن دولة الروم من عزله أو استبدال غيره به؛ بسبب انشغالها بالحروب ضد العرب المسلمين الفاتحين في شمال إفريقيا، وأصبح يوليان مطلق التصرف في ولايته، وله صلات ودّية كثيرة مع أهلها من البربر وزعماء القبائل المجاورة له؛ حتى صار خبيرا بتقاليدهم وعاداتهم، وأجاد القيام بها إلى درجة جعلته يبدو كأحد أبناء البلاد الأصليين، لا تابعا لإمبراطورية الروم، ولا يمكن كشف حقيقة لونه السياسي في سهولة ويسر؛ فقد رأى يوليان حاكم سبتة أن الحكمة تفرض عليه التقرّب من القوة الإسلامية الجديدة التي صارت تجاور أملاكه مباشرة، وأن يقيم معها علاقات ودّية تعوّضه عن الضعف الذي دبّ إلى سلطانه في سبتة،

فاختلط على كثير من المؤرخين أمر يوليان حتى ذكر البعض

(١) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ١ / ٣٤.

أنه من البربر، على حين قال البعض الآخر: إنه من القوط دون أن يفطنوا إلى تبعيّته أصلا لإمبراطورية الروم، ولما انهار سلطان الروم في إفريقية بعد الفتوح العربية أخذ يوليان يعمل على تقوية روابطه بدولة القوط في إسبانيا على نحو ما فعل مع جيرانه من البربر؛ ليدعم مركزه ويحفظ أملاكه، ورحّب ملك القوط إذ ذاك - واسمه غيطشة - بولاء يوليان؛ بسبب أهمية سبتة لحماية دولته؛ فهي تتمتع بمركز جغرافي فريد يجعلها مفتاح إسبانيا والحارس الذي يحميها من هجوم قد يشنّ عليها من الجانب الإفريقي؛ فهي قبالة الجزيرة الخضراء من أرض إسبانيا، وتسيطر على المياه التي بينها وبين تلك الرقعة الإسبانية.

هذا وتتمتع إسبانيا بموقع طبيعي يجعلها حصنا منيعا في استطاعته أن يقاوم زمنا طويلا أيّ هجوم مفاجئ قد تتعرض له؛ فيوجد على بعد ميلين منها جبل موسى (نسبة إلى موسى بن نصير)، كما يحيط ماء البحر بها من ثلاث جهات مما زاد في مناعتها وقوتها، هذا إلى أنه قام على مقربة منها دار لصناعة السفن التي استخدمت في العبور إلى الأندلس.

ورأى يوليان على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط في إسبانيا أنّ تطوّر الأوضاع في بلاد المغرب واستقرار الفتوح الإسلامية بها يفرض عليه حسن الجوار مع الإدارة العربية الجديدة وتجنّب الاصطدام بها؛ ولذا رحّب يوليان بسياسة موسى بن نصير الذي آثر عدم الاستمرار في الاستيلاء على سبتة، وكان موسى قد ترك لقائده طارق بن زياد في طنجة مهمة تنظيم علاقة الجوار مع حاكم هذه

المدينة الهامّة الذي يعتبر مفتاح بلاد الأندلس، ونجح طارق في دعم صداقته ليوليان، وبدأ يطلّ من هذه المدينة على إسبانيا ويدرس أحوالها دون أن يثير مخاوف القوط أو يبعث الريبة في نفوسهم باستعدادات المسلمين الحربية، وسارت الأمور بعد ذلك في سبتة بما ساعد موسى بن نصير على أن يكمل دراسته الخاصة بفتح إسبانيا ويعرف المزيد من الأخبار التي تهيّئ للمسلمين القيام بفتوحهم في هذا الميدان الجديد؛ وسبب ذلك أن دولة القوط في إسبانيا تعرّضت لاضطرابات شديدة تردّد صداها في مدينة سبتة، ودفعت بحاكمها يوليان إلى الانتقال من سياسة حسن جواره للمسلمين إلى سياسة التحالف والاتّفاق على تحقيق المصالح المشتركة بينهما، ذلك أن رودريك، وهو الذي عرفه العرب باسم لوذريق - استطاع أن يطيح بالملك الحاكم وهو غيطشة، ثم اعتلى العرش، ولم يكتف لوذريق بذلك وإنما أخذ يعمل على إنزال أشدّ ألوان الأذى بأبناء غيطشة وسائر آل بيته، وآتت هذه السياسية الخرقاء من جانب لوذريق ثمرة لم يكن يتوقعها على الإطلاق؛ ذلك أن أبناء غيطشة حين اشتدت بهم المتاعب وسدّت في وجوههم السبل أخذوا يلجئون إلى جهة أخرى يستمدون منها العون والمساعدة على استرداد حقّهم المسلوب، وكان موسى بن نصير قد بدأ يتطلّع إلى إسبانيا عن طريق نافذة سبتة، ولم تلبث الأحداث أن جعلت سبتة تقوم بدور مباشر في نقل صورة كاملة عن تلك الأحوال السائدة في إسبانيا إلى موسى بن نصير، فضلاً عن قيامها بدور الوساطة بين أبناء غيطشة وموسى بن نصير، ووجد أبناء غيطشة من يوليان حاكم سبتة رسولا إلى موسى بن نصير،

وساعِدا ومعاضدا لمشاريعهم؛ بسبب سوء العلاقات التي وقعت إذ ذاك بين هذا الحاكم وبين لوذريق [(١)].

وتذكر المراجع أن سبب سوء العلاقات يرجع إلى اعتداء لوذريق على شرف ابنة يوليان التي كانت تتعلّم في طليطلة، وكانت العادة قد جرت على أن يبعث كبار رجال الدولة من القوط بأبنائهم إلى طليطلة ليتأدّبوا بآداب البيت المالك، وليكون ذلك سبيلا لتأليف القلوب.

وأسهبت المراجع في قصة ابنة يوليان؛ فوصفتها بأنها بارعة الجمال، فلما صارت عند لوذريق وقعت عينه عليها فأعجبته وأحبّها حبّا شديدا، ولم يملك نفسه حتى أكرهها، فاحتالت حتى أعلمت والدها بذلك سرّا بمكاتبة خفيّة؛ فأحفظه شأنها جدّا واشتدّت حميّته وقال: ودين المسيح لأزيلنّ ملكه وسلطانه، ولأحفرنّ تحت قدميه! ورأى يوليان أن يحتال أوّلا لاستدعاء ابنته من بلاط لوذريق؛ فخرج بنفسه في يوم من أيام الشتاء البارد دون أن يأبه بمخاطر الطريق، وعندما وصل إلى طليطلة أوجس منه لوذريق خيفة بسبب حضوره في ذلك الوقت غير الملائم، وسأله عمّا لديه، وما جاء فيه، ولِمَ جاء في مثل وقته؟ فأجاب يوليان بأن سبب حضوره هو أن زوجته مريضة مرض الموت، وأنها في شدّة شوقها لرؤية ابنتها التي هي عنده، وتمنّيها لقاءها قبل الموت وإلحاحها عليه في إحضارها، وأنه أحبّ إسعافها ورجا بلوغ أمنيتها منه، وانخدع لوذريق بهذه الحجّة وسمح لابنة يوليان بالعودة إلى أبيها بعد أن استوثق منها بألا تطلعه على ما

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٥.

حدث بينهما [١].

وبعد أن استقرّ يوليان ومعه ابنته في سبتة بدأ يكشف نواياه صراحة، وأخذ يساعد أبناء غيطشة والعناصر المناوئة للوذريق في إسبانيا، فأعدّ يوليان حملة نزلت بأسبانيا، واشتركت مع الثوّار في أعمالهم الحربيّة، لكن قوّات لوذريق استطاعت الحصول على النصر، ودمرت حملة يوليان واضطرّتها للعودة إلى سبتة، وما أن انتهت هذه الحروب في إسبانيا عن فوز لوذريق حتى أيقن يوليان أنه لم يعُد أمامه مفرّ من الاتجاه نحو السلطات العربية في القيروان وطلب مساعدتها ضدّ لوذريق، واتصل يوليان بطارق بن زياد طالبا مساعدة العرب له ضدّ لوذريق، ونقل طارق أخبار المفاوضات التي دارت بينه وبين يوليان إلى موسى بن نصير الذي وجد أن الوقت قد حان لفتح الأندلس، ثم تحقّق موسى من صدق ما نقله إليه طارق حين ذهب يوليان نفسه إلى القيروان ليعرض وجهة نظره على السلطات العربية هناك؛ إذ أكّد يوليان لموسى بن نصير الخير الوافر الذي سيعود على العرب من القيام بغزو الأندلس ومساعدتهم له ضدّ لوذريق، ووجد موسى بن نصير أن كلّ الظروف قد أصبحت سانحة للانتقال إلى ميدان جديد حافل بالمجد والفخار، وأعلن موافقته على مساعدته ضدّ لوذريق، واستطاع بذلك أن يستفيد من الموقف السياسي الذي ساد حكام الأندلس، وأن يسخره لخدمة الجيوش الإسلامية المجاهدة.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٩٠، المقري، نفح الطيب، ٢٣٦.

وكتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح تلك البلاد، ويشرح له اضطراب أحوالها وأنّ الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضدّ لوذريق، غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس، ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها، وعهد موسى بن نصير إلى يوليان نفسه القيام بإغارة على جنوب إسبانيا ليتحقّق بذلك من أمرين:

أولهما: أن يوليان جادّ في دعواه ضدّ لوذريق، وكراهيته له ولحكومته في إسبانيا، وثانيهما: أن يعرف مِن المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوّة القوط وما لديهم من استعداد حربي، وقام يوليان فعلا بإغارة سريعة على جنوب إسبانيا، ورجع منها محمّلا بالكثير من الغنائم والسبي.

فتح جزيرة طريف:

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال إسبانيا؛ فأعدّ حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة، وهو أبو زرعة طريف بن مالك؛ فبعث هذا القائد إلى الأندلس في أربعمائة من خيرة الفدائيين، وذلك على سفن قدّمها لهم يوليان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم وعرفت بجزيرة طريف، وبادرت قوّة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة إلى مساعدة المسلمين وحراسة المضيق، وذلك في شهر رمضان عام ٩٢هـ يوليو ٧١١م، وشنّ طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدّة حملات استطلاعية على سواحل إسبانيا الجنوبية، حيث درس تحصيناتها وعرف

الكثير من أحوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامها من القوط، وأخيرا عاد طريف إلى بلاد المغرب [١].

فقدّم تقريرا مفصّلا عن إغاراته إلى موسى بن نصير، وشرح له في إسهاب أحوال إسبانيا، وقد أكّدت غارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها إليه يوليان عن انهيار الأحوال في إسبانيا وافتقارها إلى أسباب الدفاع؛ بسبب انشغال القواد بملاذهم وانصرافهم إلى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم؛ فلم يلق طريف نوعا من أنواع المقاومة، كما لم يقابل قوّة من قوات القوط أثناء استطلاعه لأحوال جنوب إسبانيا، هذا إلى أن مبادرة أفراد بيت غيطشة إلى مساعدته وحراستهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلا واضحا على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط، وأن لوذريق لا يحكم إلا بالعنف والقسوة، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلا عندما يبدأ الفتح الإسلامي للبلاد.

هذا إلى أن يوليان برهن مرة أخرى بما قدّمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلا للوذريق، وأن المؤامرة التي دبّرها مع أبناء غيطشة ضدّ هذا الحاكم المستبدّ مؤامرة لها خطرها، وأن خيوطها صحيحة وسليمة.

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية، وبدأ الإعداد الفعلي للفتح المنظّم لإسبانيا، وأثبت موسى بن نصير مقدرة حربية فائقة في هذا السبيل؛ إذ دارت

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢١٦.

الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرّب أمرها إلى القوط، ودون أن يتنبّه يوليان نفسه إلى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها؛ فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهم يوليان بأن استعداداته الواسعة النطاق التي أعقبت حملة طريف ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضدّ لوذريق، وأخفى عنه تماما أنها ستكون الحلقة الأولى في سلسلة الفتح المنظّم لإسبانيا، وأعدّ موسى بن نصير حملة مكوّنة من خمسة آلاف جندي حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه، وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية الكبرى في شتىّ الجهات، وهو القيام أوّلا بإرسال حملة صغيرة العدد يتبعها إمدادات لا تنتهي - سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد - حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية، وانتدب موسى لقيادة هذه الحملة الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك وأشدّهم ثقة به وهو: طارق بن زياد.

فكرة فتح الأندلس:

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الايبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً. بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ إسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي مَيورْقة ومَنورقة، واليابسة، يذكر الذهبي: أنه في سنة ٨٩هـ جهز موسى بن نصير

ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي مَيورْقة ومَنورقة[1]، أما الاتصال بيوُليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الأسبان فإنها جاءت مواتية على ما يبدو وفي الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح.

على كل حال فإن اتصالات الجانب الأسباني بموسى ومساعداتهم - أثناء عمليات الفتح - ربما كانت عاملاً مساعداً سهّل سير الفتح أو عجّل به. لكن المبادأة ومردّ العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على الله في تحقيق ما يصبوا إليه من هداية الناس وقد استشار موسى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) قبل اتصالاته بليُليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة - باِئ الأمر - بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تمّ الاتفاق على أن يَسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية[2].

جاء اختيار موسى بن نصير لطارق بن زياد لقيادة هذه الحملة خطوة موفّقة، وأكّد بُعد نظر موسى وسعة خبرته الحربية؛ فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة؛ لأنهم يرونها امتدادا لبلادهم لا فارق بين بيئتها وبيئتهم، يضاف إلى ذلك أن طارقا هو الذي تولّى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس، وتولّى

(١) العبر في خبر من غبر، ٣٠٤/١.
(٢) د. عبدالرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، صـ٤٥.

مفاوضات يوليان، وصار خبيرا بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية، وعمل موسى بن نصير على أن يشدّ أزر طارق الذي عهد إليه بالقيادة العليا للحملة؛ إذ ضم إليه هيئة من كبار رجال الحرب من العرب والبربر ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في إدارة المعارك، ومن أولئك القادة العرب: عبد الملك بن أبي عامر المغافري، وعلقمة اللخمي، وأحد موالي الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومي، وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدّها موسى بن نصير، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقرّ القيادة الإسلامية في القيروان، وكلّف موسى ابن نصير بعد ذلك يوليان بأن يقدّم للقوات الإسلامية السفن اللازمة لنقلها إلى إسبانيا، كما يتولى حراستها ويقوم بمهمة الدليل لها، وكان السبب في إصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على إخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس؛ فالأسطول الإسلامي كان قد تمّ إعداده على عهد موسى ابن نصير وصارت له قاعدة هامة في تونس، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط، ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محطّ أنظار الجميع ولا يمكن إخفاء أمرها، ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة القوط بالأندلس لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتّسع لنقل أفراد الحملة مرّة واحدة، ولذا تمت عملية عبور بحر

الزقاق على دفعات، وأخذت كل جماعة يتمّ نقلها تختفي في جهات خصّصت لها على الشاطئ الأسباني، حتى انتهى الجميع من العبور وذلك عام ٩٢هـ (٧١١م) [١].

وبادر طارق بن زياد بتحصين القاعدة الأولى التي استولى عليها في جنوب إسبانيا قبل التوغّل في داخل البلاد، ثم استولى على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق، وصار بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسبتة قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب.

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في إسبانيا دون مقاومة تذكر، وكان السبب في ذلك هو أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق وفق أدقّ المعلومات التي وصلته، وكانت المخابرات الإسلامية تتبع حركات لوذريق وتتحيّن الوقت المناسب لبدء الحملة، وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لوذريق إلى أقصى شمال إسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية، وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة، مما جعل لوذريق يأخذ معظم جيشه معه، وأصبح جنوب إسبانيا خاليا تماما من أسباب الدفاع عنها، ولذلك لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد إلا بعد أن استقرّت دعائمهم ومكّنوا لأنفسهم على بحر الزقاق، فعبأت قوات سريعة وأرسلتها على عجل للهجوم على المسلمين تحت قيادة

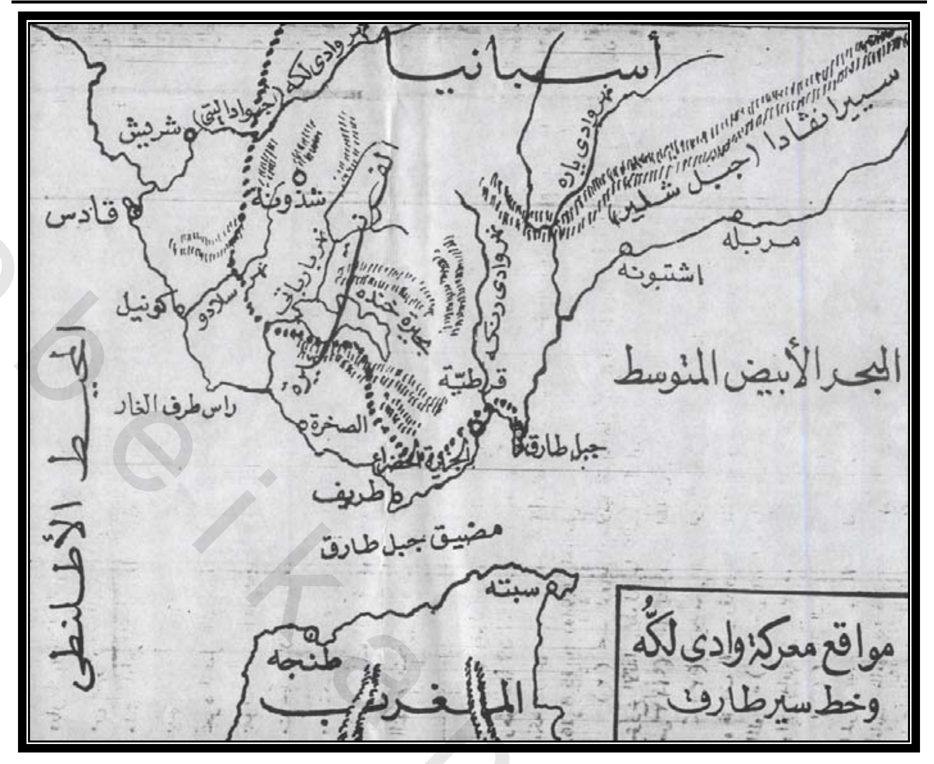
(١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٨٨ ـ ٩٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(بنج) المعروف باسم (بنشو) في المراجع الأسبانية، ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة لم ينج منهم إلا واحد استطاع الهرب والذهاب إلى معسكر لوذريق في أقصى الشمال، ونقل إليه أنباء تلك الكارثة وهجوم المسلمين على البلاد، وكان لوذريق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية، ولذا صمّم العودة سريعا إلى الجنوب والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغّلوا في داخل البلاد، وكان لوذريق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب؛ إذ قدّر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق، وأدرك أنهم جاءوا للفتح وليس للإغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغانم كما راجت الإشاعات بذلك، ومن ثم عمد إلى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين؛ فاتصل بأبناء غيطشة وصالحهم ليكونوا جميعا يدا واحدة، ولكن أعمال لوذريق في تلك السبيل جاءت متأخرة؛ لأن بيت غيطشة ظلّ على ولائه سرّا للخطة التي وضعها يوليان، ولم ينس ما حلّ به من أذى واضطهاد وتشريد على يد لوذريق، وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء هذا البيت في اعتقادهم أن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغانم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوذريق، وزحف لوذريق بجيشه سريعا واحتلّ قرطبة؛ ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها؛ لأنها المفتاح الذي يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية، ويمكن لصاحبها من الاستقرار في البلاد (١).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٩.

وكان طارق بن زياد يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة؛ فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره في جنوب إسبانيا، وسلك الطريق المارّ بجزيرة طريف (الجزيرة الخضراء) ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق التي يخترقها نهر صغير يسمى البرباط، وفي ذلك المكان مدينة صغيرة سمّاها المسلمون (بكة) ونسبوا إليها النهر الذي صار يعرف باسم وادي بكة، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية إلى وادي لكة، وعند وادي بكة عرف طارق بن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق علم بنبأ الحملة الإسلامية وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند بلدة شذونة في سهل البرباط، وأنه صار بذلك على أهبة القتال.

وذكرت بعض المراجع أن جيش القوط بقيادة لوذريق بلغ عدده مائة ألف مقاتل وضمّ عددا عظيما من الفرسان، ويرجح أن هذا العدد مبالغ فيه، وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من جند المسلمين لا يكفي لقتال قوات لوذريق الهائلة؛ ولذا أرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب إليه إرسال الإمدادات بسرعة، فأمدّه موسى بن نصير بحملة عددها خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك الذي قاد أول حركة استطلاعية في أرض إسبانيا، ونقل هؤلاء الجنود مرّة واحدة على سفن الأسطول العربي إلى إسبانيا.



ووصلت الإمدادات الإسلامية إلى طارق في اللحظة الحاسمة التي كان القوط على وشك شنّ الهجوم على المسلمين، وأعدّ طارق بن زياد قواته للمعركة، ثم وقف بين جنده خطيبا يحثّهم على الاستبسال في القتال، شأنه في ذلك شأن قادة الفتوح العربية الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بإلقاء خطاب حماسي بينهم قبل نشوب المعركة، وتعتبر خطبة طارق من روائع الأدب العربي، ومما جاء في هذه الخطبة: " أيها الناس! أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصبر والصدق، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن

امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوّضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا استمتعتم بالأرفة الألذّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي؛ فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان، المصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.

أيها الناس: ما فعلت من شيء فافعلوا مثله؛ إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه؛ فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة الراحة من

المهانة والزلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة فإنكم إن تفعلوا - والله معكم ومفيدكم - تبوؤا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهاأنذا حامل حتى أغشاه؛ فاحملوا بحملتي " (١).

وفي الوقت الذي أثرت فيه خطبة طارق تأثيرا كبيرا في نفوس جنوده، ورفعت من روحهم المعنوية كانت العناصر الحانقة على لوذريق تحدث أعمالها وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين إلى الانضمام إلى جيش طارق، ووقف الفريقان على ضفتي النهر أخيرا استعدادا للقتال، وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة في النفوس، على حين كان منظر القوط يدعو إلى السخرية والازدراء؛ إذ جلس لوذريق في عربة مطهمة يجرها جوادان وعليه أثواب الحرير البراقة، وهو يحاول عبثا بثّ روح الحماسة في جنده، وكان في جيشه اثنان من إخوة غيطشة، وهما: أبه وششبرت اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط، وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م) بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي البرباط بالقرب من بلدة شذونة، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل أحدهما على نصر يذكر، غير أن أتباع يوليان نشطوا في أثناء القتال وبثّوا رجالاتهم وسط جند لوذريق ليصرفوهم عنه ويؤكدوا لهم أن المسلمين لم يأتوا إلى الأندلس للفتح والاستقرار

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٥.

ولكن للقضاء على هذا الطاغية، وأنه إذا تمّ القضاء على حكم لوذريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها، ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط، خاصة تلك التي كان يتولى قيادتها أحد إخوة غيطشة ملك القوط السابق الذي قضى عليه لوذريق.

وفي اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف جيش لوذريق؛ فقد تخلى عنه جماعات الخيالة التي كانت العامود الفقري للعمليات الحربية، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة، هذا إلى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله، ووجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حلّ بهم من ظلم واضطهاد، ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وفرّ لوذريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان، وحسب البعض أن لوذريق غرق في النهر الذي دارت المعركة بقربه؛ لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفّه دون أن يعثروا له على أثر، غير أن لوذريق أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به، وفرّ إلى داخل البلاد دون أن يكشف أحد أمره، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضمّ من رجاله إلى المسلمين، وبعث طارق بأنباء انتصاراته إلى موسى بن نصير الذي أبلغها بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأت راية الإسلام تعلو خفاقة فوق غرب أوروبا للمرة الأولى في

التاريخ[١].

الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة، أيها الناس، أين المفر البحر ورائكم، والعدو أمامك وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم، وتعوَّضت القلوب من رُعْبها... وجاء في الخطبة: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدّر والمرجان والحُلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته.. الخ الخطبة[٢]، وبالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة:

- لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، ص ٩٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠/٢.

(٢) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٥، وفيات الأعيان (٣٢١/٥، ٣٢٢).

القرن الأول الهجري، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة.فقد تضمنت الخطبة معان سامية وتعبيرات أدبية تجعلنا نميل إلى عدم نسبتها إليه فالخطبة في اعتقادنا ليست من إنشائه وإنما نسبها إليه المؤرخون المحدثون، فقد كان طارق بن زياد كما يرجح بربريا، ولا يعقل أن يكون صاحب هذه القطعة الأدبية الفريدة، ولو أنهم نسبوها إلى موسي بن نصير لكان الأمر أقرب إلى مجال التصديق، وإن كان هذا أيضا لا يمكن الإغضاء عنه، إذ أن أسلوب الخطبة، من الأساليب الشائعة منذ القرن العاشر الميلادي، وقد يكون طارق بن زياد حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، كما يقول ابن بشكوال [١] ولكنه لا يصل بأي حال من الأحوال إلى غرتجال خطبة أدبية رائعة، أسلوبها من النوع المتأخر في الزمن إلى عصره، ولنفترض جدلا أنها من إنشائه، فكيف يخطب بالعربية لجيش كله من البربر، وهم كما نعرف حديثوا عهد بالإسلام وباللغة العربية، بل إن اللغة العربية كانت أبطأ بكثير من الإسلام [٢].

- إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم وروح الإسلام العالية، التي توفرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك، فهي لا تشيد بدوافع الفتح وأهدافه - وهي معروفة مألوفة - التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضات الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله،{ وَقَـٰتِلُوهُمْ

(١) نفح الطيب، ١ / ٢١٥.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٧٨.

حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾} [الأنفال: ٣٩].

- يلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ويلاحظ فيها التناقض في المعاني، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تاريخية، كاستعمال (اليونان) التي ربما جاء ذكرها للسجع فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الروم[١]، وكذلك العلوج والعجم أو المشركين والكفار[٢]، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال، غير أن ابن خلكان - وهو مشرقي - أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة ثم. (وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين..) فالذي انتخبهم موسى ابن نصير وليس الوليد.

ج - كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلامية أخرى تناسب المقام كالمعهود. وغير ذلك من الملاحظات.

... وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده يحُثهم على الجهاد، ويروي المَقَّري أبياتاً قالها طارقاً بهذه المناسبة:

ركبنا سَفينا بالمجاز مُقَيَّرا ::: عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنَّة ::: إذا ما اشتهينا الشيء منها تيسَّرا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا ::: إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدرا[٣]

(١) المقري، نفح الطيب (٢٦٤/١)، د. عبدالرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي صـ٦٠.
(٢)المقري، نفح الطيب (٢٥٩/١، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٠).
(٣) المقري، نفح الطيب، (٢٣١/١)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٢٣/٥)، الصلابي،

ووجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة، فهي منسجمة المعاني الإسلامية ومستمدة من قوله تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١} [التوبة: ١١١].

وأما موضوع حرق طارق للسفن التي عبر بها المضيق، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة، فيستميت في الدفاع؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك؟

لكن لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أو يُلْيان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة وإنهم في ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعاني، فإذا كانت السفن ليُليان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكريًّا سليمًّا أو مناسبًّا، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد، كما أن طارقاً كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الإفريقي إن الدوافع الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله أقوى في الاندفاع من أي سبب آخر، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية - لاسيما

عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٥١).

الأولى - لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة[١].

الدروس المستخلصة من معركة وادي لكة:

- أسلوب (الحذر واليقظة) تجاه الحلفاء: لم يكتف موسى بن نصير بقول يليان ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس، بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقاً بما قال ووفياً لما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظاً ونبهاً.

- أسلوب الاستطلاع قبل الإنزال: أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها والعدو الذي سوف يقاتله والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك وما أن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول حتى اطمأن إلى سلامة قراره فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح[٢]

- الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة: رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار فقال لموسى: خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال[٣].

---

(١) د. عبدالرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، صـ٦٢. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ١٤٥/٣.

(٢) د. ياسين سويد، الفن العسكري الإسلامي صـ ٣٤٩، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ١٤٦/٣.

(٣) المقري، نفح الطيب، ٢٥٣/١.

ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلاً: وإن كان، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه[١]. وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها وتأمين الفوز للمسلمين بدل أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهّل عملية الفتح إلى حد كبير وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية (المباغتة) لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً.

خ - أسلوب المباغتة: إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى ساحل الأندلس منفذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين في تلك البلاد، حتى فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين ومقتل أحد أهم قادتهم (بنج) ابن أخت مليكهم لوذريق، فانتزع المسلمون، بهذه المباغتة وهذا الانتصار، المبادرة من يد أعدائهم وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدراً محتوماً[٢].

- تنفيذ أسلوب (رأس الجسر): نفذ طارق، فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي، أسلوب (رأس الجسر) وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٥/٢.
(٢) د. ياسين سويد، الفن العسكري الإسلامي صـ٣٥٠. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ١٤٧/٣.

وحماها وانطلق منها في فتوحاته، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه.

ش - اختيار ميدان القتال: لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال وفرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جبهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار.

ص - المبادرة بالقتال: كان طارق في هذه المعركة هو البادئ بالقتال بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام ثم شن عليه بعد ذلك هجوماً عاماً انتهى بهزيمته.

ر - صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود: كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غيطشة فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم واحترموا تعهداتهم ليليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن أعتقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة٢٢٦ هـ) وسليمان(توفي سنة ٣٧٩ هـ) وأحمد(توفي سنة ٣٨٨ هـ) من سلالة يليان، ومثل أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غيطشة آخر ملوك القوط.

- استثمار النصر: طبق طارق بالبداهة، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة وهو استثمار النصر، إذ أنه ما أن هزم لوذريق في وادي لكّة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ أنه يعرف ولا شك، أنه

باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقاً مع ذلك، لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الإستراتيجية فيها فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً، على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالاً بشرق، نحو غرناطة وكانت تشكل موقعاً إستراتيجياً هاماً في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك، شديداً طريداً في أنحاء الأندلس إلى أن سقط[١].

* * *

(١) الفن العسكري الإسلامي صـ٣٥٢، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٤٨.

معركة بلاط الشهداء

[رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م]

محاولات فتح أوروبا قبل بلاط الشهداء

كانت الخلافة الأموية منذ عهد الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان تتطلع إلى غزو القارة الأوروبية لنشر العقيدة الإسلامية ودعوة أهلها إلى القرآن الكريم، لا سيما أن فكرة الغزو الإسلامي كانت فكرة مخططي الإستراتيجية الإسلامية لرفع الراية الإسلامية في القارة الأوروبية وذلك منذ عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، ولما كانت جدران مدينة القسطنطينية قد حالت دون اختراق المسلمين للقارة الأوروبية من الناحية الشرقية، فإنه لا يوجد أدنى شك في أن التوجه إلى الشمال تطلعا إلى أوروبا قد كانت فكرته موضوعا مطروحا للدراسة والمناقشة في بلاط الخلفاء الأمويين، الذين أخذوا على عاتقهم التوسع في بلاد المغرب وإتمام فتحه، لا سيما وأن الوليد بن عبد الملك بن مروان، أرسل قائده موسي بن نصير لإتمام فتح المغرب، وكانت الرؤية الإسلامية في بلاط الخليفة الأموي تضع إسبانيا بين الأقطار التي تضمها الإستراتيجية الإسلامية للتوسع، والتي لابد وأن أنها ظهرت إلى حيز التنفيذ عندما وصلت الخلافة الأموية في دمشق أنباء سقوط الأندلس في أيدي القوات الإسلامية، وهي الخطوة الأولي باتجاه بقية أجزاء أوروبا الغربية.

والحقيقة أن فكرة فتح أوروبا الغربية من الجانب الإفريقي لم تكن هي الفكرة الرئيسية لقادة الفتح، ولكن كان المسيطر على قادة الفتح هو نشر الإسلام في كل مكان تصل إليه حوافر خيولهم، ولما وصلت القوات الإسلامية بقيادة عقبة بن نافع إلى المحيط الأطلسي وظنوا أنه لا يوجد خلفه بشر يمكن أن تسري بينهم دعوة الإسلام، فقد كان من الطبيعي عندها أن يكون إمتداد الإسلام نحو الشمال حيث الغرب الأوربي، لا سيما وأن التوغل بالجيوش الإسلامية في مجاهل إفريقيا ومناطق الصحراء الكبري لم يكن عاملا أساسيا في الفكرة الإسلامية آنذاك، وعليه فكان التطور الطبيعي للمد الإسلامي أن يتجه نحو الغرب الأوربي، والذي أجج هذه الفكرة في عقول قادة الفتح هو أعداد البربر الكبيرة التي انخرطت في الجيوش الإسلامية والتي كان لها علاقات وطيدة ومعرفة أكيدة ببلاد الأندلس وإعداد الأندلسيين التي كانت تقيم في شمالي بلاد المغرب ودخلت في معارك وصراعات مع المسلمين منذ مجيئهم إلى بلاد المغرب.

ولأن المغامرة بعبور البحر باتجاه الأندلس كانت محفوفة بكثير من المخاطر، فقد كان على موسي بن نصير أن يدرس الأمر عن قرب، بالرغم من تشجيع الخلافة بل وتحفيزها له للقيام بهذا الأمر، ولما نجح طارق بن زياد في حملاته الأولي انطلق المسلمون بكل قواهم باتجاه الأندلس حيث كانت الثمار يانعة والأرض خصبة، ووجد المسلمون الفرصة سانحة في إيجاد موطأ قدم لهم في غرب أوروبا.

وفي أقل من عام واحد كانت السيادة الإسلامية قد توطدت وثبتت

أقدامها وتعمقت جذورها في كل الأراضي الإسبانية، فقد استمر المسلمون نهائيا، ولم يعد هناك أدني شك في في توطيد النفوذ الإسلامي في أقل من عامين (٥ رجب ٩٢ هـ / أواخر عام ٩٤ هـ).وبعد أن تم العمل العسكري واستقرت السيادة الإسلامية على الأندلس بدأ موسي ابن نصير يمارس عمله كأول ولاة الأندلس في طليطلة وهو أول حاكم مسلم يحكم قطرًا أوربيا، وكان تأكيد ذلك عندما أمر موسي بن نصير بضرب عملة إسلامية في دار السكة في طليطلة، وأرسلت الرسل (مغيث الرومي - على بن رباح اللخمي) إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان بدمشق يخبراه بما تم إنجازه من فتح عظيم ولكي تذاع أخبار هذه الانتصارات في أرجاء العالم الإسلامي [١].

واستطاعت الإدارة الإسلامية التي شيّدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوروبا في العصور الوسطي، ومن ثم أخذت إسبانيا تخطو سريعا في مضمار الازدهار العلمي وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل إلى أوروبا ثمار الحضارة الإسلامية ومعارفهم، وهيّأ لسكان غرب أوروبا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطي إلى نور الإسلام وضوء الحضارة الإسلامية الساطع.

وبعد أن فرغ موسي بن نصير من فتح الأندلس بدأ يفكر جديا في

(١) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، معركة بلاط الشهداء، ص ١٩ - ٢٠.

أن يعبر جبال البرتات [١] إلى بلاد غالة (فرنسا حاليا) ثم يمضي أن يفتح القسطنطينيةعاصمة الدولة البيزنطية بطريق أوروبا بعد أن استعصي فتحها على المسلمين من الجانب الشرقي، ثم يستمر موسي في فتوحه حتى يصل إلى بلاد الشام مركز الخلافة الأموية.

وقد رأي المؤرخ المقري في أن موسي بن نصير كان يأمل في أن يخترق ما تبقي عليه من بلاد الفرنجة، وأن يقتحم الأ راضي الكثيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك البلاد طريق سلكة، أهل الأندلس في سيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون في البحر، وهنا كانت فكرة موسي بن نصير صائبة لأنه كان سيسلك طريقا بريا معروفا ويخترق بلاد عدة وأن أهل إسبانيا والأوروبيين قد سلكوا هذا الطريق، فهو كان سيزحف في طريق واضحة المعالم ومعروف من قبل أهل الأندلس والأوروبيين [٢].

ومن هنا كان اختيار بلاد غالة (فرنسا) الأراضي الكبيرة، لتكون نقطة انطلاق القوات الإسلامية باتجاه بقية أوروبا، وهذا الاختيار يعطي الدليل على أن موسي بن نصير وطارق بن زياد استمرا في عمليات الفتح شمال إسبانيا حتى لو لم يذهب موسي بنفسه وراء

---

(١) البرتات - (جبال البرانس) هي الجبال الفاصلة بين فرانسا وإسبانيا. تمتد من البحر الأطلسي إلى البحر المتوسط وثلثاها في أراضي إسبانيا والثلث في الأراضي الفرنسية وتعرف باسم (جبال البيرينية) وكان العرب يسمونها جبال البرانس أو جبال البرتات. كان للعرب فيها مسالح لحراسة معابرها وقد جعلوا هذه المسالح على القمم المشرفة على تلك المعابر وهي أبراج كل برج يقابل الآخر فإذا أحسوا عدوا أوقدوا النيران من برج إلى برج فكانوا دائما على حذر وأهبة.

(٢) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، معركة بلاط الشهداء، ص ٢١.

البرتات فإنه استمر في ممارسة أعمال الفتح في مناطق الثغر الأعلي وما بعده باتجاه الشرق والشمال وأن موسي فتح بلاد (الباسك) البشكنس وأوغل في بلادهم وأنه فتح بنفسه وربما التقي مع طارق وتعاونا معا في الفتح وأن اللقاء كان حسب خطة مدروسة وترتيب سابق.

وهكذا كان التحرك الإسلامي فيما وراء البرتات ماهي إلا خطة مدروسة للتوسع في الفتوحات وضم فرنسا إلى الأراضي التي تم فتحها في إسبانيا توطئة للإنطلاق منها إلى جهات أوروبية أخري وصولا إلى دمشق العاصمة الأموية عن طريق القسطنطينية بعد أن تدين له جنوب أوروبا وأن يستمر في زحفه حتي يفتح القسطنطينية من الغرب، بعد أن عجز حصار معاوية بن أبي سفيان عن فتحها من الشرق، فكانت خطة التوسع في سهول فرنسا تحقيقا لهذا الهدف البعيد الذي يسعي إلى احتواء أوروبا تحت لواء الإسلام الذي كان هدف القيادة السياسية هذا الهدف[١].

وبعد استدعاء موسي بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق حمل الراية بعدهما عبد العزيز بن موسي بن نصير (٩٥ - ٩٧ هـ / ٧١٤ - ٧١٦ م) فقد حاول غزو فرنسا واجتياز جبال البرتات، ووصلت قواته إلى مناطق برشلونة والباسك.

واستكمل السمح بن مالك الخولاني الذي أقامه عمر بن عبد العزيز واليا على الأندلس (١٠٠هـ - ٧١٩ م)،محاولة فتح فرنسا

(١) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، معركة بلاط الشهداء، ص ٢٢.

حيث قام بحملة شاملة على فرنسا اخترقت جبال البرتات من الشرق - وهي تفصل جبال البرانس التي تمتد جنوب غرب فرنسا وتفصل بينها وبين الأندلس، وتعد حاجزا طبيعيا بين البلدين، وسيطر على عدد من القواعد هناك واستولى على سبتمانيا، وأقام حكومة إسلامية جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وفقا للرسالة الحضارية التي جاء بها المسلمون إلى الأندلس آنذاك في هذا الوقت المبكر، واتخذ من " أربونة " قاعدة للجهاد وراء ألبرت، ثم استشهد في معركته مع الفرنجة، عند تولوز، في يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ ٧٢١، وفقدت فرنسا بذلك من ثم أول فرصة للتنوير الإسلامي عرضت لها. ثم حاول عنبسة بن سحيم الكلبي والي الأندلس الذي كان قد عين عليها عام ١٠٣ هـ مرة أخرى، حيث عبر بجيوشه جبال ألبرت وتمكن من بسط سلطان المسلمين في شرق جنوب فرنسا، وفي أثناء عودته داهمته جموع الفرنجة، فأصيب عنبسة في المعركة ثم توفي عام ١٠٧ هـ - ٧٢٥ مـ.

ثم جاء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي وكان من كبار رجالات الأندلس عدلا وصلاحا وتنويرا وقدرة وكفاءة، عين واليا على الأندلس مرتين، الأولى في عام ١٠٢ هـ - ٧٢١ م، لمدة عام، والثانية من قبل والي إفريقيا مؤيدا من الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر عام ١١٢ هـ وفي أوائل عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ هـ.

ويعتبر عبد الرحمن الغافقي [١] من أعظم قواد المسلمين في

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد: أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق (من قبيلة عك، في اليمن) رحل إلى

الأندلس، وعرف بحسن القيادة والشجاعة وقوة الشكيمة، وكان قد أبلي بلاءا حسنا في معارك المسلمين منذ فتح الأندلس لا سيما معركة طولوشة التي قتل فيها السمح، فتركت هزيمة المسلمين أثرا عميقا في نفسه، ولذلك كان تواقا لمواجهة الفرنجة، راغبا في الجهاد والانتقام منهم، وجاء تقليده ولاية الأندلس في وقت إنبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبية القبلية، وكان عبد الرحمن إلى جانب صفاته السابقة معروفا بنزاهته وحياده لا يتحيز لفريق على آخر، ولا يتعصب لعنصر على آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس، واستبشر الناس لولايته، وشرع عهده برفع المظالم عن الناس، وكان يطوف المدن يتحقق من شكايات الرعية، لا يميز بين مسلم ومسيحي، وعزل كثيرا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية [١].

معركة بواتييه أو بلاط الشهداء [رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م]:

وكان عبد الرحمن يري أولا ضبط البلاد ثم السير بعد ذلك

إفريقية. ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي، في دمشق. وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس. وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس. وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك (سنة ١٠٢ هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميرا، وأقره والي إفريقية، ولكن لم تدم ولاية عبد الرحمن الغافقي طويلا، حيث بقي أقل من شهرين، ولم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي عمل يذكر، حيث قام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية عنبسة بن سحيم الكلبي. ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٦، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢١٤ - ٢١٥.

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤٠ - ١٤١.

للغزو، وقضي عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفا ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ أن العرب في ذلك الوقت كانوا مشغولين بمنازعاتهم القبلية (١).

جرت أحداث معركة بلاط الشهداء (٢) - التي استمرت حوالي عشرة أيام - في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م واستشهد الغافقي نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور (٣) وبواتييه (٤) حوالي ٣٢٣ كم جنوبي باريس، وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها، وتتلخص أحداث المعركة في الآتي:

بعد أن أتم عبد الرحمن الغافقي استعداداته عام ١١٤هـ / ٧٣٢م أمر بالمسير نحو بلاد الفرنجة، مخترقا ممر رونسفال ومتجها إلى مدينة بوردو(٥)، وفي أثناء ذلك حاول دوق أكيتانيا أودو اعتراض

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤١.

(٢) بلاط الشهداء، هو السهل الواقع بين مدينتي (تور) و(بواتية) في الشمال الغربي من فرنسا قرب نهر (اللوار) وفيه وقعت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي وبين الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) والبلاط لغة هو الطريق المبلط وبلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده المعركة.

(٣) تور tours.

مدينة تقع جنوبي غربي باريس على نهر اللوار غزاها المسلمون في القرن الثامن الميلادي.

(٤) بواتيه poitiers.

مدينة تقع جنوبي غربي باريس وقعت فيها الوقعة المشهورة، وفيها أوقف شارل مارتل الزحف العربي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.

(٥) بوردو bordeaux.

زحفهم والتصدي لهم، فالتقي الجمعان على نهر الدردون غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر الجارمون، وهزم الدوق ومن معه شر هزيمة وقتل من جيشه أعداد كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش أودو حتى عاصمته بوردو واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة أكيتانيا كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما قابلها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والغنائم من كل الحصون والأماكن التي افتتحوها، واستمروا في زحفهم حتى وصلوا مدينة بواتييه ففتحوها، واتجهوا إلى مدينة أخري قريبة منها هي مدينة تور، التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة، وتتمتع بمكانة دينية خاصة، لكونها كانت تضم رفات القديس مارتين. أما الدوق أودو الذي فر بعد هزيمته فقد استنجد بعد ذلك بخصمه شارل مارتل محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحا له مدي الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهب لنجدته، وإلي إيقاف الجيوش الإسلامية عند حدها(١).

مدينة فرنسية يطلق عليها في المصادر العربية (برديل) أو (بردال) هي قاعدة قليم (جيروند) في فرانسا تقع عند مصب نهر (الجارون lajaranne) الذي يصب في المحيط الأطلسي. احتلها العرب في الحملة التي قادها عبدالرحمن الغافقي غازيا فرانسا سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والتي انتهت بمصرعه في (بلاط الشهداء) وانسحاب الجيش العربي إلى إسبانيا.

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.

أخذ شارل مارتل يحشد كل ما استطاع من الإمكانات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية، ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضا إلى حشد القبائل الجرمانية النصف متوحشة، التي كانت تسكن فيما وراء الراين، وكل جموع المرتزقة الذين استطاع أن يأتي بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة تور وقد اصطدمت القوات المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء على ضفاف نهر اللوار، ولكن هذا الاصطدام لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، إذ أن عبد الرحمن الغافقي فضل على إثر ذلك أن يتقهقر نحو الجنوب إلى السهل الممتد بين تور وبواتييه لينظم صفوفه ويعد عدته للقاء العدو [١].

وفي ذلك الوقت كان الجيش الإسلامي قد استولي عليه التعب من جراء المسافة الطويلة التي قطعها منذ الخروج من قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وقد امتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي غنموها وحملوها معهم، والتي لا يقبلون التخلي عنها مطلقا. وكان هذا العامل الأخير له الأثر السيء على الجيش الإسلامي، وكان أحد أسباب الهزيمة في هذه المعركة.

بدأت المعركة في سهل تور أو بواتييه في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢ م، بمناوشات استمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.

المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أرخي الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم استؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على جيش الفرنجة حتى كادوا يقطفوا ثمار النصر، غير أن أودو عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين لعلاقته السابقة بهم، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فتراجع الكثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من يدي الفرنجة، فأخذ هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثا أن يعيد إلى الجيش تنظيمه، غير أن سهما أصابه من الأعداء فسقط شهيدا في أرض المعركة، ولما رأي المسلمون قائدهم صريعًا اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم السيف، وقد صمد المسلمون على مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل وأرخي سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلى موقعه، واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم أجمعوا على الرجوع إلى ديار الإسلام متجهين إلى سبتمانيا، أربونة، في ظل الليل مخلفين خيامهم وغنائمهم، وقد بات الفرنجة ليلتهم وهم ينوون القضاء على المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما أدركهم الصباح نظروا إلى معسكر المسلمين فوجدوه خاليا من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع فلول المسلمين؛ لأنهم خافوا أن يكون من وراء تراجعهم كمينا نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة

في قتال المسلمين، فآثر قائدهم شارل مارتل العودة بجيشه نحو الشمال معتزا بما أحرزه من انتصار على المسلمين، وقد سمي المسلمون هذه الموقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع عبد الرحمن الغافقي [١].

في الحقيقة أنه على الرغم من ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا إنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنا كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه، ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المجاهدون ينظرون إلى هذه الغنائم ويفتتنون بهذه الأموال الضخمة التي حصّلوها.

ونتيجة هذا فقد اشتهر بين الناس فكرة العودة إلى بلاد الأندلس لحفظ هذه الغنائم هناك حتى لا يحصل عليها الفرنسيون، لكن عبد الرحمن الغافقي رحمه الله جمع الناس وقال مخاطبا إياهم: ما جئنا من أجل هذه الغنائم، وما جئنا إلا لتعليم هؤلاء الناس هذا الدين، ولتعبيد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى، وأخذ يحفزهم على الجهاد والموت في سبيل الله، ثم انطلق بالجيش إلى بواتيه رغما عن أنف الجنود.

عندما وصل عبد الرحمن الغافقي بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة

---

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٥، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٣ - ١٤٤، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٥ - ٢٣٦، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢١٠، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٣ - ٧٤.

أمور أخرى جديدة؛ فقد تجددت العصبيات التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والبربر من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه معروف ومتفق عليه، أخذ كلّ ينظر إلى ما بيد الآخر، وكلّ يريد الأكثر، يقول العرب: أنهم أحق لأفضليتهم، ويقول البربر: نحن الذين فتحنا البلاد، ونسي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرقوا أبدًا بين عرب وبربر، بل وبينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك.

وإضافة إلى العصبية وحب الغنائم والحرص عليها فقد اجتمع إلى جوارهما الزهو والاغترار بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفا من المجاهدين عدد لم يسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يغلبوا بسبب كثرتهم هذه، ومن بعيد تلوح في الأفق حُنينًا جديدة:{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] فالمسلمون لم ينتصروا أبدًا بعدتهم ولا عتادهم، وإنما كانوا ينتصرون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له سبحانه وتعالى، وللأسف الشديد فرغم وجود هذا القائد الرباني التقي الورع إلا أن عوامل الهزيمة داخل الجيش الإسلامي كانت كثيرة وأقوى منه.

ولم تذكر الروايات الإسلامية حصرا دقيقا لشهداء المسلمين في بلاط الشهداء، إلا أن بعض الروايات الأوروبية بالغت كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جدًا؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعد حاجز

الخمسين ألفا.

وفي رواياتهم يقول: الأوروبيون متخوفون أنه لو كان انتصر المسلمون في بلاط الشهداء على الفرنسيين لفتحت أوروبا جميعا، ولدُرِّس القرآن في جامعات أوكسفورد وغيرها من الجامعات الأوروبية، ووالله إنها لتعاسة لهم وخسران أن لم ينتصر المسلمون، فلو انتصروا لكان قد انتشر الخير في هذه البلاد، لكنهم ظلوا في ضلالتهم وظلوا في غيهم يعمهون ويعبدون غير الله سبحانه وتعالى ويشركون به.

بعد هذه المعركة انسحب المسلمون إلى الداخل، ومع أنهم هُزموا وانسحبوا إلا أنها لم تكن هزيمة ساحقة كما صورها الأوروبيون، بدليل أن جيش النصارى لم يتبع جيش المسلمين حيث انسحبوا، وكان من عادة الجيوش أنها تتتبع الجيش الفار، بل اكتفى النصارى بما أخذوه من غنائم وما قتلوه من قتلى من المسلمين.

ويؤكد جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: أن معركة بلاط الشهداء لم تضع حدا لتقدم العرب كما يزعم بعض المؤرخين، بل إن المسلمين سرعان ما أفاقوا من هول الهزيمة وأخذوا يستردون مراكزهم السابقة لا سيما وأن أنباء المعركة عندما تردد صداها في بلاد المغرب حيث العاصمة القيروان وعندما بلغ (عبيد بن عبد الرحمن السلمي) الوالي الأموي على المغرب فقد تم تعيين حاكم للأندلس فورا هو عبد الملك بن قطن الفهري، فأسرع هذا إلى أربونة وفي الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين في جبال البرت في جنوب فرنسا وتثبيت سلطان المسلمين في سبتمانية وفي جبال البرت

وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء الذين خلفوا الدوق أودو في حكم نواحي أقطانية، وتمكن في وقت قصير أن يتلافي الكثير من الآثار السيئة التي تخلفت عن هزيمة البلاط، وقد سلم حاكم مرسيليا مقاطعة البروفانس إلى المسلمين.

وهكذا أصبح اتخاذ القرارات بمبادرات توسعية جديدة في أوروبا أمر يحيط به الكثير من الشكوك ولكن تمسك المسلمين بممتلكاتهم فيما وراء السفوح الشمالية لجبال البرنية أصبح أمرا واقعا لابد من الحفاظ عليه انتظارا إلى رحلة أخري عندما تسمح الظروف.

ويذكر الكثير من المؤرخين الغربيين أن هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء قد أنقذت أوروبا من المد الإسلامي، والحقيقة أن الأوروبيين أنفسهم أدركوا فداحة خطأهم عندما وقفوا للإسلام بالمرصاد وحالوا دون انتشاره بينهم عندما تعرفت أوروبا إلى النهضة الإسلامية في الأندلس وفي المشرق في القرن الرابع والخامس الهجري وتحسروا على ما فاتهم من حضارة كانت من الممكن أن تكون بين أيديهم.

إن الذي ينظر إلى هذه الأقوال والكتابات الأوروبية عن موقعة بلاط الشهداء ورواياتها يدرك مدي التحامل والكراهية والبعد عن الحقائق وإهمالها أو تصورات خاطئة تعلل خسارة المسلمين في بلاط الشهداء لأسباب لم يكن لها إلا محاولة الدس والوصول إلى التفرقة مثل القول بحدوث خلافات العرب والبربر، لكن الجميع قاتلوا بشجاعة فائقة وتحمس للعقيدة والدين؛ لأن الإسلام لم يكن يفرق بين العربي والبربري فالجميع سواسية، ولقد سبق ذلك في المغرب

والأندلس ولم تكن هناك حساسية في المعاملة وإن كان غالبية المشتركين في المعركة كانوا من البربر.

وهناك الكثير من الروايات الأوروبية أن الغنائم كانت سبب الهزيمة لأنه بسببها جرت حركة التفاف خلف المعسكر الإسلامي فتراجع بعض الجيش لحمايتها ومنع الفرنجة من الإستيلاء عليها كما كان السبب في اختلال الجيش وفقده لتوازنه وتماسكه واستشهاد الغافقي وهزيمة الجيش.

وقصة الغنائم أسطورة لا أصل لها وهي تتعارض مع الهدف الإسلامي في الجهاد ونشر الإسلام وإعلاء كلمة الدين، وكان ترك الحامية القليلة العدد لحماية ظهر الانسحاب والخيام ماهو إلا تمويه وتضليل للعدو لم يدركها الفرنجة إلا صبيحة اليوم التالي وهم يستعدون للهجوم.

كما أن الانسحاب كان وفق خطة مدروسة خططت لها هيئة مستشاري القوات وأركان القيادة بعد استشهاد الغافقي لكن قرار الانسحاب كان قرار القيادة التي تحملت المسؤولية بعد استشهاد الغافقي لأن انسحاب هذه الأعداد الكبيرة ووصولها أرجونة يعني أن قرار الانسحاب كان خطة تم إبلاغها للجميع لتنفذ في سرية تامة وفي جنح الظلام ليلا، وأن الأسباب أسبابًا أمنية لحماية بعض القوات التي كانت لابد وأن تنسحب لحماية شمال جبال البرانس ولم يكن بوادر انكسار؛ لأن الفرنجة ومن معهم من الأوروبيين لم يستطيعوا التحرك خلف القوات المنسحبة ولو أنهم أدركوا ضعف هذه القوات لكان قرار المتابعة قد صدر من شارل مارتل للقضاء على بقية

القوات المنسحبة لا سيما أن كتاباتهم قد بالغت مبالغة مفرطة في كثرة القتلي في الجيش الإسلامي.

والشيء الذي لا يمكن تجاهله أن العرب المسلمين لم يلبثوا أن أفاقوا من تلك الضربة التي أصابتهم من شارل مارتل أن أخذوا يستردون مراكزهم السابقة وقد أقاموا بفرنسا (مائتي عام بعد ذلك) وثبت إقامة المسلمين في فرنسا مدة تزيد عن قرنين بعد شارل مارتل، ومن هنا فإن النصر الذي حققه شارل مارتل في بلاط الشهداء لم يكن بالأهمية الكبيرة التي يزعمها المؤرخون الغربيون، فلم يستطع شارل مارتل أن يطرد المسلمين من أية مدينة كانوا قد فتحوها عسكريا بل إنه اضطر إلى التقهقر أمامهم تاركا لهم ما استولوا عليه من البلدان وكانت النتيجة المهمة الوحيدة التي أسفر عنها انتصاره هي أنه جعل المسلمين أقل جرأة في غزو شمال فرنسا، نتيجة مثل هذه وإن كانت كتاباتهم لم تكف عن تضخيم أهمية انتصار هذا القائد في بلاط الشهداء، ذلك لأن حاكم مقاطعة مرسيليا ومقاطعة بروفانس سلم للمسلمين حكم البلاد عام ٧٣٧ م واستولوا على الأولي ودخلوا مقاطعة سان ترويز عام ٨٨٩ م ودامت إقامتهم بمقاطعة بروفانس حتي نهاية القرن العاشر من الميلاد وأوغلوا في مقاطعة الغال وسويسرا عام ٩٣٥ م ويري بعض المؤرخين أنهم بلغوا مدينة ميس وبذلك لم تكن بلاط الشهداء (بواتييه) بالصورة الفاجعة التي صورها المؤرخون الأوروبيين الذين أحاطوها بهالة من التقديس والتكريم [١].

(١) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، معركة بلاط الشهداء، ص ٨٦.

أمر آخر يجب التنبيه عليه وهو نجاح الغرب في إثارة الفتنة والتفرقة قديما وحديثا بين عناصر المسلمين بين السنة والشيعة، وبين العرب والأكراد، بين العرب والأفارقة، وبين العرب وبين البربر، ووعت الكتب الفرنسية هذا الأمر جيدا، وظل في ذاكرتها على مدار التاريخ حتى مرت الأيام ومرت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين، وحتى سنة ألف وتسعمائة وستين ميلادية، فحين قامت الحركات الاستقلاليّة منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين وما بعدها، وحين فكرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة لم تجد أمامها إلا إشاعة الفتنة بين العرب والبربر وضربهم ببعضهم البعض، فكانت تشيع داخل البربر أنهم قريبون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)، أي أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء؛ وذلك للتشابه الكبير بين البربر والأوروبيين في الشكل الخارجي الأمر الذي لا يعترف به الإسلام ولا يقره على الإطلاق فالمعيار الوحيد في التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتف فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق البربر، ومنعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق أصلا؛ وذلك حتى يتم فصل البربر عن العرب تماما في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء إلا إنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل ديانة البربر الإسلامية إلى النصرانية، فظل البربر على إسلامهم وإن كانت لغتهم قد تغيّرت، في بادئ الأمر كان البربر الذين يعيشون في منطقة الجزائر تسمى قبائل الأمازيغ، وكانوا يمثلون خمسة

عشر بالمائة من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية إلا أنهم كانوا يتمسكون بالعربية، لكن حين قامت فرنسا بهذا الأمر بدأت تُذْكي الروح البربريّة في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تعلم اللغة الأمازيغية، حتى إنها أنشأت في فرنسا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، قامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة البربرية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من البربر لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا، حتى إنه في عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف أنشأت ما يسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تجمع البربر من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتعلمهم اللغة الخاصة بهم، وكل ذلك لفصل العرب عن البربر، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في وادي برباط وما تلاها فلم تتوان، وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد عربي، كانت هي فرنسا التي رفضت المشروع الذي تقدم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي رد عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تريد بلقنة فرنسا، أي تجعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العرق وبحسب العنصر، حلال على الجزائر حرام على فرنسا.

* * *

معركة الزلاقة

الجمعة
١٢ رجب ٤٧٩ هـ/٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م

الأندلس قبيل معركة الزلاقة

كانت الأندلس قبيل معركة الزلاقة تحت حكم ملوك الطوائف وبدأت البلاد في عهدهم تترنح تحت وطأة الضربات، وأضحت نهايتها قاب قوسين أو أدني، ومع ذلك لم يهتم حكامها الجدد من ملوك الطوائف بما يجري حولهم، وظلوا منغمسين في ملذاتهم وفسادهم، يتحاربون فيما بينهم ويحالفون النصاري ضد إخوانهم في العقيدة، ويؤدون لهم الجزية، مقابل الاحتفاظ بعروشهم التي تهتز تحتهم، ويستخدمون المرتزقة النصاري، لحماية أنفسهم، بعد أن فقدوا الأمل في مواطنيهم.

لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي، بعدما رأي من أمرائه التخاذل والخيانة حتي كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه به حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغد ودفع الجزية للنصاري، وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص، في الوقت الذي اعتلي فيه عرش إسبانيا النصرانية ألفونسو السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في احتلال الجزيرة الأيبيرية، وعادت حرب الاسترداد قوية على يده [١]

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٢.

وفـي السـابع والعشـرين مـن المحـرم سـنة ٤٧٨هـ - الخـامس والعشرين من آيـار «مـايو» سـنة ١٠٨٥م استطاع ألفونسو السـادس أن يدخل طُلَيْطِلَة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت طُلَيْطِلَة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المُسْلِمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عامًا، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانيا النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذى النون في طُلَيْطِلَة لتستمرَّ في بلنسية.

وقد أحدث سقوطها دويًّا هائلاً في العالم الغربي وبات المسلمون في حال من الضياع التام، حتي وصل الحد ببعض ملوك الطوائف أن أرسل وفودًا لتهنئة ألفونسو بسيطرته على طليطلة، حتى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه لتهنئته يحمل إليه الهدايا النفيسة، فجازاه بأن أعطاه قردًا احتقارا له، بينما اعتبر ابن رزين ذلك مفخرة [1]. وشعر مسلموا الأندلس بأنهم أيتام على موائد اللئام، وبدأوا بمغادرة الأندلس والمناطق القريبة من سيطرة ألفونسو، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حثوا مطيتكم ::: فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ::: ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ::: كيف الحياة مع الحيات في سفط [2]

---

(١) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

(٢) المقري، نفح الطيب، ٦ / ٨٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

وأقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس هربا من الاضطهاد وحفاظا على دينهم، وشعر بقية مسلموا الأندلس أن الدور عليهم، وأحس ألفونسو بالزهو والافتخار وبدأ يتقدم صوب مدن الأندلس، فشن الغارات على جميع البلاد، ونجح في الاستيلاء على المدن والقري ما بين وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللجج وأعمال شنتمرية كلها [١]، ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وأنه سوف يتبع نصرا بنصر، فبدأ الضغط على الدول الكبري المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية له، ويتوعد بشر العواقب إذا رفض، وبمثل ذلك للمعتمد بن عباد. ومارس ألفونسو مع المُعْتَمِد أنواعًا من الإذلال والتجنى لتخرج المُعْتَمِد عن طوره ويلغى الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونسو والنصارى ما يبرِّر أفعاله الانتقامية والوحشية [٢].

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأَنْدَلُس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في

---

(١) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٨٧، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسْلِمِين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونسو والخضوع لشروطه، ولكن هذا الرأى لم يجد هوى في نفس المُعْتَمِد الذي خلا بابنه الرشيد وكان ولى عهده وقال له: «أنا في هذه الأَنْدَلُس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأَنْدَلُس ليس فيهم نفع، ولا يُرجَى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طُلَيْطِلَة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طُلَيْطِلَة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا، وبغضتنا العامة والخاصَّة. فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أَنْدَلُسنا مَن يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أى بنى والله لا يسمع عنى أبدًا أنى أعدت الأَنْدَلُس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المُسْلِمِين مثل ما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندى خير من خُرز الخنازير»[١].

ولما عزَم على طلب النصرة من المرابطين؛كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصُّها: "... لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على

---

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ٦٨.

الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنَّك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلُّطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كلِّ جهة نارهم، ورويت من دماء المُسْلِمِين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمُسْلِمِين أيسطو هكذا بالحق الإفكُ، ويغلب التوحيدَ الشركُ، ويظهر على الإيمان الكفرُ، ولا يكشف هذه البلية النصرُ، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامى لما استبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزة من ذل، فإنها الرزيَّة التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أعزَّك الله - بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنَّها مؤيدة للجزيرة بالخلاء، ومَن فيها من المُسْلِمِين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند حتى تخلَّصت القضية وتضاعفت البلية وتحصَّلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهى من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوى في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليها عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركبانًا ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافًا وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنَّكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابى إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصِّلها ويشرُحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضِّحها، فإنه لما توجه نحوك احتسابًا، وتكلف المشقة إليك طالبًا ثوابًا، عوَّلت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسَّلام».

ثم وجه ألفونسو اهتمامه نحو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، فقد كان أقوي ملوك الطوائف، وكان منتظرا منه أن يقوم بحماية الأندلس، ولكن المعتمد لم يفعل ودخل في صراعات داخلية مع ملوك الطوائف الآخرين، أضعفت المسلمين، ثم إنه كان يعتمد في تعامله مع نصاري إسبانيا على مهارته الدبلوماسية - كسائر ملوك الطوائف - أو دفع أذاهم بالجزية، ولما أراد ألفونسو ضرب المعتمد فإنه أراد أن يضرب القوة الرئيسية في صفوف المسلمين فإذا استطاع القضاء عليها يسهل عليه السيطرة على بقية ملوك الطوائف، ولما بدأ في تنفيذ خطته القاضية بالسيطرة على الأندلس من أيدي المسلمين، فقد راعي شروط المعاهدة المعقودة مع المعتمد، فلم يهاجمه مباشرة بل طلب منه أمورا مستحيلة التنفيذ، فسأله أن يتخلي له عن معاقل وحصون على الحدود كان الموت عنده أولي من

إعطائها [١] وإمعانا في الإذلال والتجني طلب ألفونسو من المُعْتَمِد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربى كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم، وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودى ابن شالب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقلَّ أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمُعْتَمِد وقال: «لا تعتقدونى بسيطًا لأقبل مثل هذه العملة المزيفة، لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدنًا». فأخذت المُعْتَمِد النخوة الإسلاميَّة وصلب اليهودي، وقتل البعثة[٢]

وقد أثار هذا حفيظة ألفونسو ويكون قد تحصل على ما يريده، وكان ألفونسو متجهًا لحصار قرطبة فلمَّا وصل خبر البعثة أقسم بآلهته ليغزون المُعْتَمِد في إشبيلية، وحرَّك جيوشه نحو غرب الأَنْدَلُس فدمَّر كل القرى والتخوم التي في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر يدمِّر ويخرِّب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأَنْدَلُس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: «هذا آخر بلاد الأَنْدَلُس قد وطئته " [٣]

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٦ / ٨٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٥.
(٣) الاستقصا ١/١١٠، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٧.

ومِن هناك أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: «أمَّا بعد.. فلا خفاء على ذى عينين أنَّك أمير المُسْلِمِين بل الملة الإسلاميَّة، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأَنْدَلُس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الدِّيار وأهتك الأستار، وأقتل الشبَّان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله - تعالى - فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا، وبلغنا عنك وأنَّك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدرى أكان الجبن بك أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتنى فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لى اليد العليا عليك، واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة».

ولما قرئ الكتاب على الأمير يوسف بان له غروره وعدوه والاستهانة بقوة المرابطين، فأعلمه يوسف بجوابه أن قوة المرابطين سيراها ألفونسو في ساحةالمعركة لا كما ينقلها إليه أتباعه مزورة بعيدة عن الحقيقة، ثم أمر بالجواب على ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله - تعالى - » وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ::: ولا رسل إلا الخميس العرمرم (١)

---

(١) الحلل، ص ٢٧، أعمال الأعلام، ص ٢٣٩ - ٢٤٠، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٩١، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٠٤، سعدون نصر الله، تاريخ العرب

وعاد ألفونسو إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المُعْتَمِد بن عَبَّاد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المُعْتَمِد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المُعْتَمِد هذه الإهانة فردَّ: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك»[(١)].

ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سَرَقُسْطَة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيرًا، ثم أخذ بلنسية، وأعطاها القادر بن ذى النون صاحب طُلَيْطِلَة السابق، وهاجم مملكة المرية، ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة، كان الخطر على الأَنْدَلُس شديدًا، وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتاليًا هزموا أربعمائة من المرية. وأصبح الناس بين خيارين أحلاهما مر، الخضوع للنصاري أو الهجرة جماعات؟ وكان الخيار الأخير هوالمرجح لأن البقاء في شبه الجزيرة من الجنون [(٢)].

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأَنْدَلُس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٨٠، الحلة السيراء، ص ٣٥١، الاستقصا، ١ / ١١٣، المقري، نفح الطيب، ٦ / ٩١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، الاستقصا، ١/ ١١٢، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٩.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسْلِمِين، وبالرغم من أن هذا الرأي قد وجد معارضة كبيرة من كثير من ملوك الطوائف وكثير من وزراء المعتمد بن عباد وخاصته وحتي من ابنه وولي عهده الرشيد، ولكن المعتمد بن عباد كان ذو عزيمة كبيرة وبصيرة بأحوال الأندلس.

ولما عزَم على طلب النصرة من المرابطين؛كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصُّها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلِّى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدِّين ومحيى دعوة الخليفة، الإمام أبى يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشَّاكر لأجلالها المعظِّم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها، المنقطع إلى سمُّو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وإنَّه أيَّد الله أمير المُسْلِمِين ونصر به الدِّين، فإنَّا - نحن العرب - في هذه الأَنْدَلُس قد تلفت قبائلنا، وتفرَّق جمعنا، وتغيَّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوبًا لا قبائل، وأشتاتًا لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ نصرنا، وكثر شُمَّاتُنا، وتولَّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطُلَيْطِلَة ووطئها بقدمه، وأسر المُسْلِمِين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأَنْدَلُس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا

لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد صلي الله عليه وسلم، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[١].

وإلي جانب الكتب الرسمية وردت على الأمير يوسف كتب وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحثُ الأمير على إنقاذ الأَنْدَلُس.. [٢].

أطلع الأمير يوسف حاشيته وخاصته ووزراءه على المحادثات لاستشارتهم بالأمر وكان المرابطون متشوقين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصاري، فأجمعوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أَنْدَلُسى الأصل اسمه عبد الرحمن بن أسبط أو أسباط، فنصحه المستشار بأن يطلب من المُعْتَمِد بن عَبَّاد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له: إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، واقتنع الأمير يوسف برأى وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن:

---

(١) الصلابي، دولة المرابطين ص (٧١).
(٢) أنظر الحلل، ص ٣٠.

صدقت يا عبد الرحمن، لقد نبهتنى على شيء لم يخطر ببالي، أكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد الكتاب التالى نصُّه: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلِّم.

من أمير المُسْلِمِين وناصر الدِّين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المُعْتَمِد على الله أبى القاسم مُحَمَّد بن عَبَّاد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشَّرع، وفى كتاب الله تعالى، وإنَّه لا يمكننا الجواز إلا أن تُسلِّم لنا الجزيرة الخضراء؛ تكون لنا لكى يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك، وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى» (١).

ثم جمع المُعْتَمِد القاضى والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضى بن المُعْتَمِد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهنًا بتصرف الأمير يوسف. وبعد موافقة المُعْتَمِد تجهَّز يوسف لتلبية نداء إخوانه

(١) الحلل، ص ٣٢ ـ ٣٣.

في العقيدة راغبًا في الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أمانًا لأهل الأَنْدَلُس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول مُنتَدَبٍ لنصرة هذا الدِّين، لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي" وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش، ومن الصحراء وبلاد الزاب، ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربَّانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات، وكان أول من نفَّذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود ابن عائشة، وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأَنْدَلُسيين؛ لأنَّهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثَّر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء، ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولمَّا ركب واستوى على السفينة رفع يديه نحو السماء مناجيًا: «اللهم إن كنت تعلم أن جوازنا هذا إصلاح للمُسْلِمِين فسهِّل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»(١). وسهل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ حزيران ١٠٨٦م، وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسف في

تحصين الجزيرة الخضراء، ورمَّم أسوارها وما تصدَّع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ثم ساروا نحو إشبيلية[1].

موقعة الزلاقة:

سارع المُعْتَمِد مع مئة من فرسانه وقادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدِّين، وتذاكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة دين المُسْلِمِين، وكان المُعْتَمِد مُحمَّلاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المُعْتَمِد كريمًا وجوادًا باذلاً للخير.

واستعرض المُعْتَمِد الجيش المرابطى فرأى «عسكرًا نقيًّا ومنظرًا بهيًا».

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطى على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المُعْتَمِد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة، ثم قال للمُعْتَمِد: «إنما جئت ناويًا جهاد العدو حيثما كان توجهت " [2].

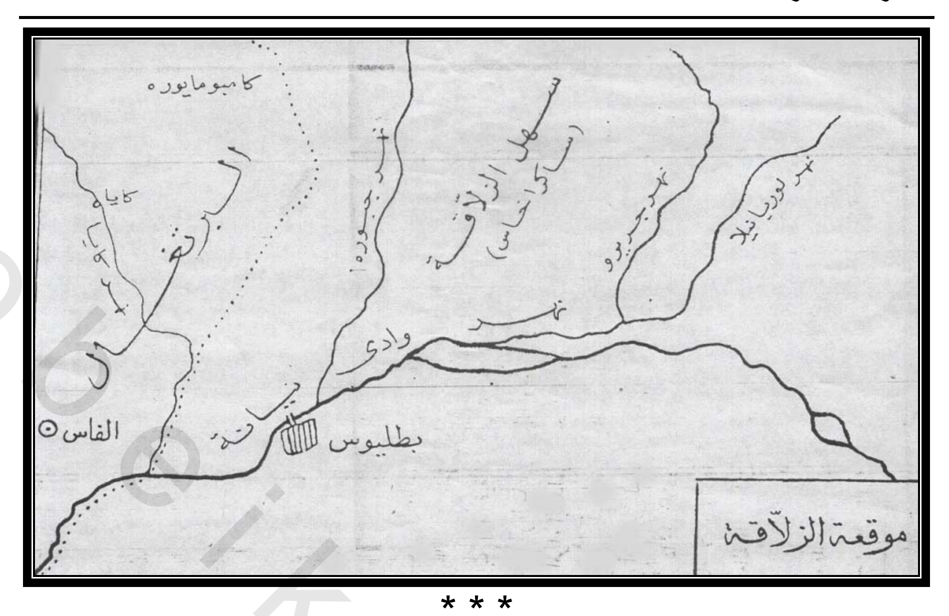
وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف

(١) الاستقصا ١ / ١١١ - ١١٤، الروض المعطار، ص ٨٧، نفح الطيب، ٦ / ٩٣، الحلة السيراء، ٣٥٢، الحلل، ص ٣٤.
(٢) الروض المعطار، ص ٨٧، نفح الطيب، ٦ / ٩٥، الحلة السيراء ص ٣٥٢، الاستقصا، ١ / ١١٤، الحلل ص ٣٥، مذكرات ألأمير عبد الله، ص ١٠٤.

إلـى ملـوك الأَنْـدَلُس يسـتنفرهم للجهـاد فكـان أول مـن لبـى الـدعوة عبـد الله بـن بلقـين الصـنهاجى صـاحب غرناطـة الـذي خـرج إليـه بأموالـه ورجالـه، وأخـوه تمـيم صـاحب مالقـة، وأرسـل ابـن صـمادح ابنـه معـز الدولـة فـي فرقـة مـن جيشـه، وسـار الأمير الربَّـانى والقائـد الميـدانى نحـو بطليـوس، فاسـتقبلهم صـاحبها المُتَوَكِّـل بـن الأفطـس علـى ثـلاث مراحـل مـن المدينـة، وقـدَّم لهـم الهـدايا والضـيافة وعلـف الـدواب وظهـر منـه جـود وكـرم، وأقـام الأميـر أيامًـا عـدة حتـى يصـل بـاقى المتطـوعين إلا أن أكثـرهم لـم يصـل لانشـغالهم بمدافعـة النصـارى، فتـابع سـيره الجهـادى حتـى حـطَّ رحالـه عنـد سـهل الزِّلاقَـة[1]، وكـان يبعـد عـن بطليـوس ثمانية أميال.

---

(١) الزلاقة sagrajas.
سهل بالأندلس يقع شمالي بطليوس جرت فيه الوقعة الشهيرة بين البربر بقيادة يوسف بن تاشفين ومن انضم إليه من ملوك الأندلس وبين ألفونسو السادس (الأذفنش) ملك (قشتالة (castilla سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م وفيها هزم جيش الأسبان وقتل أكثره.



* * *

ونظَّم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأَنْدَلُسيين جيشًا مستقلاً بذاته، وأسند قيادته إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد الذي تولى المقدمة، وأسندت الميمنة إلى المُتَوَكِّل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأَنْدَلُس على الميسرة، وباقى أهل الأَنْدَلُس في الساقة.

أمَّا الجيش المرابطى فتولى داود ابن عائشة قيادة فرسانه، وأما سير ابن أبى بكر فتولى قيادة الحشم، وبقية المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته الجيش الإسلامي، وعسكر المرابطون خلف الأَنْدَلُسيين تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه، وكان تعداد جيش المرابطين والأَنْدَلُسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي، وتضاربت الروايات في ذلك [١].

(١) روض القرطاس، ص ٩٤، الحلل الموشية ص ٤١، ابن الكردبوس، ص ٩٣، الصلابي، دولة المرابطين، ص ٨٠ ـ ٨١.

كانت أنباء عبور المرابطين إلى الأندلس قد وصلت إلى ألفونسو وهو محاصر سرقسطة ولما وصله الخبر السعيد ارتاع، ولكنه حاول أن ينتهز هذه الفرصة، وطلب من المستعين بن هود حاكم سَرْقُسْطَة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، معتقدا أن المستعين لا علم له بالعبور، ولكن الخبر السعيد قد عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها،وكأنه رحمة نزلت من السماء على المستعين، الذي رفض إعطائه درهما واحدا خشية أن يتقوي بها على قتال المسلمين [١].

واضطرَّ ألفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعًا إلى طُلَيْطِلَة، وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارى، وأرسل إلى مَن وراء جبال ألبرتات فأتته أفواج عديدة من النصارى متطاوعة من أجل الحرب المُقدَّسة، وجند ألفونسو كل مَن يستطيع حمل السلاح صغيرًا أو كبيرًا، ونظَّم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين: أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا ورودريك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع ألفونسو الذي أبقى رودريك في القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثانى وعيَّن على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند، وتولَّى هو القلب، «وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنَّه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته».

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبرياءه، وقال

(١) روض القرطاس، ص ٩٣، الاستقصا، ١ / ١١١.

قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى مُحَمَّدا وآل مُحَمَّد والأنس والجن والملائكة»[١].

«وكانت جموع الرهبان والقسيسين أمام جيش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الدِّينى في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفًا»[٢].

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد كتابًا جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنَّى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقى، ولا أكلفكم تعبًا، وأمضى إليكم وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم»[٣].

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ولابد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزِّلاقَة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون [٤].

كانت الأحوال تنذر بأن المعركة سوف تكون حاسمة بالنسبة للأندلس، فقد بلغت قوي النصرانية ذروة قوتها، تذكيها نزعة صليبية

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٥٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٥٣، الروض المعطار، ص ٨٨، الحلة السيراء، ص ٣٥٣، نفح الطيب، ٦/ ٩٦، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٩.
(٣) الروض المعطار، ص ٨٨، نفح الطيب ٦/٦.
(٤) روض القرطاس، ص ٩٤، ابن الكردبوس، ص ٩٣.

تهدف إلى طرد العرب من إسبانيا، في المقابل فإن الحماس الذي بثه المرابطون قد جدد عزائم الأندلسيين وأحيي موات الآمال فيهم.

وقبل بدء المعركة الفاصلة وجريا على سنة الإسلام في القتال، أرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتابًا يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهذا من مقتضيات الشريعة الإسلامية في قتال أهل الكتاب، ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنَّك نحوت الاجتماع بنا، وتمنيَّت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك:{وَمَا دُعَآؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ} [غافر: ٥٠] [١].

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبنى وأنا وأبى نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟»[٢] وقال لرسول الأمير يوسف: «قُل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك»[٣]، وإنَّنا سنلتقى في ساحة المعركة، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب[٤].

والحرب خدعة فقد حاول ألفونسو حامى حمى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المُسْلِمِين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنَّه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا،

(١) الحلل، ص ٣٥، الروض المعطار، ص ٩٠، الحلة السيراء، ص ٣٥٤، نفح الطيب، ٦ / ٩٧، الاستقصا، ١ / ١١٦ ابن خلكان، وفيات الأعيان (١١٦/٧).

(٢) الحلل، ص ٣٥، الصلابي، دولة المرابطين، ص ٧٨.

(٣) روض القرطاس، ص٩٤.

(٤) الأندلس في عصر المرابطين، ص (٨٢).

وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا اللعين وما أحب»[1]

ولكن المعتمد تنبه لهذه الخدعة وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنَّما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النَّهار»[2].

واستعد المُسْلِمُون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المُعْتَمِد صائبًا صحيحًا، ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المُسْلِمِين من الأَنْدَلُسيين فتصدَّى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود ابن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأَنْدَلُسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأَنْدَلُسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأَنْدَلُسيين وقومه «المُعْتَمِد بن عَبَّاد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيمًا وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد

(١) الحلل الموشية، ص ٣٦.
(٢) الحلة السيراء، ص ٣٥٤، الروض المعطار، ص ٩٠، نفح الطيب، ٦ / ٩٨ الاستقصا ١ / ١١٦، أعلام الأعلام، تحقيق العبادي، ص (٢٤٣).

المُعْتَمِد مع داود ابن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المُسْلِمُون في المعركة صبرًا عظيمًا سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المُسْلِمِين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر مُعتَقِدًا أن هذه هى قوة المُسْلِمِين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبى بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلاميَّة، فتقوَّت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم.

وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارِّين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وأنَّه خسر حوالى عشرة آلاف قتيل، ووجد ألفونسو نفسه محاصرًا من المُسْلِمِين فاضطر للقتال متقهقرًا نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقضَّ عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المُسْلِمِين قائلاً: «يا معشر المُسْلِمِين اصبروا لجهاد أعداء

الله الكافرين، ومن رُزِق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»، وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العناية الإلهية كانت تحميه[1]، وكان فقهاء المُسْلِمِين وصالحيهم يعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدِّين، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان.

اندفعوا إلى المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسَّرت شوكتهم، وانقض أسد من أسود المُسْلِمِين على ألفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش، ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين.

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذي تابع سيره مع الظلام إلى طُلَيْطِلَة، وصل إليها مغمومًا حزينًا كسيرًا جريحًا بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزِّلاقَة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رؤوس القتلى من النصارى، فعمل المُسْلِمُون منها مآذن

(١) الحلل الموشية، ص ٤٢، روض القرطاس، ص٩٥، ابن الكردبوس، ص ٩٣، نفح الطيب، ٦ / ١٠١، الأندلس في عهد المرابطين، ص ٨٥، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٠٩.

يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضى مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العبَّاس بن رميلة القرطبي. وجمع المُسْلِمُون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأَنْدَلُس، وقد عرَّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام [1].

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أمَّا بعد حمدًا لله المتكفِّل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد أفضل وأكرم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين ١٥ رجب وقال: الجمعة عيد المُسْلِمِين، والسبت عيد اليهود، وفى عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المُسْلِمِين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المُسْلِمِين، وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدَّته قبل أن يتعداها،

(١) ابن الكردبوس، ص ٩٤، الحلة السيراء، ص ٣٥٦، وفيات الأعيان، ٧ / ١١٨، نفح الطيب، ٦ / ١٠٢، الروض المعطار، ص ٩٢ - ٩٥، ملوك الطوائف، ص ٣١٤، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١١١.

وانقضت جيوش المُسْلِمِين على جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد مشتهرة ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفونسو - فلمَّا أبصر النصارى راياتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح، وأظلَّتهم سحائب الرماح، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفونسو، وحملوا على المُسْلِمِين حملة منكرة؛ فتلقَّاهم المرابطون بنيَّات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقلبت سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج.

وولَّى ألفونسو مطعونًا في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في ٥٠٠ فارس من ثمانين ألف فارس ومائتى ألف راجل قادهم الله على المصارع والحتف العاجل، وتخلَّص إلى جبل هنالك، ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذرًا، ويحيد عنها صبرًا، ولا يستطيع عنها دفعًا ولا لها نصرًا، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المُسْلِمِين يحمد الله؛ قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة منصورًا لجهاد مرفوع الأعداء، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأى العين دمارها ونهبها، وألفونسو ينظر إليها نظر المغشى عليه،

ويعض غيظًا وأسفًا على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأَنْدَلُس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذرًا من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقوّاد، أبو القاسم المُعْتَمِد بن عَبَّاد، فأتى أمير المُسْلِمِين وهو مهيض الجناح، مريض عنه وجراح، فهنأه بالفتح الجليل، وتسلَّلَ ألفونسو تحت الظلام فارًا لا يهدى ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طُلَيْطِلَة إلا مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيرًا.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ/٢٣ شهر أكتوبر ١٠٨٦م.. العجمي [١].

وأرسل المُعْتَمِد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزفُّ إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحرِّ من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهى مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: «اعلم أنه التقت جموع المُسْلِمِين بالطاغية ألفونسو اللعين ففتح الله للمُسْلِمِين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فأعلم بذلك من قبلك إخواننا المُسْلِمِين والسلام»، وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمرى وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونسو من الغدر والآخرة للصالحين [٢].

(١) نفح الطيب، ٦ / ١٠٣، الحلة السيراء، ص ٣٥٦، الروض المعطار، ص ٩٥، روض القرطاس، ص ٩٧ ـ ٩٨، الحلل الموشية، ص ٤٥ ـ ٤٧، الصلابي، دولة المرابطين، ص١١٢.

(٢) الحلل، ص ٤٤ ـ ٤٦.

وأصبح يوم الزِّلاقَة عند المغاربة والأَنْدَلُسيين مثل يوم القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فياله من فتح ما كان أعظمه، يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزِّلاقَة ثبتت قدم الدِّين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

سَرَتْ أنباء النصر المبين إلى جميع أنحاء الأندلس والمغرب، وسرى البشرُ بين الناس، وأصبح هذا اليوم مشهوداً من أيام الإسلام، لا على أرض شبه الجزيرة فحسب، وإنما على امتداد الأرض الإسلامية كلها، ونجح ذلك اليوم في أن يمدّ في عمر الإسلام والمسلمين على الأرض الإسبانية ما يقرب من أربعة قرون من الزمان.

نصر مبين.. ونتائج أقل..

يعلق يوسف أشباخ في كتابه: تاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين " على موقعة الزلاقة بقوله:إن يوسف بن تاشفين لو أراد استغلال انتصاره في موقعة الزلاقة، لربما كانت أوروبا الآن تدين بالإسلام، ولَدُرِّس القرآن في جامعات موسكو، وبرلين، ولندن، وباريس.

والحقيقة أن المؤرخين جميعاً يقفون حيارى أمام هذا الحدث التاريخي الهائل الذي وقع في سهل الزلاقة، ولم يتطور إلى أن تتقدم الجيوش الإسلامية لاسترداد طليطلة من أيدي النصاري، خاصة وأن الملك الإسباني كان قد فقد زهرة جيشه في هذه المعركة، ولا يختلف أحد في الرأي بأن الطريق كان مفتوحاً تماماً وممهداً لكي يقوم المرابطون والأندلسيون بهذه الخطوة.

إن ما حدث فعلاً هو عودة المرابطين إلى إفريقية، وعودة أمراء الأندلس إلى الصراع فيما بينهم، وكأن شيئاً لم يقع، وقد أعطى ذلك الفرصة مرة ثانية للملك ألفونسو السادس أن يستجمع قواه، ويضمد جراحه، ويعمل على الانتقام من الأندلسيين، وكان حقده شديداً على المعتمد بن عباد، فعاد إلى مهاجمة بلاده، وركز غاراته على أشبيلية، وتمكن من الاستيلاء على حصن لبيط مما اضطر ابن عباد إلى العودة مرة ثانية إلى الاستنجاد بالمرابطين.

وذهب المرابطون للمرة الثانية إلى الأندلس، لكنهم في هذه المرة لم يجدوا مساعدة من معظم أمراء الطوائف المسلمين، حيث تغلبت عليهم شهواتهم وأهواؤهم الشخصية، وخلافاتهم الضيقة، مما اضطر أمير المسلمين أن يستفتي الفقهاء في خلعهم، وضم بلاد الأندلس إلى طاعة المرابطين، والعودة مرة ثالثة إلى الجهاد ضد الإسبان.

ليس من نافلة القول بأن الانقسام ضعف والوحدة قوة، فممالك الطوائف في الأندلس شربت المرارة والمذلة في تفرقها، وأحست بالعزة والنصر في اتحادها.

ليس بالعدد والعدة فقد تكتسب المعارك، وإنما بالإيمان بالهدف والإعداد له، والتنبه للخصم، والارتفاع إلى مستوى الأحداث.

قد يكون إحراز النصر شاقاً ومضنياً، لكن الأكثر عسراً وإجهاداً هو استغلال هذا النصر، وتطويعه لصالح الإسلام والمسلمين.

وهذا هو درس التاريخ.

نتائج معركة الزلاقة:

كانت لمعركة الزِّلاقَة نتائج مهمة من أهمها:

١ - رفع الروح المعنوية لأهل الأَنْدَلُس، خصوصًا بعد أن أنقذ الله بها سقوط سَرْقُسْطَة من سقوط محتَّم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهى من الجزية وغيرها.

٢ - سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصَّة أنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأَنْدَلُس.

٣ - امتناع الرعية عن دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلُّقهم بالمرابطين.

٤ - مهَّدت الزِّلاقَة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

٥ - ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.

٦ - انصياع قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها وتنتظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزِّلاقَة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة وأعلنت ولاءها التام.

٧ - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامى في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب وسُرَّ العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد.

٨ - أصيب نصارى الإسبان بهزيمة تعيسة أثَّرت في نفوسهم، وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضى المُسْلِمِين في الأَنْدَلُس وإبعادهم.

٩ - جعلت النصارى يُرتِّبون أمورهم ويوحِّدون صفوفهم، ويتنازلون عن صراعاتهم الدَّاخلِيَّة.

وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيرت مجرى تاريخ الأَنْدَلُس وبلاد المغرب [١].

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزِّلاقَة عاد إلى إشبيلية، ودعا رؤساء الأَنْدَلُس إلى اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم؛ فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته، وترك ثلاثة آلاف جندى مرابطى للدفاع عن ثغور الأَنْدَلُس بقيادة سير بن أبى بكر [٢].

* * *

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص ٢٤٦ - ٢٤٧، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٤.

(٢) نفح الطيب، ٦ / ١٠٤، الروض المعطار، ص ٩٥، الحلة السيراء، ص ٣٥٦، وفيات الأعيان، ٧ / ١٢٢ الحلل الموشية، ص ٤٥ - ٤٧، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص ٢٤٦ - ٢٤٧، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٤.

معركة حطين

[٥٨٣ هـ ١١٨٧م]

معركة حطين

[٨٣ هـ١١٨٧م]

يـــا أيهـــا الملــــك الــــذي ::: لمعــــالم الصـــلبان نكـــــس

جـــــاءت إليـــــك ظـــــلام ::: تســـعى مـــن البيـــت المُقَـــدَّس

كـــل المســـاجد طهـــرت ::: وإنـــا علـــى شـــرفي أُدنـــس

معركة حطين:

كان صلاح الدين الأيوبي يدرك جيدا أن الوحدة الإسلامية هي باب الخلاص وبداية الانتصار على الأعداء، ولذلك قضي وقتا طويلا في توحيد الجبهة الإسلامية قبل الدخول مع الصليبيين في مواجهة حاسمة، وبعد تمكن صلاح الدين من تكوين جبهة إسلامية موحدة اتسمت باتساع رقعتها، لكن بقيت مشكلة يمكن السيطرة عليها، وهي سيطرة الصليبيين على بعض مدن الساحل الشامي، فضلاً عن حصني الكرك والشوبك، وهو ما يمنع فعليا من إمكانية الاتصال بين محوري دولته التي ضمت مصر ومعظم بلاد الشام، وجزءاً من أرض العراق يضاف إلى ذلك، أن هذه المدن والموانئ الساحلية تمتعت بمكانة إستراتيجية هامة لأن سيطرة الصليبيين عليها جعلتهم على اتصال دائم بوطنهم الأم الغرب الأوروبي، ولذلك سعي جاهدا لتدارك هذه المشكلة بالإغارة على تلك الممتلكات بهدف السيطرة

عليها - إن أمكن - أو إضعافها - على أقل تقدير -، وبالفعل تمكن صلاح الدين من إلحاق الخسائر الجسيمة بالصليبيين في الأرواح والعتاد [١].

وفي الحقيقة أن الأمور السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدني غدت تصب في مصلحة صلاح الدين الأيوبي والوحدة الإسلامية، فامتدت دولته من جبال طوروس شمالا حتي بلاد النوبة جنوبا، ومن برقة غربا إلى الفرات شرقا، وما يعني ذلك من قوة ونفوذ، وموارد عسكرية واقتصادية تمكنه من الدخول في أي حرب والاستغراق فيها، وسيطرته على المراكز القوية مثل القاهرة ودمشق وحلب، جعلته يتحكم في الطرق الرئيسية المتحكمة في دفة الحرب مع الصليبيين، وفي المقابل لم يكن له من معاصريه ملك أو أمير أو حاكم يهاب جانبه، بل إن الإمارات التي كانت تنافسه كانت تعيش أسوأ فترات تاريخها.

وبالإجمال فإن الظروف قد أصبحت مهيأة لقيام صلاح الدين بملحمة العمل الجهادي والعسكري، لاسترداد بيت المقدس من الصليبيين، وفي الوقت الذي أخذ يتأهب فيه للتحرك ضد الصليبيين كانت أوضاعهم تزداد سوءا وتعقيدا، إذ توفي الملك بلدوين الخامس في شهر جمادى الآخرة عام ٥٨٢هـ/شهر آب عام ١١٨٦م بعد شهور من توليته، وكانت تلك الوفاة من الأمور المواتية لصلاح الدين الأيوبي، حيث برزت من جديد مشاكل الصليبيين الداخلية إذ كانت وفاته إيذانا بصراع حاد بين الأمراء حول الفوز بعرش

(١) صلاح الدين والصليبيون، ص ١٥٧.

المملكة، إلى أن تم تحويل المُلْك من الطفل إلى أمه سيبيلا وأوكلوا إليها اختيار الملك الجديد؛ لأنها لا تستطيع أن تحكم كامرأة، وسلَّمت سيبيلا تاج الملك إلى زوجها جاي لوزينان وفق ما أراده المعارضون لريموند الثالث، والواقع أن هذا للإختيار لم يكن موفقا لما هو معروف عن لوزينان من ضعف الشخصية والبلادة حتى اتهمه المؤرخ وليم الصوري بأنه لم يتحل بشيء من صفات الفروسية والحكمة في معالجة الأمور، وقد ظهرت ذلك بوضوح في الأزمة التي لم تلبث أن واجهت مملكة بيت المقدس في خريف سنة ١١٨٣ م عندما شرع صلاح الدين في مهاجمة الجليل والغور [(١)].

واستغل صلاح الدين التصدعات التي حدثت في صفوف الصليبيين والخلافات المريرة التي نشبت حول عرش مملكة بيت المقدس عقب تتويج جاي لوزجنان التي تنازلت له زوجته عن الحكم وأصبح ملكاً لبيت المقدس، بعد أن خلعت التاج عن رأسها ووضعته على رأسه قائلة: زوجي أقدر وهو أحق بالملك وأجدر وفشل القومص ريموند الضجلي أمير طرابلس في الفوز بذلك المنصب، عدم رفض فرسان الداوية استقلاله بالحكم وطالبوه بالعمل بالوصية التي كانت تقضي له بحق الوصاية فقط الأمر الذي جعله يلقي بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالباً منه مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية وأجاب صلاح الدين نداءه وأمده بالمعونه اللازمة وبذلك استطاع أن يضم إليه حليفاً جديداً من الصليبيين، مكوناً بذلك ثغرة كبيرة في صفوف الصليبيين، وكادت مساعي صلاح الدين أن تنجح

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ / ٦١٥.

بعد أن أوشك الصدام المسلح أن يحتدم بين الملك جاي وبين ريموند، لولا تدخل بعض الأمراء لتهدئة الموقف ومطالبة الطرفين بالاتحاد لمواجهة ذلك الاستعداد الهائل الذي أعده صلاح الدين لهم، الأمر الذي اضطر الملك لوزجنان إلى المسير بنفسه إلى القومص ريموند الصنجلي، لاسترضائه ومصالحته. وبالرغم من خمود نار الحرب بين صفوف الصليبيين ولكن زادت الإنشقاقات في صفوفهم بعد الاختلاف الكبير في وجهات النظر بين ريموند الصنجلي وبعض الأمراء الصليبيين وفي مقدمتهم أرناط صاحب حصن الكرك، وبقيت النار تحت الرماد في انتظار من يشعلها، ولعل هذا الأمر هو السبب الذي جعل المؤرخ ابن الأثير يصف هذا التحالف بين صلاح الدين وريموند الصنجلي رغم قصر مدته بأنه: من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنفاذ البيت المقدس منهم[١].

وفي تلك الأثناء قام رينولد شاتيون بنقض الهدنة مع صلاح الدين عام ٥٨٢هـ /أواخر عام ١١٨٦م حين اعتدي على قافلة تجارية كبيرة مارَّة بأرض الكرك، في طريقها من مصر إلى بلاد الشام، واستولى عليها، فقتل حرَّاسها، وأسر بعض الجند، كما قبض على من في القافلة من تجار وعائلات وحملهم إلى حصن الكرك، وأساء إليهم، ولما وصلت أنباء تلك الاعتداءات إلى مسامع صلاح الدين، تمالك نفسه وكظم غيظه، واتبع الوسائل الدبلوماسية أولا، فأرسل إلى رينولد شاتيون ينكر عليه هذا العمل، ويتهدَّده إن لم يُطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن صاحب الكرك رفض استقبال

(١) ابن الأثير، الكامل، ١١ / ٥٠١ ـ ٥٠٢.

رسله، وعندما وجد صلاح الدين إعراضاً من جانب رينولد، أرسل إلـى الملـك جـاي لوزينـان شـاكياً ومطالبـاً بالنصـح لرينولـد بإعـادة الأسرى والأموال.

لبّـى جـاي دعـوى صـلاح الـدين لكنـه أخفـق فـي الضـغط علـى رينولد[١].

وعلى ما يبدو أن عقل أرناط توقف عند حدود الزمن الذي دخل فيه إلى أسر المسلمين سنة ١١٦٠ م ولم يخرج إلا عام ١١٧٦ م، وظن أن العالم ظل كما هو ولم يتغير عندما كان المسلمون في تشرذم وضعف شديد، وعندما كانت الصراعات بين أمراء وملوك العالم الإسلامي هي القاسم المشترك، في الوقت الذي كان الصليبيون يعيشون أزهي عصورهم من القوة والاتحاد، ولم يدرك أرناط أن موازين القوي قد اختلفت، وأن المواقف قد تبدلت، وانقلب ضعف المسلمين وتفرقهم إلى قوة ووحدة واتحاد، في حين أن نبتة الصليبيين الشيطانية التي زرعت في غير أرضها تذبل وتسقط أوراقها على أرض الإسلام، ولم يبق إلا أن يأخذها صلاح الدين أو غيره من حكام المسلمين ويلقي بها إلى البحر لتعود من حيث أتت.

وفي الحقيقة أن تعامل صلاح الدين مع أرناط وهذا الأسلوب الذي استخدمه في موضوع الأسرى الذين وقعوا بيد أرناط صاحب حصن الكرك واتباعه الطرق الدبلوماسية ومطالبته إياه بإطلاق سراحهم ورد أموالهم دون استخدام القوة كان له الأثر الأكبر في

---

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبين في مصر والشام، ص ١٤٢.

إدخال الخلاف وعدم الثقة بين ملك بيت المقدس وأرناط الذي لم يستجب لرجائه باحترام الهدنة المعقودة مع صلاح الدين وأصبح الملك الصليبي يتشكك في نوايا أرناط وطمعه في الانفراد بحكم تلك المنطقة، وإن كلاً منهما بات حذراً من الآخر كانت هذه التحالفات ونقضها نقطة الانطلاق الأولى لمعركة حطين (١).

وكان على صلاح الدين - كحاكم للمسلمين - أن يحافظ على سلامة رعيته من إعتداءات الصليبيين ومعاقبة أرناط المتعجرف، وشرع فعلا في التجهيز لحملة تأديبية لأرناط، وعندما اكتملت استعدادات التجهيز، خرج صلاح الدين من دمشق في شهر محرم ٥٨٣هـ/شهر آذار ١١٨٧م على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب، لأن التقارير التي وصلت إليه، أشارت إلى تربص حاكم الكرك بالحجاج وبعد أن اطمأن إلى وصول القافلة وسلامتها، شرع في مهاجمة الكرك وأرناط، والذي فر إلى حصن الكرك وتحصن به بمجرد علمه بنية صلاح الدين، فسّرح صلاح الدين عساكره في المنطقة فراحوا يعيثون فيها، ثم قصد الشوبك، وفعل فيها مثلما فعل بالكرك وظلَّ في الأردن شهر صفر ربيع الأول ٥٨٣هـ/شهر نيسان وأيار ١١٨٧م تغطية للحشود التي كانت تتجَّمع حول ابنه الأفضل في رأس الماء (٢).

كما عمد صلاح الدين إلى إرسال قوة استطلاعية لتقوم بالإغارة على ممتلكات العدو، لإضعاف معسكراته وكشف مخططاته فسارت

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبين في مصر والشام، ص ١٤٢.
(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبين في مصر والشام، ص ١٤٤.

هذه السرية المدججة بالسلاح والعتاد، باتجاه صفورية. وقد حرص قوادها على أن يكون مسيرها على قدر كبير من السرية والخفاء، فكان سيرهم إليها في الجزء الأخير من الليل، على أن يكون هجومهم عليها في الصباح الباكر، وبالفعل فقد نفذت تلك الخطة بدقة تامة " وصبحوا صفورية وساء صباح المعتدين وأما الصليبيون الذين كانوا ينعمون بنوم هادئ في ذلك الوقت فإنهم قد استيقظوا على أصوات السيوف والرماح وأسرعوا إلى لمْ شعثهم وتجميع قواهم لمواجهة ذلك الهجوم الإسلامي المفاجئ، والتقى الجمعان، ودارت بينهما معركة رهيبة، انتهت بانتصار إسلامي مظفر، وسقط معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى، وكان من بين القتلى، مقدم الاسبتارية وعدد كبير من أبرز فرسانهم ونجا مقدم الداوية بصعوبة بالغة ومما زاد الطين بلة أنه عندما تجرأت قوة صليبية أخرى على الإسراع إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت المعركة قد انتهت فأسر المسلمون تلك النجدة عن آخرها، وعاد المسلمون من هذه المعركة سالمين غانمين [١]

أدرك الصليبيون بصعوبة موقفهم بعد تلك الانتصارات التي حققها صلاح الدين الأيوبي، ولعل ما أقلق مضجعهم حقا هو تلك الوحدة التي أقامها في الجبهة الإسلامية وأدركوا أن كيانهم زائل لا محالة، فاجتمعوا واصطلحوا، وحشدوا وجمعوا، وأصدر الملك جاي الأمر بالتعبئة العامة، وحشد الصليبيون حشوداً كبيرة، ورفعوا صليب الصلبوت، لتجتمع الناس حوله، وقد اكتملت عدة ذلك الجيش

(١) رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٢.

بعد أن تم توزيع الأموال التي بعثها ملك انجلترا هنري إلى الملك جاي، والتي أمر بإنفاقها على الرجال وأما بالنسبة لتقدير عدد الجيش الصليبي الذي ظل معسكراً في صفورية بعد هزيمته من تلك السرية الإسلامية فإن المؤرخين المعاصرين ذكروا أن عدده بلغ زهاء خمسين ألفا أو يزيدون، وبعضهم رجح أنه يبلغ عشرين ألفاً [١].

وكان صلاح الدين الأيوبي على علم بتلك التحركات الصليبية، فلما علم باجتماع الصليبيين في صفورية عقب هزيمتهم من السرية الإسلامية في هذا المكان، قام بعقد مجلس حرب واستشار قواده فيما يفعل، فأشار أكثرهم بترك اللقاء، واتباع الطريقة السابقة من إغارات متكررة، وتكبيد العدو خسائر حتى تضعف مقاومته ثم إنزال الضربة القاضية بالصليبيين وأشار البعض بالتوغل في بلاد الصليبيين والاشتباك معهم في معركة فاصلة [٢].

غير أن صلاح الدين أجاد قراءة الموقف العسكري للمسلمين فأدرك أن معظم القوات التي تجمعت عنده في ذلك الوقت جاءت من أماكن بعيدة من مصر ودمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها، فأراد أن يستفيد من تواجدها ويستغل حماستها للجهاد بعد الانتصار على الصليبيين في صفورية، هذا بالإضافة إلى أن صلاح الدين ربما قصد باتباع تلك الخطة استغلال ذلك الانشقاق الذي حدث في صفوف الصليبيين، نتيجة وفاة الملك بلدوين الخامس، وتتويج الملك جاي لوزجنان والذي عده أحد الباحثين، سبباً حرمت

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ٧٦/٢، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٢.
(٢) رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٢.

من أجلـه مملكـة بيـت المقـدس مـن معونـة أقـوى إمـارتين صـليبيتين بالشام هما إمارة طرابلس، وإمـارة إنطاكيـة، وبالتـالي وصـل الموقف بين صلاح الدين والصـليبيين إلـى طريـق الـلا عـودة، وباتـت الحـرب هـي الخيـار الوحيـد لكـلا الطـرفين، فقد كـان الصـليبيون يـدركون أن تمركـزهم فـي صـفورية يعطـيهم مكانـة عظيمـة فـي القتـال، وذلـك أن صفورية تعتبر في أحسن المواقع الملائمـة لإقامـة المعسكرات وذلك لمـا يتـوافر بهـا مـن المراعـي والميـاه وغيرهـا مـن المـوارد الطبيعيـة اللازمـة لذلك (٣)، لهذا عمد صـلاح الـدين إلـى استدراج الصـليبيين إلــى المكـان المناسـب الـذي يسـتطيع فيــه إنـزال الهزيمـة بهـم هـذا بالإضـافة إلـى أنـه علـى الـرغم من ذلـك كـان يريـد أن يجبـرهم علـى المسـير إليـه حتـى يصـلوا متعبـين، ويكـون هـو مـدخراً جهـده وجهـد رجاله، لذلك أخذ صلاح الدين يعد عدته للقيام بعمل يستطيع اجتذاب الصـليبيين مـن معسـكرهم فـي صـفورية والنـزول إلـى المكـان الـذي يختـاره فأخذ كل يوم يرسل جماعـة من رجالـه، لمباغتـة الصـليبيين والنكايـة بهـم، محـاولاً بـذلك اسـتدراجهم إليـه، غيـر أن تلـك الغـارات المتكررة لم تؤثر علـى الصليبيين، فلم يتركـوا مركـزهم فـي صـفورية فـرأى صـلاح الـدين الهجـوم علـى طبريـة ذاتهـا؛ لأن الصـليبيين متـى رأوا هجومه ذلك بادروا بالوصول إليه، وبذلك يكون قد تحقق لـه مـا قصده [١].

وجـد صـلاح الـدين أن التوجـه إلـى طبريـة هـو الوسـيلة المثلـي

(١) سـعيد عبـد الفتـاح عاشـور، الحركـة الصـليبية، ٦٣١/٢، محمـد سـهيل طقـوش، تـاريخ الأيوبيين، ص ١٨٢. رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٣.

لاستدراج الصليبيين وزحزحتهم عن أماكنهم الحصينة في صفورية؛ لأن الهجوم على صفورية سوف يثير ريموند أمير طرابلس المشهور بشدة الغيرة، بالإضافة إلى أن صلاح الدين، كان يعلم أن نزوله في ذلك الموضع يستطيع أن يترصد من خلاله تحركات الصليبيين والطرق المؤدية إلى طبريه، ويسيطر في الوقت ذاته على الدروب التي تجتاز الحافة الشرقية إلى طبرية وتنتهي إلى الماء، في حين يبقى الصليبيون عند خروجهم من صفورية، وتقدمهم إليه في منطقة وعرة لا تتوفر فيها المياه(١).

وبالفعل تقدمت القوات الإسلامية باتجاه طبرية وهاجمتها من كل اتجاه، وتمكن من السيطرة على طبرية ماعدا قلعتها التي تحصن بها معظم الحامية العسكرية، وما كادت أخبار ذلك الهجوم تصل إلى أسماع الصليبيين، حتى جن جنونهم، ودعا الملك جاي إلى مجلس حرب، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم من التوغل في طبرية، في حين أشار البعض بالتريث والبقاء في مواضعهم بصفوريه وتزعم هذا الاتجاه ريموند صاحب طرابلس قائلاً: إن طبريه لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة، وفيها زوجتي، وقد رضيت بأن يأخذ القلعة وزوجتي، وما لنا بها فيعود، فوالله لقد رأيت معسكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل ذلك العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية، لا يمكنه المقام بها إلا بجميع عساكره، ولا يقدرون

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١ / ٥٣٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ١٨٨، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ص ٢٤٣.

على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها وتفتك من أسر منا [١].

إلا أن ذلك الرأي لم يعجب كثيرا من صقور الصليبيين المتهورين، حيث لقي رأي ريموند هذا معارضة شديدة من كل من أرناط صاحب الكرك، وجيرار مقدم الداوية اللذين اتهماه بالخيانة والإنحياز إلى المسلمين، حيث رد عليه أرناط قائلاً: قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم. واستطاع أرناط وجيرار التأثير على الملك جاي الذي أصدر أوامر إلى الجند بالمسير إلى طبرية وبدأ الجيش الصليبي زحفه من صفورية يتقدمه ريموند في ظروف سيئة للغاية، فروح الصليبيين المعنوية منحطة، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار التقدم نحو طبرية، فساروا مكرهين، هذا بالإضافة إلى ما تعرض له ذلك الجيش الصليبي في طريقه من متاعب وخسائر بسبب الكمائن التي نصبها صلاح الدين لهم أثناء سيرهم، فضلاً عن حرارة الجو، ووعورة الطريق وانعدام الماء، كما أن المسلمين قد دمروا صهاريج المياه التي في طريق الصليبيين نحو حطين مما زاد الوضع سوءا. وإزاء هذه الظروف القاسية حل بالجيش الصليبي أثناء سيره من صفورية إلى طبرية، انفصال كبير، حيث لم تستطع مؤخرته مجاراة سير بقية الجيش والاتصال بالملك في الوسط، الأمر الذي اضطر الملك جاي إلى إقامة معسكره، قبل الوصول إلى طبرية، على الرغم من تلك

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ١١ / ٥٣٣ ـ ٥٣٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ١٨٨ ـ ١٨٩، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٤.

المحاولة التي قام بها ريموند أمير طرابلس الذي كان في المقدمة، لحث الصليبيين على التقدم للوصول إلى المياه. مما أدى إلى تذمر ريموند من ذلك التصرف، وإدراكه بأن الهزيمة حاصلة لا محالة[١].

وسر صلاح الدين الأيوبي سرورا كبيرا بوقوع الصليبيين في الفخ الذي نصبه لهم وعلق على ذلك بقوله: قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صَّحت كسرتهم، وقُتلت وأسرت أسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ولا عن فتحها وازع [٢].

وصل الصليبيون يوم الثالث من يوليو - وكان يوم شديد الحر، ساكن الهواء - سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهي منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر، ولها قمتان مما جعل العرب يطلقون عليه اسم قرون حطين، وبوصول الصليبيين إلى تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك والتعب، واشتد بهم العطش وكانت المياه قريبة منهم، إذ في أسف الهضبة التي يعسكرون عليها قرية حطين وبحيرة طبرية بمائها الوفير، ولكن حال جيش صلاح الدين وجيشه بينهم وبين الوصول إلى الماء، واستقر الرأي بهم على قضاء الليل فوق الهضبة

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ١١ / ٥٣٣ - ٥٣٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ١٨٨ - ١٨٩، فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ص ١٢٤، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٤.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ٢ / ٩٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢ / ٦٣٣، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٥.

بعيدا عن خطر المسلمين، وهذا ما كان يريده صلاح الدين بالضبط، إذ قضي الصليبيون ليلة مرعبة، زاد من سوءها العطش الذي فتق أكبادهم جميعا، والتهبت عيونهم من الدخان المنبعث من النيران التي أشعلها المسلمون في الحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين، وكانت الريح على الفرنج، فحملت حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان، وقد حاول البعض منهم التسلل ليلا إلى بحيرة طبرية لمحاولة قتل ظمأه فتخطفتهم أيدي المسلمين قتلا، وعاش الصليبيون ليلة شديدة مرعبة من جراء أصوات التكبير والتهليل التي أرعدت فرائصهم [١].

وحاصل الأمر أن جيش صلاح الدين قضى الليل ينعم بكافة الوسائل التي تعينه على القتال، فقد كان يعسكر في منطقة سهلة غنية بالمراعي والمياه. أما الجيش الصليبي، فقد ازداد بلا شك خلال تلك المدة شقاءً وإنهاكاً، بسبب إقامة معسكره على منطقة وعرة جداً عديمة المياه وفي جو شديدة الحرارة، ويبدو أن صلاح الدين، قد استغل توقف القتال تلك الليلة، ليكمل استعداداته لمهاجمة العدو الذي لجأ إلى سفح جبل حطين، ليعصمهم من المهالك ومن ثم المبيت في جو معتدل يخفف عنهم شدة الحرارة والعطش وعلى الرغم من أوامر الملك جاي التي كانت تقضي بأن يندفعوا إلى أسفل التل ليؤدوا واجبهم نحو الصليب والعرض، إلا أنهم اعتذروا بشدة العطش وإنهم

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢ / ٧٦ - ٧٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢ / ٦٣٤، قاسم عبده، الأيوبين والمماليك، ص ٥٩، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٦.

لا يستطيعون الحرب، فاستغل صلاح الدين ذلك، ورتب جيشه ورسم له الخطط، وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، كما يقول ابن الأثير[1].

فتحت عيون الصليبيين على مصير كان يتهددهم فحاولوا تدارك ما فاتهم فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة رهيبة فقد تقدم الجيش الإسلامي الذي أكمل استعداداته للمعركة الفاصلة وفي المقابل تحرك الجيش الصليبي واضعاً في ذهنه الوصول إلى طبرية لعله يرد الماء، إلا أن صلاح الدين ببراعته الحربية أدرك مقصودهم، ووقف بعسكره في وجوههم.

وفي يوم المعركة حمل المسلمون على الصليبيين حملة شديدة ضعضعوا فيها صفوفهم، وقتلوا عددا كبيرا من الصليبيين، الذين خارت قواهم وأدركوا أنه لا ينجيهم من صلاح الدين سوى الفرار أو الاستسلام، ولم يستطع النجاة سوى ريموند أمير طرابلس الذي رأى عجز الصليبيين عن مقاومة الجيش الإسلامي، فاتفق مع جماعة من أصحابه وحملوا على من يليهم من المسلمين، ففتح المسلمون لهم طريقاً يخرجون منه، وبعد خروجهم التأم الصف مرة أخرى، ويبدوا أن خروج ريموند تم بموافقة صلاح الدين، الذي أصدر أوامره إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، مقدم تلك الناحية التي حمل عليها ريموند، وقصد صلاح الدين بذلك إدخال الضعف واليأس في نفوس الصليبيين عندما يعلمون بهروب ريموند وجموعه، كما لا يستبعد أن

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١ / ٥٣٥، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٦.

يكون ذلك الأمر قد تم باتفاق بين ريموند وصلاح الدين، بدليل أن بعض الصليبيين عندما تعرضوا لذلك الهجوم الشامل من المسلمين، ألقوا أسلحتهم، وجاءوا إلى معسكر المسلمين مستسلمين (١).

وبعد أن حصر صلاح الدين الصليبيين في أعلى جبل حطين، ركز اهتمامه على الاستيلاء على صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت والذي يذكرون: أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم، لأنه كان يعلم أن الاستيلاء عليه يعد أعظم سلاح لتحطيمهم نفسياً ومعنوياً وبالفعل، فلما تمكن من أخذه حل بالصليبيين البوار وأيقنوا بالهلاك وتقدم المسلمون نحو قمة الجبل والصليبيون يتراجعون أمامهم، ويتساقطون أسرى وقتلى، حتى لم يبق مع الملك الصليبي الذي وصل إلى أعلى التل سوى فئة قليلة لا يتجاوز عددها مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين الشجعان، وعاد الصليبيون مرة أخرى وحاولوا دحر المسلمين الذين ردوا عليهم بحملة أقوى أرجعتهم مرة أخري إلى أعلى التل، ثم أخذ صلاح الدين في تشديد هجماته حتى سقطت خيمة الملك الصليبي، فنزل صلاح الدين وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه (٢).

والواقع أن ما فقده الصليبيون في هذه المعركة من قتلى وأسرى يعتبر من أفدح الكوارث التي حلت بهم ولم ينج إلا عدد قليل من المحاربين بالإضافة إلى من نجا من جند المؤخرة بقيادة باليان أبلين،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/ ٥٣٦ - ٥٣٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٣٤/٦ - ٣٥، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/ ٥٣٦ - ٥٣٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٦ / ٣٤ - ٣٥، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٧.

وريجنالد صاحب صيدا، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب صيدا، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب طرابلس، وتساقط معظم الجيش الرئيسي بقيادة الملك جاي لوزجنان فقد تساقطوا في أيدي المسلمين قتلى وأسرى وكان على رأس الأسرى الملك جاي لوزجنان فقد تساقطوا في أيدي المسلمين قتلى، وأسرى، وكان على رأس الأسرى الملك جاي، وأرناط صاحب الكرك وأوك صاحب جبيل، وهنفري بن الهنفري صاحب تبنين، وابن صاحبة طبرية، وجيرار مقدم الداوية، ومعظم من نجا من الاسبتارية، وغيرهم من أكابر الصليبيين[١].

وحانت لحظة الحساب للصليبيين فقد أحضر صلاح الدين ملوك الصليبيين، ومقدميهم واستقبلهم استقبالاً حسناً، وأجلس الملك جاي إلى جانبه وأجلس البرنس أرناط صاحب الكرك إلى جانب الملك، وبادر صلاح الدين بتقديم إناء به ماء مثلج للملك جاي، فشرب منه، وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب، وعندئذ غضب صلاح الدين من ذلك، وخاطب الملك مؤكداً له بأن أرناط لم يشرب الماء بأذنه فينال أمانه. ثم التفت إليه وذكره بجرائمه وخيانته وقال له: كم تخلف وتنكث؟ فقال أرناط: قد جرت بذلك عادة الملوك، فوقف السلطان صلاح الدين وقال: ها أنذا استنصر لمحمد. ثم عرض عليه الإسلام فأبى، فاستل صلاح الدين سلاحه وضربه فحل كتفه، وتمم عليه من حضر، وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/ ٥٣٦ - ٥٣٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٦ / ٣٤ - ٣٥، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٧.

لمحاولته طعن المسلمين في مهوي قلوبهم (مكة والمدينة) والثانية لاعتدائه على القوافل الإسلامية. ولما رأى ملك بيت المقدس جاى لو زجنان ذلك المنظر، خاف وظن أن صلاح الدين سوف يثنّي به ولكن السلطان استحضره، وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ما جرى [١].

ثم أحضر صلاح الدين الداوية والاسبتارية، وعرض عليهم الإسلام فمن أسلم استبقاه ومن أبى أمر بقتله [٢]، وأما بقية الأسرى،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/ ٥٣٦ - ٥٣٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٦ / ٣٤ - ٣٥، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٧.

(٢) وقد بين المؤرخون سبب مقتلهم أن صلاح الدين، قال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقطعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر وهما أخبث أهل الكفر، ومن المعروف أن فرسان هاتين الهيئتين قد تنكروا للمبادئ التي كرسوا حياتهم لخدمتها فخلعوا زيهم الديني الأسود واتشحوا بالوشاح العسكري الأبيض والشارة الصليبية الحمراء، وأصبحوا في زمرة المحاربين وامتلك كل منهم ثلاثة من الخيل، وغلاماً يتبعه، وصار منهم قادة يحملون الألقاب والرتب العسكرية، ويجيدون حبك سياسة الغدر بالمسلمين، ونقض العهود والمواثيق وكان هدف فرسان هاتين الطائفتين الأول والأسمى طعن الإسلام وانتهاك حرماته بشتى الوسائل مهما كلفهم ذلك من ثمن، كان عدد الاسبتارية والداوية حوالى ثلاثمائة وستين رجلاً والأمر المؤكد: أن دورهم الحربي السابق ضد المسلمين كان دافعاً لقتلهم خاصة أنه عرف عنهم عدم احترامهم للعهود والمواثيق، كما أنه أدرك أنه في حالة إطلاق سراحهم سيعودون إلى قتال المسلمين بصورة أشرس من ذي قبل، كما لا نغفل أن منهم من شارك في حملة أرناط الآثمة على الحجاز، وأمام كافة تلك الاعتبارات وأمام تلك الاعتبارات لم يتردد صلاح الدين في الفتك بأولئك الأسرى من الصليبيين وقد تعرض للهجوم من جانب عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين الذين نسوا أو تناسوا ما فعله الصليبيون من مذابح فتكوا فيها بالآلاف المؤلفة من المسلمين، وليس هذا بجديد على العقلية الغربية التي نجدها أحياناً تكيل بمكيالين وتبيح لنفسها ما تحرمه على غيرها، ولا نغفل أن ذلك الأسلوب من صلاح الدين جاء استثناء لسياسة متسامحة بصفة عامة تجاه أعدائه. ابن واصل، مفرج الكروب، ١٩٦/٢.

فقد أمر صلاح الدين بأن يساقوا إلى دمشق حيث أحتيط على الأمراء، وبيع عامة الفرسان والجند الصليبيين في الأسواق بأثمان زهيدة، ودخل القاضي ابن أبي عصرون دمشق وصليب الصلبوت منكس بين يديه، وعاد السلطان إلى طبرية، أما ريموند الثالث أمير طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة - كما سبق أن ذكرنا - وصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قليلة، حيث مات بها غيظاً وحنقاً مما جرى على الصليبيين خاصة وعلى دين النصرانية عامة[١].

ولكن...

أي الحكايا ستروي عارنا جلل ::: نحن الهوان وذل القدس يكفينا

القدس في القيد تبكي فوارسها ::: دمع المنابر يشكو للمصلينا

حكامنا ضيعونا حينما فسقوا ::: باعوا المآذن والقرآن والدينا

أعداؤنا من أضاعوا السيف من يدنا ::: وأودعونا سجون الليل تطوينا

أقزامنا من تواري صوهم فزعا ::: والأرض تسبي والقدس تنادينا

قم من ترابك يا ابن العاص في دمنا ::: ثأر طويل لهيب العار يكوينا

قم يابلال وأذن صمتنا عدم ::: كل الذي كان طهرا لم يعد فينا

هل من صلاح يعيد السيف في يدنا ::: أو تبتروها فقد شلت أيادينا

هل من صلاح يداوي جراح أمته ::: ويطلع الصبح نارا من ليالينا

هل من صلاح لشعب هده أمل ::: مازال رغم عناد الجرح يشفينا

جرحي عنيد وجرحي أنت يا وطني ::: جئنا نداويك تأبي أن تداوينا

إني أري القدس في عينيك ساجدة ::: تبكي عليك وأنت الآن تبكينا

ما زال في العين طيف القدس يجمعنا ::: لا الحلم مات ولا الأحزان تنسينا

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/ ٥٣٦ - ٥٣٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٦ / ٣٤ - ٣٥، رجب محمود بخيت، تاريخ الدولة الأيوبية، ص ٢٤٧.

أسباب الانتصار في معركة حطين:

١ - الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب: لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي رحمه الله أن يوحد الأمة ويجمعها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والجهاد في سبيل الله، وتحرير البلاد الإسلامية، فأصبحت الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق تحت إمرته وقيادته، وحشد لهذه المهمة العلماء والفقهاء والجيوش والألوف من المجاهدين وفي مقدمتهم العلماء والفقهاء يحرضون المقاتلين على القتال وكون جيشًا بريًّا قويًّا وأنشأ أسطولاً بحرياً مصرياً وأنفق عليه أموالاً طائلة، قال ابن شداد: " إن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته، ولزومهم قانون خدمته، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهاد والاجتهاد من إقامة قانون الجهاد، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣هـ ورتبهم واندفع بهم قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة... وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة، لقد كان الإعداد والاستعداد فقد اختار الرماة، وزودهم بالنبال الكافية، الكثيرة، فملأ حياتهم بها وقد بلغ ما فرقه على الرماة من نبال أربعمائة جمل، ورصد حمولة سبعين ناقة في ساحة القتال وميدان المعركة، وجعل هذه النوق المحملة بالسهام، لمن تنفذ سهامه أن يأخذ منها ما يحتاج ضماناً لاستمرار القتال والرمي وعدم التوقف فيه حتى يتنزل النصر بإذن الله سبحانه وتعالى وقد خاض صلاح

الدين المعركة بجيش قوي ومهارة حربية منقطعة النظير، فضلاً عن اختياره لمكان المعركة وزمن وقوعها، حيث عسكر بجيشه على طبرية حائلاً بين العدو وبين الماء، كما أعلن جهاده في شهر يوليه الذي يعد أشد شهور السنة حرارة، وأقلها ماء في الصهاريج والغدران، حتى أصبح العطش من أقوى الأسلحة بين يديه(١).

لقد مارس صلاح الدين قول الله تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال: ٦٠] فقد جمع الجيوش الإسلامية واستدرج الجيوش الصليبية واختار المكان المناسب للمعركة.

٢ - سنة التدرج ووحدة الأمة: فقد قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد - ربما رأى الكثيرون - في ذلك الوقت - استحالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدي التحُّرري، والذي حقق ابنه نور الدين جُزئه الأوَّل وحقَّق صلاح الدين قسماً مُهمَّاً من جُزئه الثَّاني ولذلك نرى انتصار صلاح الدين في حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرُّرى فلولا متابعته نور الدين لخُطى والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر (٢)، الذي تّم بفضل الله وجهود التوحيد، التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا

---

(١) عبد الله علوان، صلاح الدين الأيوبي، ص ١٢١، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٩١.

(٢) صلاح الدين والصليبيون، ص ١٩١.

تفرق بين جنس أو لون أو طائفة وإنما جمعتهم الإخوة في الله التي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام قال الشاعر:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً ::: الشام فيه ووادي النيل سيان
وأينما ذكر اسم الله في بلد ::: عددت أرجاءه من لبِّ أوطاني (١)

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس وأصبح المؤمنون في توادَّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المستعمرون من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين لكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم وظل المسلم محباً لأخيه المسلم ولسان حال كل منهم يقول:

لو اشتكى مسلّم في الصين أرّقني ::: أو اشتكى مسلم في الهند أبكاني
فمصر ريحانتي والشام نرجستي ::: وفي الجزيرة تاريخي وعنواني
وفي العراق أكف المجد ترفعني ::: عن كل باغ ومأفون وخوّان
ويسكن المسجد الأقصى وقبته ::: في القلب لا شك أرعاه ويرعاني
أرى بخارى بلادي وهي نائية ::: وأستريح إلى ذكرى خراسان
شريعة الله لمت شملنا وبنت ::: لنا مقاماً بإحسان وإيمان (٢)

---

(١) إبراهيم النعمة، الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ص ٩.
(٢) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ص ٢٤، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٦٦.

٣ - بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية: من الملاحظ أن صلاح الدين الأيوبي كان يدرك أهمية العمل المزدوج توحيد الجبهة الإسلامية وجهاد الصليبيين، نظراً لما بينهما من اتصال وثيق، ومما يذكر هنا؛ أن عام ١١٨٦م/٥٨٢هـ شهد الاتفاق مع عز الدين مسعود صاحب الموصل على أن يكون تابعاً له، ولذلك استطاع أن يخضع الأربعة مدن الإسلامية الرئيسية التي تحكمت في الظهير البري وهي القاهرة، ودمشق، حلب، الموصل، وجميعها سيكون لها شأنها البارز في مشروع الجهاد [١]، من زاوية أخرى، لا تغفل أن الصليبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث كونت طرابلس، واتجهوا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين وذلك عام ١١٨٥م/٥٨١ هـ مدتها أربع سنوات ومن الملاحظ أن كلاً من الجانبين احتاج إليها من أجل تنظيم قواته والتقاط الأنفاس ومما يدل على بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية مهادنته لبعض القوى الصليبية من أجل المحافظة على قواته وعدم تبديد فعالياتها في عمليات حربية كبيرة مستمرة لاسيما مع الصليبيين؛ ولذا نجده يتجنب طوال تلك الأعوام الدخول في معركة حاسمة معهم ولا يتعجل الأمر، بل يترك عوامل الانقسام والفرقة تلعب دورها في صفوفهم وكانت من أخطر قراراته السياسية قرار " السلام " المؤقت مع الصليبيين، ومن المهم إدراك أن تلك المعاهدات عندما سيتم خرقها ستعطيه المبرر لشن حرب التحرير الشاملة التي من ثمارها معركة حطين وكانت شرارة الصدام بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين أتت من الفارس الصليبي، رينو دي شاتيون أو

(١) محمد مؤنس، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢١٥.

أرناط وهو الفارس الذي أدخلته رعونته التاريخ من أوسع أبوابه، فقد خرق أرناط الهدنة واعتبرها صلاح الدين إعلان حربي صليبي وكان الرد الأيوبي سريعاً وحاسماً كما حدث في معركة حطين ٥٨٣هـ١١٨٧م [١].

٤ - إخلاص صلاح الدين لله عز وجل:

حين سمع صلاح الدين في غزوة حطين مسير الجيش الصليبي إليه قال: جاءنا ما كنا نريد، واجتمع أصحابه وأشاروا بالقيام بالغارات، فرفض وقال: الرأي عندي أن نلقى بجميع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفَّرق هذا الجمع إلاّ بعد الجد والجهاد، وقال للجند: لا تقاتلوا عني ولكن قاتلوا في سبيل الله، وهذا تطبيق عملي من صلاح الدين لقول الله تعالى:{ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ} [النساء: ٧٦].

فقد خاض صلاح الدين حروبه مع الصليبيين انطلاقاً من مبدأ القتال في سبيل الله [٢]، فقد كان يحرص كل الحرص أن يكون القتال في سبيل الله وفي رفع راية الإسلام خفاقة وتنكيس راية الشرك والمشركين من الصليبيين الذين عبدوا الصليب وقدسوه، فقد كان صلاح الدين مخلصاً في جهاده، ومخلصاً في طلب الشهادة، وكان يذّكر قواده وأمراءه بضرورة الإخلاص لله وإرادة وجه الله في قتال الأعداء حتى يثيبهم الله ثواب المجاهدين ويبلغهم منازل الشهداء الغّر

(١) محمد مؤنس، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢١٧.
(٢) عبدالله علوان، صلاح الدين الأيوبي، ص ١١٣.

الميامين من أمة سيد المرسلين ﷺ ولقد وفقه الله في معاركه وفتوحاته لكثرة إخلاصه كيف لا، وهو إذا فتح بلداً من البلاد لم ينسب النصر له، بل نسبه إلى الله عز وجل، فهو واهب النصر، وناصر المؤمنين الموحدين، وهازم الكافرين المشركين، فما أن ينتصر المسلمون بقيادته إلا وخّر ساجداً لله تبارك وتعالى شاكراً له على نصره وهكذا حصل منه في حطين وغير حطين [١].

٥ ـ تطبيق الشريعة وبركاتها في دولة صلاح الدين: يخبرنا التاريخ أن صلاح الدين رحمه الله حينما تولى الإمارة والسلطنة قد تاب إلى الله توبة نصوحاً، وهجر أسباب المعاصي ووسائل اللهو المحرم وندم على كل ما وقع فيه في مراهقته، فأقبل على الله تعالى بتوبة صادقة واشتغل بالطاعات فأكثر من العبادة وقد علم جنوده وغيرهم ورباهم على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والوقوف عند حدوده وهجر معاصيه والإقبال على طاعته وكان يهتم بالشريعة وعلمائها، يطبق الأحكام الشرعية على الرعية ويسوسها بالعدل والسوية ويقمع أهل الضلالة والفساد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتواضع للناس ولا يحابي محباً ولا يظلم مبغضاً، بل كان يتجاوز عن المبطل إذا خاصمه بالباطل ويحيطه بكرمه وحسن أخلاقه، وكان يأمر أهله وقواده بتوثيق الصلة بالله وبكتابه تلاوة وحفظاً، وتدبراً وعملاً، وكان يوصي أبناءه بتقوى الله وطاعته ويذكرهم بالموت وما بعده، وتأمل معي هذه الوصية لولد من أولاده الذين بلغوا سبعة عشرة ذكراً وهو الملك الظاهر: أوصيك بتقوى الله

(١) أبو فارس، دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص ١٧٨.

تعالى فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء، والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، أوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في الدولة وأكابرها، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد. فإن الموت لا يبقى أحداً، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم (١).

٦ - العدل: إن العدل أساس الملك ولهذا أمر الله رسوله القيام به فقال:{وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} [الشورى: ١٥] كما قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ} [النساء: ١٣٥]. وقال تعالى:{كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ} [المائدة: ٨] وقال تعالى:{وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ} [النساء: ٥٨] والعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة، وهو يؤذن بزوال الدول (٢).

ومن الحق أن نسجل أن الدولة النورية في عهد نور الدين زنكي والدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي، قد ساد العدل في الرعية، وتم إيصال حقوق الناس إليهم، فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دولتهم، قال القاضي ابن شداد عن صلاح الدين: لقد كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء

(١) أبو فارس، دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص ١٨٠.
(٢) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ٤٧٣.

والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد، من كبير وصغير، وعجوز وهرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ بقصته [١].

لقد قام صلاح الدين بالعدل في دولته وترك لنا وقائع ملموسة وتطبيقات عملية مع الأمراء والرعية في المحافظة على حقوق الأفراد وحقوق الدولة، قامت هذه التطبيقات على العدل والإنصاف وأرست هذه القاعدة العدل أساس الحكم والظلم يؤذن بزوال الدولة، كما أن العدل الذي أقامه صلاح الدين في دولته كان من أسباب انتصاره في حطين [٢].

٧ ـ جيل مقاتل في سبيل الله: لم يظهر جيل صلاح الدين من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في حطين

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٣ ـ ١٤.
(٢) أبو فارس، دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص ٢٠٥ ـ ٢١١، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ٤٧٣.

تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة، وكان صلاح الدين الأيوبي ودولته امتدادا للدولة الزنكية والنورية في الصلاح والإصلاح [1].

٨ - الاستعانة بالعلماء واستشارتهم في الحرب والإدارة: كان صلاح الدين يلازم العلماء، ويجالسهم ويستشيرهم في الحروب والإدارة ويستمع إلى نصائحهم ويقدرها وكان يعتمد على بعضهم في إدارة ممالكه وكان أكثرهم مرافقة له في السراء والضراء وفي حله وترحاله القاضي الفاضل، تأمل حديثه وتحليله لأهم أسباب النصر بعد توفيق الله تعالى حين يقول: ما فتحت البلاد بالعسكر، وإنما فتحتها بكلام الفاضل [2]، فالقاضي الفاضل كان يقدم له الرأي الحصيف، والقول السديد، والقرار الحكيم، وكان يصدقه في الرأي والحرب والمكيدة والسياسة والحكم. وقد لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء والفقهاء، وكان يستشيرهم ويأخذ بآرائهم وبعد انتصاره الكبير في حطين رأى صلاح الدين استكمال الجهاد ضد الصليبيين واستعادة المدن الشامية منهم مّرة أخرى، وقد شارك مجموعة من العلماء في هذه الفتوحات، فقد استعان صلاح الدين بالعلماء والفقهاء على إعداد الأمة جهادياً مبيناً لهم غاية الجهاد في الإسلام وضرورة الالتزام بها والعمل لها وقد ساهم العلماء مساهمة جوهرية في رفع الروح المعنوية القتالية في حطين وغيرها [3].

---

(١) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ٤٧٣.
(٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ٣٢٧/٤.
(٣) أبو فارس، دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص ١٤٣، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٧٦.

٩ - حسن الصلة بالله: كان صلاح الدين كثير العبادة والدعاء والرجاء في نصر الله وعونه، وكان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحثهم على الطاعة والعبادة ويتقدمهم في ذلك ويهيء لهم الفرصة لتزكية النفوس والانشغال بتلاوة القرآن الكريم وتدبره وحفظه، وكان حريصاً على صلاة القيام وكثرة الذكر، ويحض أمراءه وجنده على ذلك، فكان رحمه الله يجلس إلى العلماء ويقرأ عليهم القرآن الكريم، ويستمع منهم إلى تفسيره، ويجلس إلى أهل الحديث يتفقه عليهم فقه الحديث ويستمع إلى الفقهاء والعلماء وكان يحضر العلماء والفقهاء والمفسرين ليعلموا الجيش كتاب ربهم ويفقهوهم في دينهم ويوثقوا صلتهم بربهم. وكان رحمه الله يأمر جنوده في الخيام أن يقوموا في الليل وأن يذكروا الله ذكراً كثيراً، وكان يتفقد خيام الجند فإذا وجد خيمة غفل أهلها عن القيام والذكر وتلاوة القرآن أيقظهم وذكرهم بضرورة الإكثار من ذكر الله وعبادته وطاعته وهذه الأمور من أهم عوامل النصر على العدو[١].

١٠ - اللجوء إلى الله بعد الإعداد: ومن أسباب النصر أنه كان بعد الأخذ بالأسباب يلجأ إلى الله تبارك وتعالى يطلب منه المد والعون وكان رحمه الله كثير الدعاء واللجوء إلى الله في الملمات وكان في دعائه مخلصاً متضرعاً. قال القاضي العالم المصاحب له في أسفاره وجهاده عن دعائه وحاله في الدعاء: كان يتصدق ويخفي صدقته قبل أن يناجي ربه وهو ساجد فيقول: إلهي قد انقطعت أسبابي

(١) أبو فارس، دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص ١٨٥، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٧٦.

الأرضية من نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول [1]، فسرعان ما يستجيب الله دعاءه ويجعل أمر الصليبيين في اضطراب ويعودون شر مآب بالهزيمة من رب الأرباب، نعم إنه التوكل على الله حق توكله، والدعاء من سويداء القلب إلى ربه وهو القائل سبحانه وتعالى:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ} [الطلاق: ٢ - ٣] وقال تعالى:{وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا} [الطلاق: ٣] وقال تعالى:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦} [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى{وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ} [غافر: ٦٠].

١١ ـ نجاح العمل الاستخباراتي لصلاح الدين: استطاع صلاح الدين أن يخترق الصليبيين استخباراتياً، فقبيل معركة حطين تمكن صلاح الدين من استمالة زوجة أمير أنطاكية بوهيموند الثالث السيد سيبل، فكانت لها اتصالات سرية مع صلاح الدين الأيوبي وكانت تطلعه على خطط الصليبيين وتحركاتهم أولاً بأول، وذلك في فجر يوم حطين ويؤكد المؤرخ ابن الأثير هذه الحقيقة، فيقول: إن أميرة إنطاكية كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال التي يؤثرها [2] علمها. أما أبو شامة فيقول: وكانت امرأة أبرنس

(١) أبو شامة، النوادر السلطانية، ص ١٢، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧.
(٢) د. سلامة محمد الهرفي البلوي، دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية، ص ٦٧.

إنطاكية وتعرف مدام سيبل في موالاة السلطان، عيناً له على العدو، وتهاديه وتناصحه، وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا [١].

إن من أسباب الانتصار في حطين إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام جنّب صلاح الدين المفاجآت العدوانية من الصليبيين وقد كتب صن تزو، مشيراً لأهمية ذلك: إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل معركة [٢] وقد انعكست عبقرية صلاح الدين في إيجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الصليبيين بحيث كانت أخبارهم وتحركاتهم تصل إليه بسرعة، وباستمرار [٣].

١٢ ـ الأسباب التي تعود إلى الصليبيين:

كان الصليبيون في معركة منقسمين على أنفسهم في هذه المعركة، فبينما يرى القونص صاحب طرابلس عدم القتال في المكان الذي اختاره صلاح الدين ينبري له أرناط صاحب مملكة الكرك بالاتهام بالجبن والتواطؤ مع المسلمين، والدعاية لهم بقوتهم ويتهمه بأنه يلاين المسلمين لأن زوجته حاصرها صلاح الدين والمسلمون في قلعة طبرية ولهذا نجده ما إن وجد فرصة للهروب

---

(١) عبد الفتح عاشور، حطين وقائع وعبر، ص ٤٥.
(٢) عبدالله على السلامة مناصرة، الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص ٣١١.
(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص ١٥٣، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

هرب ومن معه من أرض المعركة وتركهم في أصعب ساعات القتال، كما ترك زوجه في هذا الوضع الحرج.

لقد وقعوا في الحيلة التي وضعها صلاح الدين عن غباء وعلم بها، وقد نبههم إليها قونص طرابلس.

الروح المعنوية التي انهارات من حرب الاستنزاف وفي بداية المعركة والمعارك السابقة التي وجدوا أنفسهم أمام المسلمين، أقوياء الشكيمة لا قدرة لهم على دفع الهزيمة والأذى.

فسق هؤلاء الصليبيين وفجورهم وانتشار الدعارة فيهم، وأن قسماً كبيراً منهم جاء للنهب والسلب والسفك ظلماً إنهم لا أخلاق لهم، والنصر منهم بعيد على المؤمنين الموحدين المجاهدين

وفي هذا يقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: ومما يلفت النظر أن هؤلاء الغزاة لا أخلاق لهم، وليس عندهم قيم، بل كانوا فجرة أشراراً منحلين فاسقين، وهؤلاء أعداء الحضارة وقتلتها، إذا لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان والدعار والراهبات العواهر [١].

كلمة أخيرة:

يقول أبو الحسن الندوي:... ماذا كان سّر انتصار صلاح الدين الأيوبي الانتصار الباهر الذي حيَّر العالم، وغيَّر مجرى التاريخ؟ إنما السَّرُّ أنه كان مسلمًا مؤمنًا محمديًّا لا يعرف غير لغة القرآن، ولا

(١) حضارة العرب، ص ٣٢٨.

يعرف غير لغة الإيمان، ولا يعرف غير لغة الجنان والمسلمون ما زالوا ولا يزالون... إن المسلمين إلى هذا الوقت وإن كانت المادّية الرعناء، والتربية العصرية قد فعلتا فعلتهما فهم لا يفهمون غير لغة القرآن إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومهما تعددت لغاتهم، ومهما فاق ذكاؤهم، ومهما فاقت ألمعيتهم، وعبقريتهم إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمد عليه الصلاة والسلام الذي آمنوا به كنبيٍّ خالد وكرافع علم الجهاد المقدس، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن أيها الإخوان لا بلغة السياسة، أثيروا فيهم الحنان، والإيمان، بكلمة الجهاد، بكلمة الحنين إلى الشهادة، إنهم لا يزالون يحسنون فيهم هذه اللغة إنما كان سر سيطرة صلاح الدين على القلوب والأرواح في أنَّه فهم هذا السر. إن المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد، فجمع تحت رايته الإيمانية أشتاتاً من القيادات، وضروباً وأنواعاً من الشعوب واستطاع أن يوحَّد كلمة العالم الإسلامي الممزَّق المتشتت، المنقسم على نفسه، وكيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي الذي تعدَّدت عناصره وتعدَّدت ثقافاته وتعَّددت مذاهبه الفقهية، كيف استطاع أن يوحَّد العالم الإسلاميَّ في هذه الفترة الحالكة العصيبة تحت راية محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرفع راية القومية العربية، اسمحوا لي أن أقول: أنا هندي الأصل، أنا هندي الثقافة، أنا رجل ولدت ونشأت في الهند ولكن أؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وأومن بالقرآن إنّ هناك قلوباً تعدُّ بالملايين، تهفو، وتصبوا إليكم، وتستهين في سبيلكم بأجسامها وحياتها وسلامتها، إن مذبحة كبيرة وقعت في الهند في أحمد آباد في مدة قريبة، وماذا كان السبب؟ ذلك لأجل التجمع الإسلامي.

الكبير الذي حصل تأييداً لقضية فلسطين، إنما وقعت هذه المجزرة ووقع هذا الاضطراب الطائفي الهائل لأن المسلمين في أحمد آباد تجمَّعوا على بعد الدار، وحيلولة البحار، وعدم معرفتهم للغة العرب، تجمعوا هذا التجمع الخالد التاريخي ليدافعوا عن قضية فلسطين، وذلك برهان ساطع على أن هنالك قلوباً مخلصة لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى قلوب مؤمنة صادقة لا تعرف لغة السياسة، ولا تعرف لغة اللياقة، إنما تعرف الإيمان، إنما تعرف الحنان إنما تعرف لغة القرآن الكريم، فأنتم تملكون ثروة لا تملكها أمريكا ولا تملكها روسيا، تلك ثروة الإيمان، تلك ثروة الإيمان الدافق،... إن هذه الثروة موجودة ولكنها تحتاج إلى إثارة تحتاج إلى تحريك، تحريك صادق مؤمن [1].

حَيِّ الأَشاوسَ مِنْ كُرْدٍ ومنْ عَرَب ::: في يوم (حطينَ) رمزِ النصرِ في الحِقَبِ
ذُلُّ الصَّليب صَلاحُ الدينِ حَقَّقَهُ ::: وعِزَّةُ الحقِّ لا تَخْبو على النُّوَبِ
جيشُ الفَرَنْسيسِ والطُّليانِ رايتُهُ ::: تحتَ السنابكِ يومَ الروْعِ والغَلَبِ
وتاجُ (بطرسَ) في الأوحالِ منغمسٌ ::: والطيلسانُ يجرُّ الخِزْيَ عَنْ كَثَبِ
سَلاسلُ الجندِ لم تَدْفَعْ هَزيمَتَهُمْ ::: فجَرْجَروها وهمْ ماضونَ في الهَرَبِ
فقدرةُ الله أَقْوى مِنْ سوابغِهِم ::: وسيفُ إسلامِه ما كانَ من خشَبِ
تَدحرجَ الهامُ في (حطينَ) مقبرةِ ::: المستعمرينَ ذَوي الأَطْماعِ والرَّغَبِ
ما جاء يوماً إلى (حطينَ) مغتصِبٌ ::: إلا وعادَ هَضيماً جنْحُ مُغتَصِبِ
صَهيونُ سوفَ تَرى من بأْسِ مُسْلِمِنا ::: ما يُذْهِلُ الأُمَّ عن إرضاعِها لِصَبِي
حتّى تكلِّمَنا الأَشجارُ قائِلةً هذا ::: اليَهوديُّ خَلْفي يا أُولي القُضُبِ
بذاكَ بَشَّرنا المختارُ (أَحمدُنا) ::: والمُصطفى صادقُ الآياتِ لم تَخِبِ

* * *

(١) محاضرات في الفكر والدعوة، ٢/٢٢٧، ٢٢٨، نقلا عن صلاح الدين للصلابي، ص ٤٧٩.

يا يوم وقعةِ (حِطّينَ) الذي شَهدتْ	:::	لهُ الأَعادي وأَحْنَتْ هامةَ الغَلَـــب
لقد تركتَ فؤادَ الغــرْب مُتَّقِــداً	:::	بجَمْرِ حِقْدٍ على الإسلامِ مُلْتَهِــب
عـــارُ الهزيمـــةِ لا تُمحـــى مَذَلَّتُـــهُ	:::	وإنْ تَطَاوَلَ مَنْ يَجْثو على الركَب
عـــادَ الفَرنســـيسُ والسكْســـونُ	:::	يدفَعُهمْ حِقْدٌ قَديمٌ على الإسلامِ والعَرَب
لكنهمْ رَجَعوا عنْ أَرضِنا هَرَبا مِـــنْ	:::	ثَورَةِ الشعبِ من نـــافورةِ اللَّهَـــب
لم تُجْدِهِمْ طائراتٌ في أَعِنَّتِها ذوبُ	:::	الجَحيمِ وإرصـــادٌ مِـــنَ الشُّـــهُب
لم تُغْنِ عنْهم أَســـاطيلٌ مدجَّجَـــةٌ	:::	ولا جنـــازيرُ دبّابـــاتِ مُحْتَـــرِبْ
في حرِّ إيماننـــا ذابـــتْ مـــدَافِعُهم	:::	وقُدرةُ اللهِ فوقَ الشَّـــكِّ والرِّيَـــب
مِنْ يومِ (حَطّينَ)مِنْ أمجـــادِ دولتِنـــا	:::	نَسْتَلْهِمُ النَّصْرَ مِنْ آبائِنا النُّجُـــب
عاشوا وماتوا لأَجلِ الدين يدفعُهم	:::	حُبُّ الشهادةِ أن يَسْعَوا إلى القُضُب
قَد أَنْصبوا في سبيلِ اللهِ أَنفُسَـــهم	:::	وأَرْخَصوا كلَّ ما حازوا مِنْ النَّشَب
لم يُغْرِهِمْ زُخرُفُ الـــدنيا وزينَتُهـــا	:::	ولا اسْتَكانوا إلى لَهْـــو ولا لَعِـــب
السيفُ صاحِبهُم والرمحُ سامِرُهُمْ	:::	والقوسُ رائِدُهم في وقْعَةِ الرَّهَـــب
كانتْ أُخـــوَّتُهم نـــبراسَ عِـــزَّتِهمْ	:::	تَفوقُ رابطةَ القُربَـــى أَو النَّسَـــب
وكان إيثارُهُمْ بين الـــوَرَى عَجَبـــاً	:::	يَرتْابُ في صِدْقِهِ الرّاوي مِنْ العَجَب
وكان إيمانُهم طَوْداً تَمُرُّ بهِ أَعْـــتى	:::	العَواصِفِ لا تَقَوى على الغَلَـــب
وكان رائدَهمْ في الخَـــيرِ قائِـــدُهم	:::	مُحَمدُ الُمصْطفى مِنْ أُمَّـــةِ العَـــرَب
فحرَّروا النـــاسَ مَـــنْ رقٍّ ومِـــنْ	:::	عَمَهٍ وأخرَجَوهم إلى الأنوارِ مِنْ حُجُب
ولن يَعـــودَ لنـــا مـــاضٍ وعِزتُـــهُ	:::	إلا بَعَوْدتِنـــا لـــلآيِ والكُتُـــب
حتّى نُعيـــدَ إلى الـــدنْيا سَـــعادتَهَا	:::	وَيَرْفُلَ الكونُ في أَثوابِـــهِ القُشُـــب

نتائج معركة حطين:

١ - معركة فاصلة وحاسمة: توصف معركة حطين، بأنها معركة فاصلة وحاسمة، لأننا نلاحظ أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية في المنطقة، ففي أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى

فتح مدن الساحل الشامي، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ذات المنعة والحصانة، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامي الذي طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود بري حبيس، وهكذا تساقطت مدن عكا، ويافا وصيدا وبيروت، وجبيل وعسقلان وغيرها، والواقع أن من يطالع نصوص المصادر التاريخية لذلك العصر تتملكه الدهشة من موجة سقوط المدن الصليبية بصورة غير مسبوقة عكست التفوق العسكري الساحق للمسلمين ضد أعدائهم، كما تهاوت القلاع الصليبية التي طالما أغارت على مناطق المسلمين، وأحالت حياتهم أحياناً إلى جحيم، ومن أمثلة القلاع التي تهاون أما فعاليات الجيش الأيوبي نذكر طبرية، صفد، هونين، تبنين، بغراس، دربساك، حجر شغلن، القصير، وغيرها كثير ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبي [١].

٢ ـ بداية النهاية للوجود الصليبي: كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية، حلّت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية، شهدها العالم في العصور الوسطى، كما شكّلت حداً تراجع عنده المدُّ الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي وبداية النهاية للوجود الصليبي، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى؛ لتؤكد

(١) د. محمد مؤنس، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، الصلابي، صلاح الدين، ص ٤٨٣.

أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار. لقد أسست حطين بداية جديدة لموازين القوى وأكدت أن قوة الفرنج يمكن أن تقهر وقد كشفت الدراسات التاريخية الحديثة التي بحثت تفاصيل تلك المرحلة أن معركة حطين انتهت بانتصار صلاح الدين لكنها لم تقتلع نهائياً وجود الفرنج، فهي استراتيجياً معركة فاصلة بين حدين أي أنها ختمت مرحلة التراجع والهزائم وأسست مرحلة الانتصارات والتقدم وشقت الطريق الطويل والصعب الذي شهد الكثير من الصعود والهبوط والهجوم والهجوم المضاد إلى أن تم خلخلة مواقع الفرنج وتفكيك ممالكهم وطردهم من المنطقة [(١)].

٣ - ارتفاع قدر صلاح الدين: فقد كانت معركة حطين من الأسباب التي رفع الله بها صلاح الدين وأصبح في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود وقد كان لهذا النصر صدى بالغ في نفوس المسلمين بعامة وأهالي دمشق بخاصة؛ لأن دمشق كانت آنذاك مركزًا أعماله ومقَّره وفيها قضاته وكُتّابه، الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله، وقائمين يدعون له بالنصر على أعدائه ولما علموا بالانتصار، عبَّروا عن فرحهم بالدموع والكلمات المؤثرة التي تضمنت عبارات الشكر والحمد لله [(٢)].

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر، ص ١٥٣.
(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر، ص ١٥٤، الصلابي، صلاح الدين، ص ٤٨٤.

٤ ـ معركـة حطـين مفتـاح بيـت المقـدس: كانـت معركـة حطـين معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقي فلسطين، وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: كانـت وقعـة حطـين مفتـاح الفتـوح الإسـلامية وبهـا تيسـر فـتح بيـت المقدس، وعدّها حلقة وسط بين فتوحات نور الدين محمود وركن الـدين بيبـرس البنـدقاري منـذ وفـد ملـوك الفـرنج الـبلاد السـاحلية، واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله الملك الناصر، وقدّس روحه، فلم يؤيِّد الإسلام بعد الصحابة رضـي الله عنهم، برجل مثله ومثل نور الدين محمود بن زنكي، رحمة الله عليهمـا، فهمـا جدّدا الإسـلام بعد دوسـه، وشـيَّدا بنيـان التوحيـد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس، وكان أمره أعجب، إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية، وأيس الناس أن لا انتعاش للمّلة فبّدد شمل التتـار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية.

٥ ـ أهمية الوعي الجغرافي: أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامـل بضـرورة توظيـف معطيـات الموقـع الجغرافـي للشـرق الإسلامي، واستثمار ميزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية، ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلَّت أهمية أرض فلسطين التي تُعُّد بمثابة الجسر أو المعبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر [١].

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر، ص ١٥٤، الصلابي، صلاح الدين، ص ٤٨٤.

٦ - هيبة صلاح الدين ممزوجة بالإعجاب والإجلال: غدا لاسم صلاح الدين بعد الانتصار، من الرهبة في قلوب، الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال، نظراً لما اتصفت به فتوحات من النُّبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه معهم، وحسن معاملته لأسراهم، أثر كبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تُذكر. والواقع أنه أظهر رحمة وفروسية كبيرتين في تعامله مع الصليبيين، وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر وتجنبت ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة في ذلك الوقت، ففي معرض الحديث عن مروءة صلاح الدين لزوجات وبنات الصليبيين. كتب أرنول: لقد أعطهَّن الكثير لدرجة أنهن حمدن الله، ونشرت في الخارج الكثير عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين. كما أكرم إسكيفا، زوجة ريموند الثالث، فسمح لها بأن تخرج من قلعة طبرية بالأمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها وسارت إلى طرابلس، وكان بالبان الإبليني من بين الأمراء الناجين، وكانت زوجته وأولاده في بيت المقدس، فسمح له صلاح الدين بالذهاب إلى المدينة لإخراج زوجته وأولاده، واشترط عليه ألا يبيت فيها أكثر من ليلة واحدة. ولقد وقف الغرب الأوروبي وبخاصة فرنسا موقف الإعجاب والمدح لصلاح الدين، حتى تحَّول في المؤلفات الأدبية الأوروبية إلى ما يشبه الأسطورة التي خرجت عن إطار التاريخ الواقعي والموضوعي وقد أضاعت خسارة الصليبيين في حطين هيبة مملكة بيت المقدس وبخاصة بعد أن أُسر ملكها جاي لوزينان ونقص عن المعركة نقص ملموس في الفرسان المحاربين،

بعد أن سقط معظم فرسان الصليبيين، وغالبية جيش بيت المقدس بين قتلى وأسرى: فمن شهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل [١].

٧ - الجهود التراكمية التي سبقته: لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج العسكرية التي حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية امتدت على أكثر من قرن إلى أن بدا قطفها وثمارها في عهدي عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي والأخير يعتبر المؤسس الحقيقي للتحولات الكبرى التي شهدتها بلاد الشام ثم مصر، فقد عرف نور الدين محمود بانتظاراته العسكرية وأعماله الإصلاحية الإحيائية وإنجازاته الشرعية، فقد اشتهر ببناء المدارس ومعاهد التربية والتعليم، واهتم بالقضاء وبتشييد المساجد والحصون ونشر العلم في حلب ودمشق ومختلف مدن الشام وفي عهده استعاد القضاء دوره الشرعي والتاريخي وبنى دار للعدل وشجع العلماء والفقهاء على لعب دورهم في الإعداد النفسي للقوات وتبليغ الرسالة وتعليم أصول اللغة والفقه والحديث لقادة جيوشه. وفي هذه الأجواء العلمية تلقى صلاح الدين دروسه وتربيته الدينيه فتعلم على يد المحدث أحمد بن محمد الأصبهاني، والواعظ علي بن إبراهيم بن نجا، ونجم الدين الحبوشاني، وهؤلاء جزء من الفقهاء والعلماء الذين أشرفوا على تربية الجيل الثالث من القيادات السياسية والعسكرية الذي كان له

---

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر، ص ١٥٥، الصلابي، صلاح الدين، ص ٤٨٥.

شرف إنزال الهزائم بقوات الفرنجة بعد مئة سنة من المواجهات المتقطعة، فصلاح الدين لم يصنعه نفسه، بل وفقه الله تعالى - ثم هو نتاج تاريخي وموضوعي لسياق من التقدم بدأ مع بدء الحركة الإصلاحية الدينية[١]، التي تزعمها نظام الملك في عهد السلاجقة والتي كان من رموزها الإمام الجويني، وأبو إسحاق الشيرازي والغزالي وغيرهم، ولقد آتت تلك الجهود ثمارها والتي كان من أهمها معركة حطين وفتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين[٢].

فتح بيت المقدس:

تعتبر " حطين " معركة حاسمة في تاريخ الحرب الإسلامية الصليبية، إذ فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسية في هذه المعركة، كما تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي وأضحى القائد المنتصر في هذه المعركة، على الصليبيين: صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره، وبعد حطين لم يعد للصليبيين في المملكة المقدسة خصوصاً، قوة يتباهون بها، لذا، ما إن استسلمت عسقلان وغزة لصلاح الدين في أيلول/سبتمبر من العام نفسه، حتى قرر صلاح الدين أن ينطلق بجيشه الذي أعاد جمعه من كل المنطقة في جنوب فلسطين، حيث كان قد نشره منذ سنوات ليستكمل توحيد بلاد الشام وما إن اتجه بهذا الجيش شمالاً نحو القدس لفتحها عنوة وبالسيف، حتى بدأت مدينة القدس تستعد لمقارعة القائد المسلم الذي جاء يتحدى مناعتها وجبروتها بعد ثمانية

(١) صلاح الدين الأيوبي وسقوط القدس وتحريرها ص ٧٩، ٧٨.
(٢) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٨٦.

وثمانين عاماً من احتلال الصليبيين لها [١].

وفي ذلك الوقت كان عدد المقاتلين الصليبيين في القدس " يزيد على ستين ألفاً " من الخيالة " عدا النساء والصبيان "، ويبدو أن عدد سكان المدينة، وبالتالي عدد المقاتلين فيها قد ازداد بسبب توافد اللاجئين إليها من المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، والتي تعرضت للأخطار خلال الحرب الإسلامية الصليبية، ويذكر " رنسيمان " أن معظم هؤلاء اللاجئين لم يكن يتقن فن القتال، وكان الرجال فيهم قلة ضئيلة إذ كان مقابل كل رجل " خمسين امرأة وطفل "، ولم يكن في المدينة سوى " فارسين اثنين " مما حدا بباليان إلى أن " ينصّب فارساً، كل صبي تجاوز السادسة عشر من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة " ثم جنّد كل الذكور الذين بلغوا هذه السن، ووزع الأسلحة على كل من استطاع أن يحمل السلاح، ونشر المقاتلين على الأسوار وفي الحصون، ونصب المجانيق، وحفر الخنادق، يقول أبو شامة في ذلك: ونصبوا " الصليبيون " على كل نيق منجنيقاً، وحفروا في الخندق حفراً عميقاً، وشادوا في كل جانب ركناً وثيقاً، وفّرقوا على كل برج فريقاً، إلا أن ابن الأثير يخالف رنسيمان في عدد الفرسان الذين كانوا في القدس قبل تجنيد الصبية النبلاء وتنصيبهم فرساناً، فيذكر أنه كان في القدس " من خلُص " من فرسان الصليبيين " في حطين " وأن خلقاً كبيراً اجتمعوا في المدنية، من أهل تلك النواحي، عسقلان وغيرها، وقد صعد الجميع على الأسوار بحّدهم وحديدهم، حيث نصبوا المجانيق وحصّنوا تلك

(١) د. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٩٤.

الأسوار، بما وجدوا إليه سبيلاً [١].

وكان صلاح الدين قد سعي لتكوين جبهة إسلامية موحدة تضم مصر وبلاد الشام وأجزاء من العراق، قبل منازلة الصليبيين في عقر دارهم، وإنزال ضربة قوية بهم، كما حدث في معركة حطين. وتلا ذلك مسيره إلى مدن الساحل الشامي لإضعاف الصليبيين ماديًّا ومعنويًّا. ولو اتجه صلاح الدين عقب انتصاره في حطين إلى بيت المقدس لتمكن من دخوله بدون عناء، إلا أن استيلاءه على بيت المقدس قبل السيطرة على مدن الساحل لن يضمن له الاستقرار التام في بيت المقدس، إذ كان من المتوقع قيام الغرب الأوروبي بإرسال الجيوش الصليبية إلى موانئ الشام، ومجيء فرسانه زرافات ووحدانا، والدخول مع صلاح الدين في معارك حامية لاسترداد بيت المقدس الذي به كنيسة القيامة لاعتقادهم الباطل أن فيها صلب المسيح، وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت وقام الصليب، وبفضل الله ثم تلك الخطة العسكرية التي نفذها صلاح الدين بسيطرته على الشريط الساحلي، عزل بيت المقدس ومنع وصول الإمدادات إليه وقطع كل أمل للصليبيين سواء في الغرب الأوروبي أو في بلاد الشام في الوصول إلى بيت المقدس، وإنقاذه من جيوش المسلمين، ولما استرد صلاح الدين من الصليبيين عسقلان وغيرها من البلاد، المحيطة ببيت المقدس، وضمن بذلك أحكام العزلة على مملكة بيت المقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد

(١) د. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٩٤، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٨٦.

وعزم على قصد بيت المقدس، فأصدر أوامره واجتمعت عليه جميع العساكر الإسلامية التي كانت متفرقة في الساحل[١].

ومن ناحية أخرى فقد استدعى صلاح الدين القوات المصرية أثناء قيامه بالاستيلاء على الساحل لمساعدته في الاستيلاء على المدن والقلاع الجنوبية واجتمع بابنه الملك العزيز عثمان في عسقلان فقرت به عينه واعتضد بعضده، ويبدو أن صلاح الدين على الرغم من سيطرته التامة على مدن وموانئ الساحل الشامي كان يتخوف من هجوم صليبي من الغرب، أثناء تقدمه إلى بيت المقدس، لذلك أمر الأساطيل المنصورة بالمسير للمشاركة في الجهاد، فسارت إليه من مصر يتقدمها الحاجب لؤلؤ وأخذت تجوب البحر وتقطع الطريق على سفن الصليبيين ومراكبهم في الوقت الذي كانت فيه الإمدادات تصل من مصر إلى الشام براً وبحراً بكل سهولة وعندما علم صلاح الدين بأن مدينة بيت المقدس قد أخذت قسطاً وافراً من التحصين، لما تتمتع به مكانه عظيمة في نفوس الصليبيين حرص على إحضار أدوات الحصار الكافية لاقتحام أسوارها ذات الأبراج العالية، فأحضر معه المنجنيقات والعرادات والنفاطات والقطاعات وعدد النقوب وغيرها من الأدوات اللازمة لدك الأسوار ونقبها ثم جشو تلك النقوب بالحطب والنفط وإشعال النيران فيها، لفتح ثغرات في الأسوار يمكن من خلالها اقتحام الأسوار ودخول المدينة [٢].

---

(١) د. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ٩٤، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٨٦.

(٢) عبدالله الغامدي، صلاح الدين والصليبيون ص ٢١٠، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٨٧.

وكان الصليبيون قد بدؤوا القتال قبل تمركز جيش المسلمين حول أسوار المدينة، عندما تقدمت مفرزة من طليعة الجيش الإسلامي نحو الأسوار بقيادة الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرازي فخرجت إليها مفرزة من حامية المدينة فقاتلتها وهزمتها، وقتلت أميرها، وقد حدث هذا قبل أن يتمركز صلاح الدين بجيشه في الجانب الغربي من السور ومهما يكن من أمر فقد بدأ صلاح الدين قتاله الفعلي ضد العدو المتحصن داخل أسوار المدينة، فتقدم بجيشه نحو الأسوار بغطاء كثيف من المدفعية التي كانت سائدة في ذلك العصر " وهي المجانيق " وتقدم أيضاً النقّابون الذين بدأوا ينقبون في السور ودار القتال عنيفاً بين الفريقين وقد قتل في هذه المعركة من الفريقين الكثير واستمر القتال عنيفاً بعد ذلك، وقد كان تفوق صلاح الدين في المدفعية إلى درجة أن سقوط المدينة كان حتمياً، وأن النقابين العاملين تحت غطاء من حجارة المجانيق نجحوا في فتح ثغرة في جدار السور، واستطاع المهاجمون فتح " ثغرة كبيرة " في السور نفذ منها المسلمون ورفعوا راياتهم عليه، إلا أن المدافعين ما لبثوا أن احتشدوا وردوا المسلمين عن السور، ورغم ذلك فقد أيقن المدافعون أن لا جدوى من دفاعهم، وأنهم مشرفون على الهلاك، بل إنهم هالكون حتما إن هم استمروا في عنادهم.

وبعد أن أيقنوا أنه لا جدوي من الحرب اتفق الصليبيون على إرسال الرسل بطلب الأمان مقابل تسليم المدينة لصلاح الدين، وامتنع صلاح الدين عن إجابتهم إلى ذلك وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل

والسبي وجزاء السيئة بمثلها، فلما أعاد صلاح الدين رسل الصليبيين خائبين محرومين اجتمع الصليبيون مرة أخرى داخل بيت المقدس، وحاولوا القيام بهجمات مفاجئة ضد المسلمين ولكن البطريرك هرقل اعترض على ذلك وأوضح لهم أنهم لو فعلوا ذلك فإنهم سيسوقون نساءهم وأطفالهم إلى العبودية، وحرضهم على طلب الأمان من صلاح الدين، فأرسل باليان دي أبلين إلى صلاح الدين طالباً الأمان لنفسه، ليحضر عنده للتفاوض، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحضر باليان عنده وسأله الأمان للصليبيين، فأصر صلاح الدين على فتح المدينة بالسيف، فلما يئس باليان من ذلك أراد - أن يستثير عطف صلاح الدين بالتهديد بقتل النساء والأطفال وأسرى المسلمين، حيث قال له: أيها السلطان أعلم أننا في هذه المدينة خلق كثير لا يعلمه إلا الله، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ولنحرقن أموالنا وأمتعتنا ولا نتركّكم تغنمون منها ديناراً واحداً ولادرهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء ونظفر كراما واستشار صلاح الدين أصحابه، فأوضحوا له أنه يكفي للبر بقسمه أن يستولي على بيت المقدس بحد السيف أن تستسلم المدينة بشروط كأنها سقطت بالقتال، وفي هذه الحالة يعتبر سكان المدينة أسرى حرب، فأجابهم صلاح الدين إلى

الأمان مقابل تسليم بيت المقدس ووافق على مغادرة الصليبيين المدينة مقابل فداء يدفعونه، فجعل على الرجل عشرة دنانير يستوي في ذلك الغني والفقير وعلى المرأة خمسة دنانير. ووافق صلاح الدين على أن يدفع باليان مقابل إطلاق سراحهم، مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثون ألف دينار، وحدد صلاح الدين لباليان مدة أربعين يوماً، فمن أدى فديته خلالها أطلق سراحه، ومن بقي بعدها صار مملوكاً، وسلمت المدينة يوم الجمعية ٢٧ رجب ١٢/٥٨٣ أكتوبر (٦) ١١٨٧م.

وذكر أبو شامة نقلاً عن العماد في البرق الشامي أن الصليبيين عقب توقيع اتفاقية التسليم، شرعوا في إخلاء البيوت، وبيع ما ادخروا من الأثاث والأقوات بأرخص الأثمان، وكان خروجهم شبيهاً بالمجان لاسيما ما تعذر نقله وصعب حمله، وكانوا كا قال الله تعالى:{كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾} [الدخان: ٢٥ - ٢٨] (١).

وفي نهاية المطاف تم الاتفاق بين صلاح الدين وباليان على تسليم المدينة وفقاً للشروط التي ذكرنا، ودخلها صلاح الدين: يوم الجمعة في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ وذلك بعد أن أعطى بالباب الأوامر لحاميتها بإلقاء السلاح والاستسلام لجند المسلمين، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة المقدسة، وقد استمر حصار صلاح الدين للمدينة اثني عشر يوماً، وبسقوط القدس،

(١) عبدالله الغامدي، صلاح الدين والصليبيون ص ٢١٥، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٨٨.

انهارت أمام صلاح الدين معظم المدن والمواقع التي كانت لا تزال تحت سيطرة الصليبيين في معظم أنحاء بلاد الشام ودخل صلاح الدين القدس في ٢٧ رجب وكانت ليلة الإسراء، فأمر بأن يوضع على كل باب من أبواب المدينة أمير من أمراء الجيش لكي يتسلم الفدية من الصليبيين الخارجين من المدينة ويحتسبها وكان في المدينة على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان [١].

وأما صلاح الدين فإنه بعد أن استقر له الحكم في المدينة المقدسة، أمر بإعادتها إلى ما كانت عليه قبل احتلالها من الصليبيين، وكان هؤلاء قد أقدموا على تغيير الكثير من المعالم الإسلامية للمدينة، فزرعوا صليبًا كبيراً مذهباً على رأس قبة الصخرة، وأمر صلاح الدين بكشفها، وكان فرسان الداوية قد بنوا مباني لهم غرب المسجد الأقصى لكي يسكنوها، وأنشاؤوا فيها " هُري ومستراح وغير ذلك " وأدخلوا قسماً من هذا المسجد في أبنيتهم، فأمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم، كما أمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس، ثم عين إماماً للمسجد الأقصى وأقام فيه منبراً، ومحا ما كان فيه وفي الأبنية المجاورة من صور كان الصليبيون قد وضعوها أو رسموها وأعاد المسيحيين الوطنيين من أهل القدس إلى مساكنهم كما سمح لهم بشراء ما أراد الفرنج بيعه من

(١) د. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي، ص ١٠٦، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٨٨.

ممتلكات ومتاع وأموال [1].

وفي الحقيقة لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من المسلمين فقد وفي صلاح الدين بوعده فسمح لمن دفع القطيعة بالخروج وكان قد رتب على كل باب أميراً مقدماً كبيراً يحصر الخارجين، فمن دفع الفدية فقد خرج، وبالرغم من تلك القطيعة الزهيدة التي فرضها صلاح الدين مقابل خروجهم من بيت المقدس، وتأمين وصولهم إلى مأمنهم، فإن كثرة كثيرة منهم، لم يستطع دفعها فداء لنفسه، وأصبح بعد مضي أربعين يوماً أسيراً في أيدي المسلمين ولم يسهم أحد من أغنياء الصليبيين من فداء فقرائهم، فقد خرج البطريرك هرقل من بيت المقدس بخزائنه الضخمة دون النظر إلى غيره، ويبدو أن ذلك كان سبب انعدام الروابط الأسرية وغيرها بين الصليبيين في ذلك الوقت، فالأسرى كانوا خليطاً من أجناس وشعوب أوروبية متباينة، وأجناد الغرباء المأجورين الذين رغبوا في السفر إلى الشرق تخلصاً من رق الأرض السائد وقتذاك في المجتمع الأوروبي.

والخلاصة: أن ذلك الموقف المخزي من كبار الصليبيين، وتلك الشهامة وذلك التسامح من صلاح الدين قد أجبر الكاتب الإنجليزي لين بول على إبداء إعجابه بصلاح الدين حيث قال بعد أن تهجم على البطريرك " : إنها كانت فرصة للملك المسلم أن يعلم المسيحيين معنى التسامح [2]، وقد برهن صلاح الدين وغيره من أمراء المسلمين على تلك الشهامة والتسامح عندما أصبح آلاف من المدنيين

---

(١) د. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ١٠٨.
(٢) عبدالله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون ص ٢١٦.

الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية المقررة أسرى في يد صلاح الدين، فطلب الملك العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين يطلب منه أن يهب له ألفاً من أولئك الصليبيين الفقراء ليطلق سراحهم لوجه الله، وأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحرك ذلك العمل الإنساني الذي قام به الملك العادل مشاعر البطريرك وباليان فتقدما إلى صلاح الدين وطلبا منه مثل ذلك، فأعطاها صلاح الدين ما طلباه وأطلق سراحهم ثم تقدم صلاح الدين وأمر حراسه بالمناداة في شوارع بيت المقدس، بأنه سوف يطلق سراح من لم يستطع دفع الفدية من الصليبيين لكبر سنه وأن على على هذه الطائفة أن تتقدم من الباب الخلفي للمدينة ويسمح لها بالخروج من طلوع الشمس إلى الليل. وما أن صدر ذلك الإعلان حتى توافد الصليبيون على ذلك الباب بأعداد لا تحصى، وطلب أمير البيرة إطلاق سراح زهاء خمسمائة أرمني، ذكر لصلاح الدين إنهم من بلده، وإن قدومهم إلى بيت المقدس كان من أجل العبادة هناك، كما طلب أيضاً الأمير مظفر الدين على كوجك إطلاق سراح زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرها، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك وأطلق سراحهم، ولم يقتصر ذلك التسامح من المسلمين على ما قام به صلاح الدين وأخوه الملك العادل وكبار الأمراء المسلمين، بل تعدى ذلك إلى عامة المسلمين، والواقع أن صلاح الدين قد أبدى من التسامح وكرم الأخلاق تجاه أسرى الصليبيين في بيت المقدس الشيء الكثير. وبلغ من كرم وشهامة صلاح الدين بما قام به تجاه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين، الذين قتلوا وأسروا أثناء معاركهم مع صلاح الدين، فقد تجمعن أمام صلاح الدين يبكين،

فسأل عن حالهن وما يطلبن، فقيل له: إنهن يطلبن الرحمة، فعطف عليهن صلاح الدين وسمح لمن كان زوجها على قيد الحياة بأن تتعرف عليه وأطلق سراحه وسمح لهم بالذهاب حيث يريدون، أما النساء والبنات اللاتي مات أزواجهن وآبائهن فقد أمر صلاح الدين بأن يصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن ومركزهن وأعطاهن حتى ابتهلت ألسنتهن بالدعاء له [١].

وقد احترم صلاح الدين مشاعر المسيحيين، فعندما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله بيت المقدس بهدم كنيسة القيامة، وإزالة آثارها وقالوا: إذا هدمت بنايتها، وألحقت بأسافلها أعاليها ونبشت المقبرة وعفيت، وأخمدت نيرانها وأطفيت ومحيت رسومها ونفيت، انقطعت عنها إمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة. بينما أشار عليه البعض بأنه: لما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان، فأعرض صلاح الدين بتسامحه عن هدمها [٢].

ولما تضرع بعض النصارى إلى صلاح الدين ليسمح لهم بالبقاء داخل بيت المقدس بعد أدائهم الفدية المقررة عليهم، وتعهدوا له بألا يزعجوا أحداً، وأن يقوموا بالخدمة بالمدينة، فوافق صلاح الدين على ذلك واشترط عليهم شروطاً قابلوها بالالتزام والقبول، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعوملوا معاملة أهل الذمة، فأصبح

(١) عبدالله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص ٢١٨.
(٢) عبدالله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص ٢١٨.

لهم ما للمسلمين وعليهم من الحقوق والواجبات، وأبدى المسلمون الرحمة نحو المدينة التي سقطت في أيديهم وإذا استعاد الإنسان ذكرى دخول الصليبيين بيت المقدس سنة ١٠٩٩م عندما نشر جود فري وتانكرد الموت في الشوارع وعندما أغرق المدافعون المسلمون وأحرقوا والقوا في بحار من الدماء، حيث كان الصليبيون يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى، فضلاً عما قاموا به من نهب وسلب وسبي، فإنه يدرك الفرق الشاسع بين تسامح صلاح الدين ووحشية القادة الصليبيين، إذ يتضح مدى تمسك صلاح الدين بمبدأ التسامح وأحكام الشريعة الإسلامية السمحاء وبعده كل البعد عن تحكيم عواطفه وأهوائه تجاه الصليبيين الذين لم يمض على ارتكابهم تلك الجريمة الشنعاء قرن من الزمان [١].

يقول جيمس رستون: وهكذا سلك جنود صلاح الدين سلوكاً مثالياً في احتلالهم للقدس سنة ١١٨٧م وقد نظر صلاح الدين لنفسه وسمعته بعد الانتقام لما فعله الصليبيون في الحرب الأولى سنة ١٠٩٩م وبسبب حمايته لكنيسة القيامة وأماكن مسيحية أخرى كثيرة، سيتذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى، وتجاه الأماكن المقَّدسة للدين المسيحي ويبدو أن أفعاله اعتُبرت عَلَما ونموذجاً على كيفية سلوك المسلك الصالح، فبسبب عفوه، ووجوه الخير، المتعددة في طبيعته، وسلوكه تجاه أعدائه، سيظل مشهوراً إلى الأبد باللطف والتسامح والحكمة [٢]

---

(١) عبدالله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص ٢١٩.
(٢) جيمس رستون الابن، مقاتلون في سبيل الله، نقله إلى العربية رضوان السيد، مكتبة

وقال ستيفن رنسيمان: الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج، ومنذ ثمان وثمانين سنة، يخوضون في دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحّل بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين ومن المناظر التي تدعو للحزن والأسى، ما حدث من التفاف العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة على خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل سراحهم على الفور، وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللاتي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌّ بحسب حالته والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى [1].

العبيكان بطبعة ٢٠٠٢م، ص ١٣٧.

(١) اللواء الركن د. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ١٠٨.

وقال غروسيه: بعكس الصليبيين نفذ صلاح الدين وعوده بشرف وبشعور إنساني، وبروح فروسية، مما أثار إعجاب المؤرخين الذين سردوا أحداث تلك الفترة... طلب بعض المتعصبين من صلاح الدين هدم معابد المسيحيين وتدمير كنيسة القيامة بهدف إلغاء حج المسيحيين " المؤمنين بالثالوث المقدس " فصدهم عن ذلك بكلمة منه، قال: لماذا الهدم والتدمير، طالما أن هدف عبادتهم هو مكان الصليب والقبر المقدس، وليس البناء الخارجي؟ وحتى لو سويت الأبنية بالأرض، فإن مختلف الطوائف المسيحية لن تتخلى عن السعي للوصول إلى هذا المكان لنفعل إذن، كما فعل الخليفة عمر الذي احتفظ بهذه الأبنية عندما فتح القدس في السنوات الأولى للإسلام... إن كل ما يتحلى به هذا السلطان العظيم من حرية الرأي والمعتقد يبرز في هذه العبارة الجميلة[١].

ملكنا فكان العفو منا سجية ::: فلّما ملكتم سال بالدّم أبطح
وحَلَّلتُمُ قتل الأسارى وطالما ::: عدونا على الأسرى تَمُنُّ ونصفح
وَحسْبُكُمُ هذا التفاون بيننا ::: وكل وعاءٍ بالذي فيه ينضح

لقد بهر صلاح الدين بأخلاقه الإسلامية ملوك الغرب وقوادهم، حيث كانوا يقودون جحافل جيوشهم في الشام حتى أن الفرنسيين، كانوا يقولون: أن دماءه دماء فرنسية، والألمان والإنكليز، والإيطاليون كلهم كانوا ينسجون قصصاً رائعة عن أخلاق صلاح الدين ويتحدثون عنها في قراهم ومدنهم ومسرحياتهم، لقد كان صلاح الدين فعلا رجلاً إسلامياً بكل معنى الكلمة مقتديا بالرسول

---

(١) اللواء الركن د. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص ١٠٨.

محمد ﷺ في عفوه وحلمه وسماحته. ولقد قال عنه أحد المؤرخين الأوروبيين: سيظل في الذاكرة أن الزمان الدموي والقاسي مثل ذاك الزمان، لم يتمكن من إفساد إنسان ذي سلطة عظيمة، إنه صلاح الدين، وأكبر دليل على تقدير الإفرنج لهذه البطولة النادرة والسماحة السمحة اهتمام امبراطور ألمانيا بزيارة مقبرة بصلاح الدين عندما زار بلاد الشام سنة ١٣١٥هـ /١٨٩٩م وكانت معه الإمبراطوره وقد خطب خطبة أشاد فيها صلاح الدين، وأرسلت الإمبراطورة إكليلاً من الزهور ليوضع على ضريح البطل العظيم.

ولم ينس أمير الشعراء - أحمد شوقي - أن يسجل هذه الذكرى فقال:

عظيمُ الناس من يبكي العظاما ::: ويندبهم ولو كانوا عظاما
فهل من مبلغ غليوم عني ::: مقالا مُرضياً ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام ::: تعهَّد في الثرى ملكا هم
أما أرى النسيان أظمأه فلمَّا ::: وقفت بقبره كنت الغماما
أتدري أيَّ سلطان تحيِّي ::: وأيَّ مُمَلّكٍ تهدي السلاما
دعوت أجلَّ أهل الأرض حربا ::: وأشرفهم إذا سكنوا سلاما [١]

وكان للملك العادل نور الدين محمود زنكي رحمه الله في عهده عَرفَ بنور فراسته فتح البيت المقّدس من بعده، فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعِبَ النّجارون والصُّناع والمهندسون فيه سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتَّزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه أُلوفاً، وكان لترديد النَّظر فيه على الأيام أَلُوفا، وبقي ذلك

(١) أحمد عبد الجواد، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥١، الصلابي، صلاح الدين، ص ٤٩٨.

المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفا في صِوان الحِفظ مقروبا، حتى أمر السُّلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنَّذر النُّوري، ونَقْلِ المنبر إلى موضعه القُدْسي، فَعُرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده سنين، وقد قال العماد الأصفاني: ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العبّاد وأعبد الزُّهاد، ومن الأولياء الأبرار والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب وأن الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب، ويزيده قوة عزمه جدًّا وتمُّده بحياة الربانية مّداً، قد طهَّره الله من العَيْب،... وشملت الإسلام بعده بركته وخُتمت بافتتاح مُلك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رَبَّاه ولَبَّاه وأحبه وحباه، وهو الذي سنَّ الفتح، وسنَّى النُّجح واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنصب فَنُصِب ذلك المنبر، وحسن المنظر، وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرَّقم، وشابه المحراب المنبر في الرَّسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القُدسي الإحسان ولما فتح السلطان القدس تقدَّم بحمله وصَحَّ به في محراب الأقصى اجتماعُ شَمِلِهِ، وظهر سِرُّ الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرتِ الألسن بالدُّعاء لنور الدين بالرحمة ولصلاح الدين بالنصُّرة والنَّعمة[1].

ويدل هذا العمل على مدى إخلاص صلاح الدين لنور الدين محمود زنكي الذي بذل الكثير لتحقيق الوحدة الإسلامية، تمهيداً لاقتلاع الوجود الصليبي في بلاد الشام، كما أن ذلك يدل على أن

(١) أبو شامة، كتاب الروضتين، ٣/٣٩٣.

صلاح الدين عندما قضى على دولة الزنكيين التي سادها الضعف والوهن عقب وفاة نور الدين محمود وتولى ابنه الصغير الملك الصالح إسماعيل، لم يكن يقصد بذلك سوى مواصلة المسيرة والاستعداد للجهاد ضد الصليبيين لإزالتهم واسترداد بيت المقدس(١).

وبعد أن عادت القدس إلى ديار الموحدين قام صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار في بيت المقدس، فقد أقام فرسان الداوية غربي المسجد الأقصى أبنية للسكنى، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، وبنوا على وجه المحراب جداراً وتركوه مخزنا للغلة، وقيل: اتخذوه مستراحاً قاصدين بذلك طعن الإسلام والمسلمين، كما بنوا على الصخرة في بيت المقدس كنيسة وستروها بالأبنية، وملؤوها بالصور، ونصبوا عليها مذبحاً، وعينوا بها مواضع الرهبان كما أقاموا على رأس قبة الصخرة صليباً كبيراً وغير ذلك حتى غيروا معالمها، وقام الطامعون منهم بقطع قطع منها وبيعها في أسواق القسطنطينية، وجزيرة صقلية بوزنها ذهباً، فلما كان يوم الجمعة سبط شعبان ٥٨٣هـ/٩ أكتوبر ١١٨٧م وهي الجمعة التالية للجمعة التي دخل فيها المسلمون بيت المقدس، أمر صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار وكشف الجدار الساتر للمحراب، كما أمر بإزالة ما استحدثوه على قبة الصخرة المقدسة من مبان وصور، ثم أمر الفقيه ضياء الدين الهكاري بأن يكون أميناً عليها وأدار عليها شبابيك من حديد، أما بالنسبة للصليب الذهبي الذي أقامه الصليبيون على قبة الصخرة،

---

(١) عبدالله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص٢٢٣.

فيذكر ابن واصل أن المسلمين ما أن دخلوا البلد حتى تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة واقتلعوا الصليب، الذي سقط وعند ذلك؛ صاح الناس كلهم صوتاً واحداً، من البلد ومن ظاهره. المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا توجعاً وتفجعاً [(١)].

ولما فرغ صلاح الدين من إزالة ما استحدثه الصليبيون داخل بيت المقدس بدأ بعمارة المسجد الأقصى، فبذل جهداً كبيراً في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه، فأحضر له من الرخام مالا يوجد مثله ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك من المواد للتزيين مالا يمكن وصفه، وشرع في عمارته، وتزيينه وإزالةما على جدرانه من الصور والتماثيل، وخص صلاح الدين المحراب باهتمام كبير، فعمل على ترخيمه وتزيينه، وتقدم السلطان في المسجد الأقصى ببسط العراص وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأدناس، وكنس ما في أرجائها من الأرجاس، وأحضر الملك المظفر تقي الدين عمر إلى قبة الصخرة أحمالاً من ماء الورد وتولى بيده كنس ساحتها وعراصها، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، ثم أفاض عليها ماء الورد، وطهر حيطانها وغسل جدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب وجاء الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين؛ بكل نور جلي وكرم ملي، وبسط بها الضيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة[(٢)].

كما قام المسلمون بكنس عراص المسجد وتنظيفها ثم فرشها

---

(١) عبدالله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص٢٢٢.

(٢) عبدالله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص٢٢٤.

بالبسط عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل وصفت السجادات وبعد أن أنهى صلاح الدين تطهير بيت المقدس مما علق به من آثار الصليبيي، رتب في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرها من المساجد داخل بيت المقدس الخطباء والأئمة والمؤذنين والقومة، وأحضر إليها المصاحف والربعات؛ كما قام صلاح الدين بإنشاء المدارس والأربطة فجعل كنيسة مدرسة للفقهاء الشافعية، وعين دار البطريك رباطا للفقراء وأوقف على ذلك أوقافا جليلة وكان لاسترجاع صلاح الدين لبيت المقدس من أيدي الصليبيين أهمية خاصة بالنسبة لصلاح الدين ومكانة بين أبطال المسلمين حتى أنه يمكن القول أنه إذا كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد طهر بيت المقدس من براثن الروم في السنة الخامس عشر للهجرة، فإن صلاح الدين أعاد تلك الذكرى في القرن السادس الهجري بعد أن تعرضت لبيت المقدس لذلك الاعتداء الصليبي الذي استمر ما يقارب المائة عام ووضع صلاح الدين بذلك العمل الجليل الأساس لمن بعده من سلاطين المسلمين للقضاء على بقايا الصليبيين في بلاد الشام.

ولكن...

ماذا أقول وقلبي بات يعتصر؟	:::	مما يدور وما يجري وينفطر
ماذا أقول وأعماقي ممزقة؟	:::	والصمت ران كأن الحال يحتضر!!
ماذا أقول وسمعي ما به صمم؟	:::	والعين تدمى وماء العين ينحدر
فالقدس تشهد أحداثاً مروعة	:::	والليل أعمى ووجه الأرض معتكر
فالحال يندي جبين الحر وأسفي	:::	فالعسف والنسف والإرهاب والجُدُرُ
والقدس تُنعى وأقصانا يصيح بنا	:::	والختل والقتل والإقصاء والنذر

يا ويح صهيون ما أودت وما فعلت ::: لا الشعب ينسى ولا الأيام تغتفــر
من ذا يقوم ويسقي الترب من دمه؟ ::: من ذا يضرّج باب المجد يســـتطر؟
من ذا يكبر لا يلوي على أحــد؟ ::: من ذا يشــمر للعليــا ويبتــدر؟
طفل الحجارة أي المجــد ســطره ::: ناءت عن المجد آســادٌ ولا آثــر؟
حتى انبرى طفلنا بالصخر يحملــه ::: فالكون كبر والمقــلاع والحجــر
الله أكبر في الســاحات نســمعها ::: الله أكـــبر بالأعـــداء تنفجــر
الله أكــبر يــا ربــاه أحــي بنــا ::: روح الشهادة فالأعداء قد كثــروا
تكــالبوا واســتقروا في مرابعنــا ::: أواه يــا أمــتي الأورام تنتشــر
ماذا أصاب بني اليرموك فانتبهوا؟ ::: ماذا أصاب بني حطين؟ مــالخبر؟
لا يصلح الحال درب لا دماء بــه ::: فما الحلول ولا الأوهــام تزدهــر
جيل الحجارة أحيا نــبض أمتنــا ::: فالحق يشــرق والآمــال تنتشــر
فالطفل يرجم أهل الشرك ممتشــقاً ::: أعمى أصم ولكن بــات ينشــطر
والهدي صــبغته والــدين عزتــه ::: والنــور عدتــه والآي والســور
قد لقن الكل درساً لا كــلام بــه ::: ما أعظم الدرس إن بالنفس يستطر
عفواً بني قومي لا عــذر يــنفعكم ::: صهيون يعبث بالأقداس والزمــر
بنو اليهود أقاموا صرح هيكلــهم ::: ونحن نرقب ما يــأتي بــه الهــذر
فما التفــاوض والبلــدان تنفعنــا ::: ولا الوفــاق ولا أوراقــه الحمــر
لا يُرجع الحــق إلا خفــق ألويــة ::: تطوي الثريــا وللآفــاق تنتشــر
لن يسعف الحال إلا مهجة عزمت ::: تسقي التراب وترويــه وتصــطبر

* * *

معركة الأرك

[٩ شعبان ٥٩١ هـ/١٨ تموز يولية ١١٩٥]

معركة الأرك

[٩ شعبان ٥٩١ هـ/٨ تموز ـ يولية ١١٩٥]

بعد أن أتم الموحدون في عهد الخليفة عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم له تعيين ابنه ولياً لعهده، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورؤوس الفتنة، وخضّد شوكة أفراد بيت بن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقوية ظهره بعصبية قبيلته، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية وكل من تمرد على دولة الموحدين ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة.

يقول ابن صاحب الصلاة: (تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحد الزاخر. وكانت

الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: " وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكساء والعمائم والبرانس، ما استغربته الأذهان ولاتقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين... " [١].

خرج عبد المؤمن بن على من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة هجرية (٥٥٨هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوال مائة ألف راجل ومائة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد إسبانيا:

١ - الجيش الأول: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

٢ - الجيش الثاني: إلى فرناند ودي ليون.

٣ - الجيش الثالث: إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

---

(١) ابن صاحب الصلاة ص ٢١٣ - ٢١٥.

٤ - الجيش الرابع: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمّد هذا العمل الكبير، مرض عبد المؤمن بن على المفاجئ، وانتظار الموحدين شفائه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة ٥٥٨هـ. قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة:

" فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن بن على، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لايحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدهم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفّاكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء... " [١].

تولي الخلافة بعد وفاة عبد المؤمن ابنه يوسف في رجب ٥٥٨هـ، وكان محبا للجهاد، فقد جاء إلى الأندلس مرتين من أجل هذا الغرض.

وأبدي الخليفة الجديد اهتماما كبيرا بالأندلس، فلما أغار ابن مردنيش وحلفائه النصاري على قرطبة سنة ٥٦٠ هـ أرسل إليه

---

(١) البداية والنهاية ٢٦٤/١٢، وانظر أيضا الكامل، ٩ / ٨١.

جيش كبير بقيادة أبي سعيد وأبي حفص فهزما ابن مردنيش في فحص مرسية، ولما هاجم البرتغاليون حصن بطليوس تمكن الموحدون من رده على عقبيه [١].

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور:

المحور الأول: استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.

المحور الثاني: العمل على الحد من أطماع الممالك والأمارات الأسبانية.

المحور الثالث: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثخنتها وكان محمد بن سعد بن مردنيش تولى حكم بلنسيه بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢هـ) الموافق ٢١ أغسطس سنة (١١٤٧م). ثم قام على بن عبيد والي مرسه بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادى الأولى سنة (٥٤٢هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسيه شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها

(١) ابن خلدون، ٦ / ٣٩٤، أعمال الأعلام، ص ٢٦٩.

ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع مماليك النصارى وإمارتها ضد الموحدين وكان غرض الإسبان النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب. كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاضدة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو ألاَّ يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية، وثانيا إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الأسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم وبهذا فقد بن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجودهم يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب أماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مآل إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشذ في تصرفاتها، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبلبل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون. ومنها أنه قتل وزيريه ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جدًّا من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبا وخاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام ٥٦٧ هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبعد موته خلفه ابن هلال الذي قدم طاعته للموحدين وسلم لهم الحصون والقلاع التي كانت خاضعه لأبيه، بلنسية ومربيطر وشاطبة ولورقة وقرطاجنة، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية [١].

وأقام الخليفة أربع سنوات في الأندلس قاد أثناءها الحملات ضد الأسبان، ففي سنة ٥٦٧ هـ هاجم البرتغال، وحاصر شنترين واستولي على القنطرة، وفي سنتي ٥٦٨ هـ و٥٦٩ هـ أغار على نواحي قلعة رباح، وفي سنة ٥٧١ هـ عاد إلى المغرب [٢]

لقد كان يوسف بن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبدالسلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا ::: ويجري نحوك الأمم استباقا

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة

(١) ابن خلدون، ٦ / ٣٩٩ - ٤٠٠.
(٢) روض القرطاس، ص ٢٦٦.

بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار.

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي [١].

بعد استشهاد سلطان دولة الموحدين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس ٥٨٠ هـ هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين:

١ - إنشغال الموحدين بثورات قامت في إفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

٢ - الخلاف الذي وقع بين ملوك الأسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين " مارتن دي بسيرجا " مطرانا لطليطلة، شرع الأخير في زرع الحقد

(١) سقوط دولة الموحدين، ص ١٢٧ - ١٤٥، العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص١١٥، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص١٩٤، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٤٦.

والبغض وتأجيج صدور النصارى الأسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم، فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسُبي المسلمون العُزل رجالا ونساء، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب[1].

استاء الخليفة من تقاعس رؤساء الأندلس وتخاذلهم أمام الأسبان، فقام محمد بن يوسف والي قرطبة باستعادة شلب وقصر أبي دانس وباجة ويابرة، ثم عاد إلى قرطبة [2].

وبينما كان الخليفة في مراكش قدم عليه وفد قشتالة لمراجعته في تجديد معاهدة الصلح، وهو في نفس الوقت يضمر السوء للمسلمين. رفض الخليفة عرضهم وقطع المفاوضات واستعد للحرب. أرسل إلى إشبيلية يطلب من واليها أن يبني حصنا على الوادي الكبير ليكون مقرا للمجاهدين المغاربة في الأندلس، فكان حصن الفرج.

بلغ ألفونسو عزم الخليفة على العبور للأندلس، وكان أمد الصلح

---

(١) روض القرطاس، ص ٢٦٩، نفح الطيب، ٦ / ١١٤، يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس، ٢ / ٨١.

(٢) المعجب، ص ٢٨٠، روض القرطاس، ص ٢٦٩، ابن خلدون، ٦ / ٥١١.

قد انتهي، جهز جيشه وحدد لهم يوما للإغارة على الأندلس، فشنوا الغارات في يوم واحد على أراضي المسلمين، واجتاحوا أراضي إشبيلية وعاثوا فيها فسادا وتخريبا، فلما وردت هذ الأخبار على الخليفة وهو يتأهب لقتال بني غانية في إفريقية، فعدل عن قتالهم وقرر الجواز إلى الأندلس لمحاربة القشتاليين [١].

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتاله واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطابا يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال. وهذا هو نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

" باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد.. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال،

(١) ابن خلدون، ٦ / ٢٤٥، نفح الطيب، ٦ / ١١٤.

وتماطل نفسك عاما بعد عام، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى " [١].

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزّقه وكتب على ظهر قطعة منه:{ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾} [النمل: ٣٧]. الجواب ما ترى لا ما تسمع [٢].

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يداع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد، وأمر السلطان الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذانا بالدعوة العامة إلى الجهاد، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة، وإلى

(١) وفيات الأعيان ٦/٧.
(٢) وفيات الأعيان ٧/٧.

غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس.

ودوَّت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقا على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطرا على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانصواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطي والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في أسبانية، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

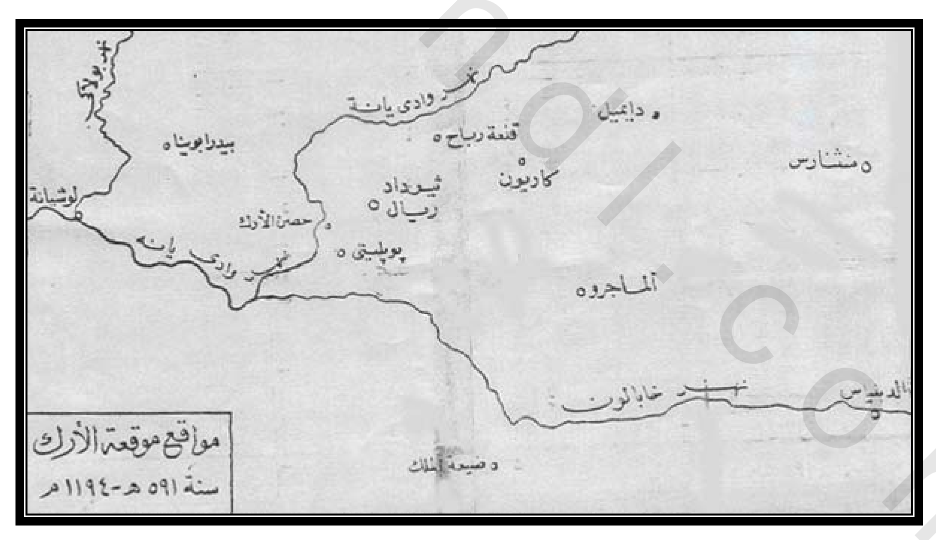
وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ، ولم يسترح بها إلاَّ قليلا، ثم بادر بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولا إلى اختراق قلب أسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد

قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأراك، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة.

معركة الأرَكْ:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومترا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنه، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه. تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون ونبارة[١].



واستفز كل ملوك إسبانيا المسيحية واستصرخ البابا في روما

(١) شوقي أبو خليل، الأرك، ص٥٣ ـ ٥٤.

وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوروبية ووافته جنود أوروبية كبيرة يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوروبية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ (١٥٠ ألف جندي) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الإسلامية.

وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرّت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك.

خطة المعركة:

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضح خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائدا عاما للجيش كله، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحي بن

أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم، وهو ما لم يتبع دائما، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحي بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية، فقد نصح عبدالله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها، وأمر بتنفيذها.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الأسبان القديمة في الحرب، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الإنسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء،

ولكن ألفونسو رأى - وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصا وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصرا باهرا على جيش الموحدين.

وفي ٩ شعبان ٥٩١هـ/٨ تموز (يولية) ١١٩٥ كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة. وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماستهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى في نومه فارسا بهي الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، وبيده راية خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله.

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوروبية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى، فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناته وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبدالله بن صناديد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة، ولا سيما حملة النبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعا يضطرمون شوقا إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند: إن المنصور أمير

المؤمنين يقول لكم: " اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم ".

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم.

وقام وخطب وحرض على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم.

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرَك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيّقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه يحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية الآف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ.

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: " فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابا تتلوها أسرابٌ، وأفواجا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فاندفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال

الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال " أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدما بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته " (١).

لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسما منها، واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله آلاف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيد وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبدالله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالاقدام والشجاعة، حتى

(١) البيان المغرب ص١٩٤.

أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى.

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: " لا إله إلا الله محمد رسول الله، لاغالب إلا الله ". ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته [١].

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية،

(١) الكامل، ٩ / ٢٣٢ - ٢٣٣، المقري، نفح الطيب، ٦/ ١١٥ - ١١٦، روض القرطاس، ص ٢٤٦، البيان المغرب، ٣ / ١٩٤، ابن خلدون، ٦ / ٢٤٢، أعمال الأعلام، ص ٢٦٩، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٣١ - ٣٣٣، الصلابي، دولةالموحدين، ص ١٧١ - ١٧٣ واللفظ له.

وغنم المسلمون معسكر الأسبان بجميع مافيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين [١].

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور باذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في أشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر، كما بنى حصنا كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عددهم عشرين ألفا وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأً لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين.

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦ بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية " استراما دورة " وعبر النهر الكبير " الوادي الكبير " في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظرا لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولا

---

(١) نفح الطيب، ٦ / ١١٦.

اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحبًا جنوبًا بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معهم حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش[١].

نتائج معركة الأرك:

١ - ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.

٢ - سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

٣ - حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

---

(١) معركة الأرك ص٦٥، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٧٣.

٤ - ارتفـاع نجـم السـلطان أبـي يوسـف يعقـوب المنصـور والموحدين في العالم أجمع.

٥ - انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

٦ - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.

٧ - أصيب نصارى الأسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

٨ - جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين، وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.

٩ - تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورصّ الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

١٠ - دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي.

وغير ذلك من النتائج.

أسباب انتصار المسلمين في معركة الأرك:

لاشك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب

عدة منها:

١ - الاهتمام بتصحيح العقيدة، ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا ماقام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة بن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن الكريم والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.

٢ - اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

٣ - محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

٤ - فتح باب الاجتهاد ومحاربة الجمود، وإلغاء اهتمام الدولة بفروع الفقه وإلزم العلماء بألا يفتوا إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحدًا من الأئمة المجتهدين المتقدمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس، وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت

فيه شروطه. وأبطل التقليد ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم.

٥ ـ احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب ابن يوسف، وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة، ووقوفه عند الشرع.

روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبدالواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسيَّر الأمير عبدالواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبدالواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبدالله بن على بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبدالواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضى ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبدالواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

الشيخ عبدالواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدالواحد القاضي بالقصر

المذكور، وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبدالواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسيَّر إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبدالله ماهذا إلا جدّ كبير، ثم استدعى خادما وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبدالواحد إليه، فحملت إليه في ذلك النهار، ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهّر وانقاد لأوامراه، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضا، فإنه بالغ في إقامة منار العدل.

٦ ـ الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانيه والمتمردين وقاد المعارك بنفسه وأسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

٧ ـ الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبو يوسف إلى الآراء في مجلس حربه وإعطاء لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى واعتمد خطة أبي عبدالله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

٨ ـ الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد فمثلاً، الأندلسيين يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معناويتهم وتنشط

هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبدالله بن صناديد.

٩ - جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

١٠ - الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة؛ ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائدًا أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

١١ - إذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث في الجهاد لتملى على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

١٢ - تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

١٣ - سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء

السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور [١].

* * *

(١) الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٧٣ ـ ١٧٥.

موقعة العقاب

[٦١٠هـ / ١٢١٢م]

موقعة العقاب

[١٢١٢م / ٦١٠هـ]

توفي الخليفة الموحدي المنصور في ليلة الجمعة ٢٢ ربيع الأمول ٥٩٥هـ / ١١٩٩ م ونقل إلى قصره بالصالحة ودفن هناك ثم نقلت رفاته إلى تينملل وخلفه في اليوم التالي ابنه محمد أبو عبد الله وتلقب بالناصر لدين الله، وهو في السابعة عشرة من عمره (١).

انصرف الناصر محمد إلى معالجة أوضاع المغرب عن الاهتمام بأحوال الأندلس، وكان الذي شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين هو ثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين واستطاع عبدالله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين.

وكان القشتاليون قد أخلدوا إلى السكينة بعد هزيمتهم في الأرك واجتياح الخليفة المنصور لأراضيهم والعبث فيها، ولما طال الصراع بين الموحدين وابن غانية وانقطع عبور المجاهدين إلى الأندلس، أدرك الأسبان النصاري أن الفرصة سنحت لاستئناف الغزو لأراضي المسلمين.

---

(١) روض القرطاس، ص ٢٧٠، وفيات الأعيان، ٢ / ٤٣١، نفح الطيب، ٦ ١١٧، الكامل، ٩ / ٢٤٩.

وكان ألفونسو الثامن القشتالي يتحرق للثأر من هزيمة الأرك، ولما انتهي أجل الهدنة المعقودة بينه وبين الموحدين جهز حملة سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م ومعه فرسان قلعة رباح وسار إلى جيان وبياسة واستولي على عدة حصون، ثم عاد في العام التالي واجتاح أراضي جيان وبياسة حتى وصل أطراف ولاية مرسية، وعاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم [١].

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصيناً قوياً عام ١٢٠٩م ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين؛ لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك مَحْوَ وصمة هزيمة الأرك، بإحراز نصر على الموحدين.

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت واستطاع الإسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وأن يدعوا نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٣٧.

لمناصرة الصليب في الأندلس.

وشرع النصارى الحاقدون في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبي منهم جموعاً كبيرة[١].

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله الجهاد، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب، وقسمها إلى خمسة جيوش:

١ - الجيش الاول من قبائل البربر.

٢ - والثاني من الجنود المغاربة.

٣ - والثالث من الجنود الموحِّدية النظامية.

٤ - والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

٥ - والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبدالله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧هـ أوائل أيار (مايو) سنة ١٢١١م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى أشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح.

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداده بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سَلْبَطَرَّة، فأنهك بذلك قواهم، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه، وأصر أبو عبدالله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد بن جامع وكان الموحدون

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٢٣، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩١.

يشكون في صدق نياته - ولكن أبا عبدالله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس مالا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً فيوماً.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي ننساهم في كفاح الصليب المقدس.

وقام البابا أنوسنت الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسا (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه - أي البابا - يمنح كل من لبي الدعوة الغفران التام).

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الاسبان وكان الأساقفة يرأسون صفوف

المحـــاربين مـــن المـــدن المختلفـــة، وقـــد تولـــوا الإنفـــاق علـــى حشودهم[١].

ووفـدت علـى إسـبانية جمـوع المحـاربين مـن جميـع البلـدان الأوروبيـة ليقـاتلوا دفاعـاً عـن النصـرانية متقلـدين الصـلبان، وكـان الفرنسـيون أكثـر الوافـدين عـددا، وقـاد أرنولـد مطـران أريونـة جيشـاً مـن لانجـدوك وبروفـانس وبرجونيـة يضـطرم شـوقاً للقـاء المسـلمين. ووفـق أرنولـد إلـى مـاهو أهـم مـن ذلـك، وهـو أن يحمـل بذلاقتـه وضـراعته ملـك نافـار - بعـد أن كـان غاضـباً مـن ملـك قشـتالة - أولاً علـى أن يؤيـد قضـية إسـبانية بالمـال والجنـد، ثـم - وهـو الأهـم - علـى التعهـد بـأن يسـير فـي فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعـت فـي مملكـة قشـتالة مـا لايحصـى مـن جنـود النصـارى المتعطشـين لسـفك دمـاء المسـلمين وكـان فـي مقدمـة تلـك الحشـود الضـخمة ألمـان مـن البارونـات مـع حاشـياتهم، وبيـدرو الثـاني ملـك أراغـوان فـي جيشـه الضـخم، كمـا توافـدت إمـدادات ليـون وجليقيـة والبرتغـال، وكانـت القـوات البرتغاليـة تتكـون مـن عـدد مـن الفرسـان والمشـاة البـارعين، يقـودهم أميـر برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الاول.

لقـد تجمعـت هـذه الحشـود فـي طليطلـة التـي لـم تسـتطع أن تسـتوعبهم، فاضـطرت الألـوف الكثيـرة أن تقـيم فـي الخيـام خـارج

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٢٨، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٣.

المدينة، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعادات لقد اشتركت أوروبا فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء.

وفي روما، أمر البابا أنوسنت الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والاكتفاء بالخبز والماء التماساً لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الاسبان.

وفي ٢٠ حزيران (يونية) ١٢١٢م، تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لايصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعداده مابين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لويبزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بُرْدال) وأسقف نانت.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدرو الثاني، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية.

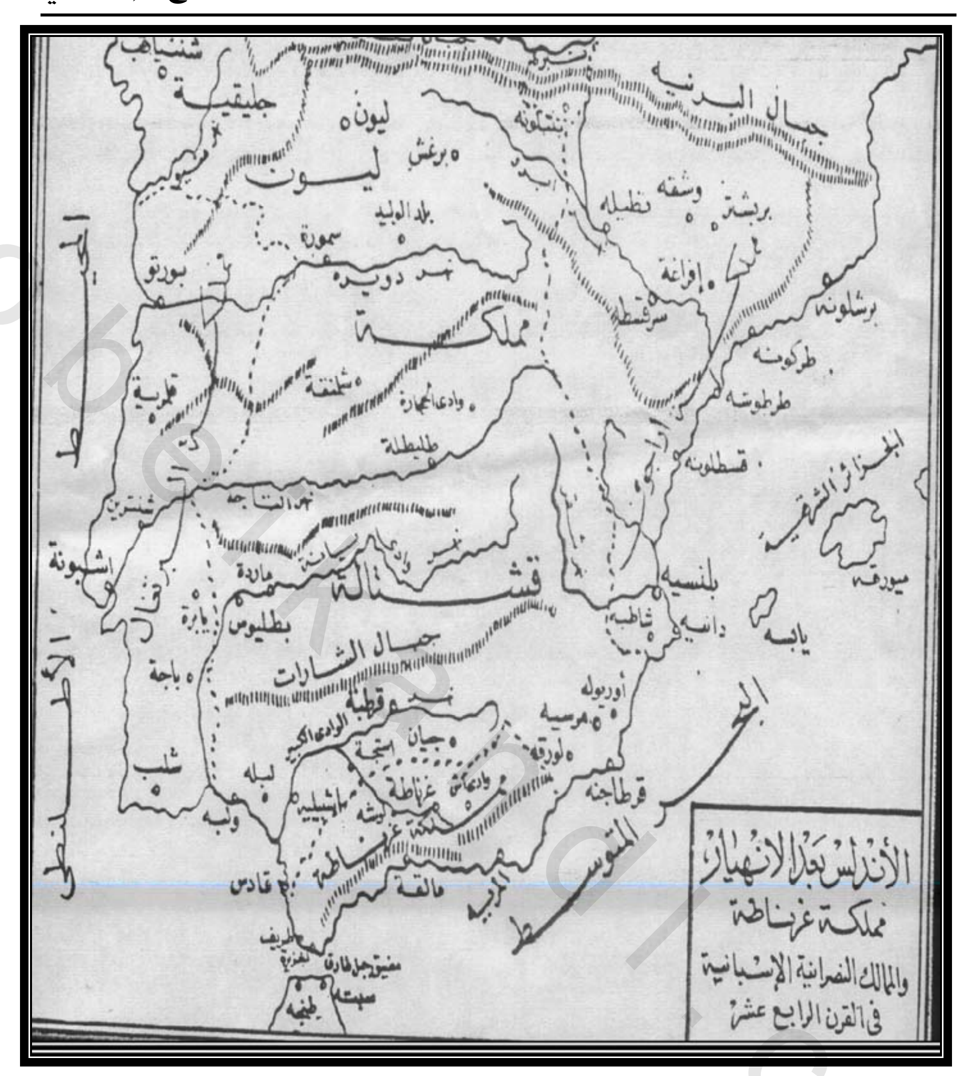
أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، وردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة أخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير[١].

ـ حصار قلعة رباح:

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) ١٢١٢م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه وبعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصانير والخوازيق الحديدية.

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣١، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٣.



وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصاراً طويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في افتحام المدينة بشجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ويقول يوسف أشياخ[1]: (وقبل

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ١١٣/٢.

أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة افتتاحها، وأن يُبْدأ بالسير تواً لمهاجمة المسلمين)[1].

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن.

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى إثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، بيدروا الثاني ملك أرغوني نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشا لم تخرج إسبانية النصرانية مثله من قبل، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣١، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٤.

طائل منه، فاخترقوا ممر " ورادال " في جبال سيارا مورنيا " جبل الشارات " لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى.

ـ مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج:

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدس من وزيره أبي سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهارا، فكان لهذا الفعل أثر سيء في الجيش الإسلامي كله، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر.

قلت: وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغرّاء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار [١].

المعركة:

قام ملوك الأسبان في صباح ١٦ تموز " يولية " بترتيب جندهم

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣٥، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٤.

لخوض المعركة، فرابط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الرُّبى، تزعَّم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

١ - تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها " ديجولويز ".

٢ - وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاستبارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت " جونزالو نونيز دي لارا ".

٣ - والفرقة الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش، وبسكونية، ويقودها الكونت " ردريك دياز كاميروس".

٤ - وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلا عن المطران " ردريك الطليطلي "، عدة اساقفة من قشتالة وليون مع جندهم. وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة أرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضا إلى أربع فرق، ويتألف كله من قوات أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدروا، ومن حوله الأحبار والأرغونيون [١].

---

(١) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ١١٧/٢.

أمـا جيش الموحـدين، فقد قسَّـمه أبـو عبدالله محمد الناصـر تجـاه جيش النصـارى فـي سـهل " تولـوزا " وفـق الأوضـاع الموحديـة إلـى خمس فرق.

كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوِّعة، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم، وبدافع ذاتـي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشـر الإسلام. وتقدرهم الروايـة العربيـة بمائـة وستين ألـف مقاتل. واصـطفت القـوات الأندلسـية فـي الميمنــة، والقبائـل البربريــة فــي الميسـرة، وأمـا القلـب والقـوات الاحتياطيـة فكانـت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربـة والنظـاميين، أو بعبـارة أخرى من الجند الموحدين. وضرب أبو عبدالله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، ربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقتـه، إيذانا بـاقتراب المعركـة، ومن حولـه حرسـة من مشـاة وفرسان. وشـهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصـارى الإسبان ومن معهم من قوات أوروبية صليبية، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت.

ولما تمَّت استعدادات المعركة، خرج سلطان الموحدين من قبتـه وهو يرتـدي عبـاءة سوداء من مخلفـات جده عبد المؤمن وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبـول الضـخمة يـدوّي بشـدة فـي سـاحة المعركـة وسـارع جنـد المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفا قويـا ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصـارى التـي كانـت مدعومـة بجماعـات الفرسـان الدينيـة - الاستبارية والدواويـة -

فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين، وأن يمزقوها. واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حُشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فارّين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم [(١)].

ولما رأى ملك قشتالة من الرُّبى تطور المعركة على هذا النحو السيء، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلِّف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: " إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد ".

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد. ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمعة، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم.

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة، ليلمُّوا شعثهم، وينظِّموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطِّمون كل مقاومة

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣٥، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ١١٧/٢، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩.

في اتجاه قلب الجيش الإسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حُطِّما، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتَّب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجاه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها، بل سار منها إلى أشبيلية.

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة.

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جدًّا وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوروبا كلها يدفعهم الحقد الصليبي، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم(١).

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣٩، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ٢/١١٨، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٥.

العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء:

١ - أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضْري (٥٤٢ - ٦٠٩هـ). من أهل شاطبه، صاحب التآليف الذي " كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يخل بحفظ شيء منها. موصوفا بالدراية والرواية، غالبا عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما أذن في المساجد، وله تآليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر.. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقيعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها. وكانت السبب الأقوى في تَحَيّف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة.. "[١].

٢ - القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية " فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر لصفر سنة تسع وست مئة ... ".

٣ - أبو الصبر أيوب بن عبدالله الفِهْري. من أهل سبتة، الذي " استوسع في الرواية. وكان معروفا بالزهد، واستشهد في كائنة العِقاب ".

٤ - أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس " كان زاهداً، عابداً، معلما بالقرآن الكريم له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازيا وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستة مئة، فأقام هنالك أياماً يَلْقى الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره.. ".

٥ - أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الحضرمي، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة " ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافا ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ...، واستشهد في وقيعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩ ".

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين [١].

أسباب الهزيمة في العقاب:

١ - الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه، ألا وهي: " صدق الرحمن وكذب الشيطان " [٢].

٢ - لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطره وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدي لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

(١) الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٨ - ٢٠٠.
(٢) أنظر: العقاب ص٥٠.

٣ - ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتما في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

٤ - سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحب الأندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

٥ - إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوروبا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

٦ - الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم.

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيرا من مبانيها، بنيما كان الرهبان والقساوسة يرتِّلون الصلوات فرحا بنكاية المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات

الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة[١].

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية في مدينة بياسة. يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين[٢]: " ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءة قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعا بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوى الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزَّل، وكان المسلمون يأملون نظرا لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء [٣].

ونظَّم النصارى في الواقع على المدينة هجوما عاما خسروا فيه كثيرا من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان، وعندئذ رأى الملوك، أن خير الطُرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة،

(١) أنظر: العقاب ص٥٢.
(٢) أنظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (١٢٣/٢).
(٣) الصلابي، دولة الموحدين، ص ٢٠٢.

وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب " مليون دينار "، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقا لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قُبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظرا لما أنسوه من صعاب في افتتحاها.

ولكن الأحبار الظامئين إلى دماء المسلمين، اعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلَّم المدينة دون قيد أو شرط، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذرا هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدُّوا الضريبة المفروضة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقُتل من في أبدة زهاء ستين ألفا، وسُبي مثل هذا العدد، وهُدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم، ورتَّلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته"[١].

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفاءه للعهود واحترامه للأديان.

قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ::: فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما ::: غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ::: وكل إناء بالذي فيه ينضح[١]

(١) أنظر: العقاب ص٥٣.
(١) عبدالله علوان، صلاح الدين بطل حطين، ص٨٤.

لم تكن موقعة العقاب سببا في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط، ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضا. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفح الطيب: كانت العِقَاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فَبِخلاءِ كثير من قُراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدوِّ لها..)[1]. وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى أشبيلية، وهنالك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزينا كئيبا ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات ولم يقم بشيء من شؤون الحكم سوى أن عيّن لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله وكان يومئذ طفلا في العاشرة من عمره ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمدا لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموما بأمر من وزرائه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في ١١ شعبان ٦١٠ هـ / ٢٥ كانون الأول " ديسمبر " سنة ١٢١٤ م، بعد أن حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر[1].

---

(١) المقري، نفح الطيب ٤٢٠/١.

(١) أنظر: العقاب ص٥٧، الصلابي، دولة الموحدين ص ٢٠٤.

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله وروسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدين دماء وأموالا، وتفككا داخليا وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا عام ١٢١٢م وليس عام ١٢٦٩م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبدالواد في تلمسان وبني حفص في تونس[١].

* * *

(١) الصلابي، دولة الموحدين، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

معركة عين جالوت

[رمضان ٦٥٨هـ
/١٢٦٠م]

معركة عين جالوت
[رمضان ٦٥٨هـ/١٢٦٠م]

أو لم تكن في عين جالوت لنا ::: همم لردع المعتدين عظام
أو هكذا ننسي المفاخر مثلما ::: ينسي الصغير هوي الرضاع فطام

عين جالوت:

لقد شهد تاريخ الإسلام سلسلة متطاولة من المعارك الفاصلة، منذ وقعة بدر التي فرق الله بها بين الحق والباطل، ومكّن لدعوته الناشئة في الأرض.. وإلى أن يشاء الله.. ولكن يبقى لمعركة عين جالوت ثقلها وأهميتها وخصوصيتها.. ذلك أنها جاءت وظلام الإعصار الوثني المتحالف مع الصليبية يكاد يطبق على نور التوحيد ويطمس على تألقه.. فردّت على القوة بالقوة، وقارعت سيف الشيطان بسيف الله، وعلمت الناس عموماً والناس خاصة، بالانتصار الباهر الذي حققته، كيف يكون الإيمان الجاد المعزز بالرؤية الواعية والتخطيط المدروس، قديراً على تحقيق المعجزات..

فإن لم نتعلم من (عين جالوت) سوى حقيقة أنه بالإيمان والثقة والعزم والتصميم، يمكن أن نجابه المحنة ونتفوق عليها.. فكفى بذلك من كسب تمنحنا إياه مطالعاتنا الجادة في التاريخ.. وإنه قد آن الأوان لكي نتعلم من التاريخ..

من هم المغول؟

تواجد المغول في أقصى الشمال على حدود سيبيريا وفي إقليم السهوب شمالي صحراء جوبي [١]، نحو جبال التاي وخانجاي وكنتاي على هيئة مجموعات كبيرة أشبه ما تكون بخلية النحل من حيث تعدد قبائلها وكثرة حركاتها وتنقلاتها من مكان إلى مكان.

هذه القبائل من البدو الرحالة التابعين للفروع الثلاثة: الأتراك والمغول والتونغور [٢] وجميعهم من الجنس الألتائي. والمغول والتتار قبائل من الترك البدو كانوا يسكنون الجزء الشرقي من بلاد التركستان وما يليها شرقا من بلاد الصين في العصور الوسطى، ويذكر مؤرخوا الترك ونسابوهم أن ألنجة خان أحد ملوك الترك ولد له في الأزمنة القديمة ولدان توأمان هما مغول خان وتتار خان وقد تفرعت منهما قبائل المغول والتتار.

وقد عاش أولادهم في صفاء مدة طويلة ثم حدث نزاع بينهما تغلب فيه التتار أولا وصارت لهم السيادة مدة طويلة ثم اتحدت قبائل المغول وحاربت التتار وهزمتهم وانتزعت منهم السيادة وظل الملك متوارثا فيهم إلى عهد يسوكاي والد جنكيز خان.

وبالرغم من وجود اختلاف في لغات هذه القبائل إلا أنهم جميعا كانوا من قبائل البدو الذين يقطنون الأقاليم العليا من آسيا، وكانت

---

(١) صحراء جوبى، هي صحراء في أواسط آسيا ما بين جنوب سيبريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق التركستان. بين جبال التاي غربا وجبال خنجان شرقا.

(٢) قسم من تتار المانجو، وقد أطلق عليهم الروس هذا الاسم (تونغور) ويسمون أحيانا (صولون) وتعني بلغة المانجو: الصيادون الرماة.

حياتهم تجري على نظام واحد، ويعيشون في جو واحد، ومتقاربي الشبه والخلقة ويتمتعون بصفات بدنية تناسب البيئة التي عاشوا فيها كل المناسبة، إذ كانت وجوههم عريضة، ورؤوسهم كبيرة، وأنوفهم فطساء، وخدودهم بارزة، وعيونهم صغيرة غائرة ذات جفون مسترخية، وشفاههم غليظة، وذقونهم جرداء، وشعورهم سوداء خشنة، وجلودهم سمراء تميل إلى السواد، قد لفحتها الشمس وأثرت فيها الرياح والثلوج. وهم قصار القامة ذووا أجسام ممتلئة كالكتل، وأفخاذهم قوية العضلات. وهذا طبيعي جدا لأن مثل هذه المناطق الشاسعة التي تجتاحها الرياح الثلجية في الشتاء، والملتهبة الحرارة خلال عدة أسابيع في الصيف، تستلزم أجناسا قوية لتكافح ضد هذه الطبيعة بنفس القوة والعنف [١].

وأهم هذه القبائل وأصولها وأماكن تواجدها الآتي:

١ - التتار: وكانوا يقطنون المنطقة التي تحد شمالا بنهري أرقون وسيلنجا ومملكة القرغيز، وشرقا بإقليم الخطا (الصين الشمالية)، وغربا بممالك الأويغور، وجنوبا بإقليم التبت ومملكة التانجوت كانت هذه القبائل من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا وجبروتا في أقاليم آسيا الشمالية، وهم يتشعبون إلى شعوب كثيرة، وكان هؤلاء التتار في أغلب الأوقات مطيعين وخاضعين لملوك الخطا. ومن حين إلى آخر كانوا يثورون على الخطا فيسرع هؤلاء لمقاومتهم، وإجبارهم على الخضوع مرة أخري.

وعاش هؤلاء التتار في صراعات مريرة فيما بينهم لأتفه الأسباب،

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٥.

وقد تستمر المعارك بينهم عدة سنوات، وقد اشتهروا بالطعان والنزال، ولم يكن لهم قانون يحكمهم أو شريعة يسيرون عليها [١].

وقد ميز الصينيون - من حيث درجة الحضارة - بين التتر البيض في الجنوب الذين كانوا قريبين جدا من حدود الصين الجنوبية، والتتر السود الذين كانوا يعيشون في أبعد من ذلك إلى الشمال، والتتر المتوحشين، أو تتر الغابات الذين كانوا يعيشون على عكس بقية القبائل البدوية الأخرى على الصيد ويمارسون السحر. الشامانيون (أي السحرة) الذين كانوا يأتون من هذه المنطقة كانوا يعتبرون الأكثر ثقة وجدوي [٢].

٢ - المغول: كان ظهور المغول في الهضبة المعروفة بهضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي في أواسط آسيا، جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا، وشرقي التركستان من جبال التاي غربا وسلسلة جبال خنجان شرقا [٣].

ولم تكن للقبائل المغولية المغولية في موطنهم الأصلي حضارة سابقة، وإنما كانت على عهد بالبداوة لم تعرف المدنية، ويغلب على أبنائها الشراسة والوحشية، ومن علامات بداوتهم أن كل قبيلة كانت تشكل وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة، ويتزعمها رئيس يحمل لقب نومان [٤].

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٦.
(٢) بيرتولد شبولير، المغول في التاريخ، ص ١١.
(٣) محمود الحويري، العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول، ص ٧.
(٤) نومان كلمة مغولية بمعني الأمير أو الشريف والسيد العظيم.

وكانت أمة المغول منقسمة إلى عدة قبائل، منها:

قبائل النايمان الذين سكنوا في أقصي الغرب بين إيرتيش الأعلى والأوريغون، إلى الشمال من الألتائي، وقد نفذت إليهم عناصر كثيرة من ثقافة آسيا الوسطي كان من أهمها الديانة المسيحية وبخاصة على المذهب النسطوري، وكان النايمان يشكلون القبيلة الأكثر تمدنا بين المغول، ويقرب منهم كثيرا من حيث الحضارة (١).

وكان لهؤلاء النايمان ملوك مشهورون أقوياء، ولهم جيوش عديدة، وفي قديم الزمان كان يطلق على ملوكهم اسم " كوشلوك خان أو " بويروق خان ". ومعني كوشلوك: ملك عظيم وقوي، أما بويروق فمعناه معطي الأمر، ولكن مع هذا كله كان لكل ملك اسم أصلي يختاره له أبواه (٢).

- قبائل الكيريت أو الكيرايت: الذين كانوا يسكنون إلى الشرق من النايمان على ضفاف نهر الأورخون وإلي الجنوب منه،في صحراء جوبي، وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم، وقد اعتنقوا في معظمهم عام ١٠٠٧م / ٣٩٨هـ المسيحية على المذهب النسطوري (٣).

- قبائل الميركيت أو مركيت: وهم يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكيرايت على ضفاف مجري نهر السيلنجا، جنوب بحيرة بايكال، وكان لهم جيش قوي ذو بأس شديد في الحروب، وقد عرف

(١) بيرتولد شبولير، المغول في التاريخ، ص ١١.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٠.
(٣) بيرتولد شبولير، المغول في التاريخ، ص ١١.

عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن. ولهذا شن عليهم جنكيزخان حربا شعواء مستعملا أقسي ما عرف عن المغول من قسوة وشدة. ولم يقف عند هذا الحد بل أصدر أوامره بالقضاء عليهم جميعا، فلم ينج من سيوفهم سوي إلا بعض الهاربين أو من استطاعوا الاختفاء عند بعض أقاربهم، أو من كانوا لا يزالون أجنة في بطون أمهاتهم [١].

قبائل الأورات أو الأويرات: وهم قبائل بدائية جدا، وكانوا يقيمون في المنطقة الواقعة ما بين نهر أونن وبحيرة بايكال، وكان عددهم كبير جدا، وقد تشعبوا إلى عدة شعب. وكان لهم ملك يأتمرون بأمره. ولما جاء جنكيزخان خالفوه بعض الشئ، إلا أنهم سرعان ما قدموا له فروض الولاء والطاعة وتم ذلك على خير وجه. وقد صاهرهم جنكيزخان [٢].

- قبائل الأورات أو الأويرات: وإليها ينسب جنكيزخان المغولي حيث قدر له أن يولد بينهم، وهم يسكنون المنطقة الممتدة في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وهي منطقة تمتد في أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان بين جبال التاي غربا وجبال خنجان شرقا. وتبوأت تلك القبيلة مكانة مرموقة بين القبائل المغولية - بالذات - بعد ظهور جنكيزخان وقيادته للشعب المغولي [٣].

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٨.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٩، بيرتولد شبولير، المغول في التاريخ، ص ١١
(٣) عبد السلام فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ١٣، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٠.

سكني قبائل المغول:

وشكلت العوامل البيئية حياة المغول بشكل خاص، ذلك أن الظروف المناخية القاسية لمنغوليا باتت عاملا حال دون زراعة الأرض، باستثناء أماكن متفرقة، فضلا عن البرودة القاسية في فصل الشتاء مما أوجب العناصر السكانية إلى أن يستطيبوا حياتهم المدنية وفق ما تمليه تلك الظروف، فعملوا بالرعي ودأبوا على التنقل من مكان إلى آخر سعيا وراء العشب والكلأ.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الظروف البيئية التي شكلت حياة المغول في موطنهم الأصلي تدفع بهؤلاء إلى التنازع من جراء سعيهم خلف حياة أفضل بحثا عن الكلأ والمرعي، وصارت هذه الظروف بالضرورة تدفعهم إلى عقائد تلائم نظامهم العام.



إمبراطورية المغول

وواقع الأمر أن البيئة البدوية كثيرا ما تشكل مستوطنيها بعادات وتقاليد تتسم بالثبات وتظل مظاهرها الاجتماعية على وتيرة واحدة، وهكذا كانت العناصر المغولية في هضبة منغوليا تحيا حياة بدائية وفرسانا رحل يعيشون في الخيام تحكمهم قوانين وعادات قبلية لعل أكثرها ظهورا خضوعهم لرئيس القبيلة أو الطائفة، كما أنهم إلى جانب منازعاتهم القبلية فيما درجت عليه حياتهم قبل انطلاقهم إلى الغرب كانوا يعتمدون في طعامهم على الخيل، فيأكلون لحومها

ومنتجات ألبانها، ومما قيل في هذا السبيل أنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها بما في ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان الفقر وجدب البلاد سبيلا دفع بهم إلى أكل لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة لحوم أعدائهم، وبلغ بهم الأمر في إحدى غزواتهم في الصين - التي شنوا عليها عدة غارات حتى أتموا غزوها سنة ٦١٥ - أن كانوا يضحون بواحد من كل عشرة رجال في جيوشهم حينما تدعوهم الحاجة إلى ذلك ليكون طعاما للباقين(١).

وكان المغول يتنقلون للرعي وفق ما تمليه عليهم ظروف بيئتهم، حيث كانوا ينتقلون شمالا للمراعي الصيفية حينما تذوب الثلوج، على حين كانوا يتجهون صوب الجنوب مع الشتاء إلى المراعي الشتوية على ما جرت به عادة أهل السهوب.

وكانت ملابس المغول بسيطة جدا تتفق مع البيئة التي يعيشون فيها، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو أوبار الإبل أو جلود الحيوانات ولم يكن هناك فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكانت من عادة المغول أنهم لا يغيرون ملابسهم طوال فصل الشتاء، وأما في الصيف فيكتفون بتغييرها مرة واحدة كل شهر، ومن عاداتهم ألا يغسلوا ثيابهم أبدا بل يلبسونها حتى تبلي، وكان من عاداتهم أن يطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة (٢).

---

(١) محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس في الإسلام، ص ٩.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ١١٨ - ١١٩.

ولم تكن بيوت المغول أحسن حالا من غيرهم من البدو، إذ كانت تقام من الصوف، وكانت بيوتهم من أعلاها على شكل نصف كرة لا تجرها الريح ولا تنقلب بسهولة ولوكانت العواصف شديدة، وكانت بسبب ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفا، كما كانت تشبه إناء منقلبا قائما على حوائط دائرية من الصوف المثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة ببعضها البعض، بقطع من جلود الحيوانات، وقد ذكر البعض أن المغول كانوا يعملون ما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطي بالصوف ليضعوا فيها ما يخافون عليه من العطب وأنهم كانوا يدهنونها بشخم الحيوانات أو بلحم البقر، حتي لا تتأثر بالماء إذا عبروا بها الأنهار أو عند نزول المطر، كما أن بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عند نقلها عربات يتعلق في الواحدة اثنان وعشرون ثورا، وبعضها الآخر صغير يكفي لنقلها ثور واحد، أو تنقل على ظهور الجمال، وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة إلى الجنوب تجنبا لرياح الشمال والغرب القاسية، كما كانت النار تظل على الدوار مشتعلة في وسط البيت المغولي [(١)].

وكان ارتباط المغول ببيئتهم في شرق آسيا تدفع بهم إلى المضي قدما نحو الخير ومدافعة الشرور والآثام من خلال الالتجاء إلى الطبيعة، وصار من الطبيعي أن يلجأوا إلى الكهنة من الرجال الذين عرفوا بولعهم بعلوم الطبيعة كعلم الفلك ومعرفة وقوع الكسوف والخسوف في أوقاتها، وأخذوا عنهم الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة، ويعرف هؤلاء من رجال الدين باسم الشامان، وظل

(١) مصطفي طه بدر، محنة الإسلام الكبري، ص ٧٩.

الشامان هؤلاء موضع تقدير المغول واحتلوا مكانة رفيعة تتسم بالقداسة والإجلال، حتى صارت الوثنية عندهم تعرف بالديانة الشامانية، وكان المغول طبقا للعقيدة الشامانية يعبدون كل شيء يسموا على مداركهم وما يرهبهم، وينزل بهم خوفا وهلعا، فكانوا يعبدون طائفة من الظواهر الطبيعية. ومن ذلك الجبل والشجرة الكبيرة والشمس والقمر والبرق الخاطف والرعد القاصف.

وبلغ رجال الشامان نفوذا خفيا وسلطانا غريبا حتى قيل أن رؤوساء المغول كانوا يأخذون بآراء رجال الدين هؤلاء حينما يقبلون على عمل هام، وأنهم لا يعبئون الجيوش أو يدخلون حربا إلا بعد الرجوع إليهم، وأخذ موافقتهم، ومما قيل أن هؤلاء الشامان كانوا يعتمدون فيما يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقوق التي تظهر على أكتاف الحيوانات المحروقة، وأنهم كانوا يعتبرون الأغنام والوعول هي أصلح الحيوانات لهذا الغرض، خاصة إذا كانت مقدمة كقرابين للآلهة [(١)].

وكان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، فقد كانت القبيلة مقسمة إلى ثلاثة طبقات: (طبقة النبلاء وكانوا يلقبون بالألقاب مثل: بهادر أي الباسل، وتوبان أي النبيل، وستسن أي الحكيم.

والطبقة الثانية هي طبقة النوكور أي الأحرار، وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن جنكيزخان، وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

(١) محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس في الإسلام، ص ١٠.

والطبقةالثالثة، هي طبقة العامة، وطبقةالأرقاء، وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيسا، قد يكون ملكا (خان، قان) أو زعيما (باكي، أو بكي) وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال (أويرات، مركيت) [١].

أحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي:

بعد أن بدأت تتكون ملامح الإمبراطورية المغولية، بدأ جنكيزخان يتطلع إلى حدوده الغربية حيث العالم الإسلامي، حيث كانت المساحات الإسلامية في هذا الوقت تقترب من نصف مساحات الأراضي المعمورة في الدنيا.. كانت حدود البلاد الإسلامية تبدأ من غرب الصين وتمتد عبر آسيا وإفريقيا لتصل إلى غرب أوروبا حيث بلاد الأندلس.

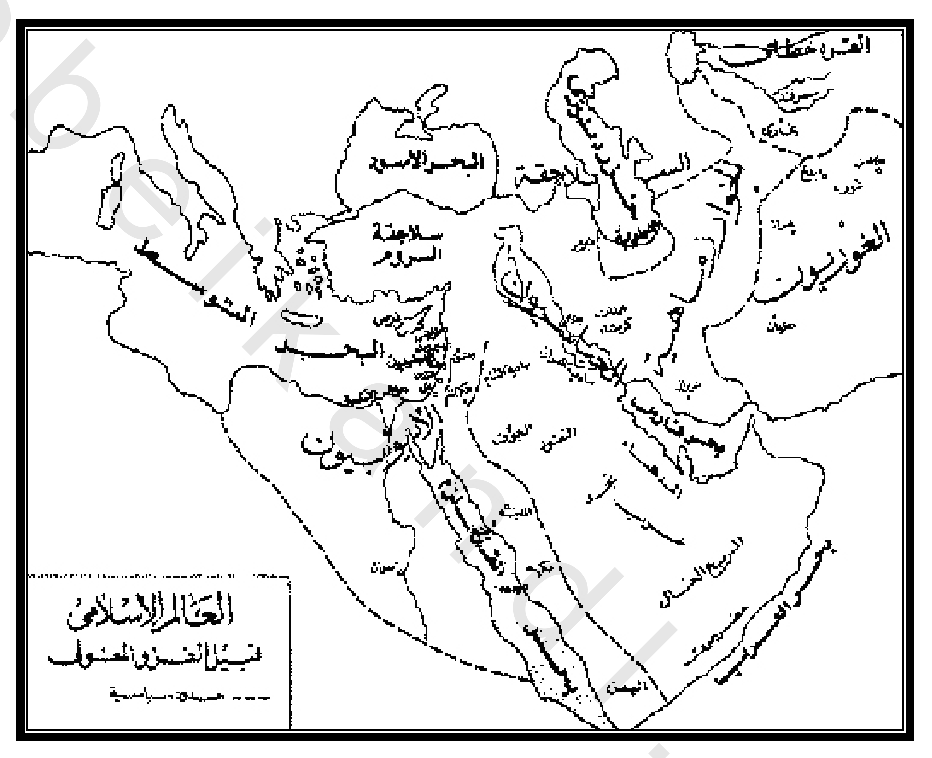
وهي مساحة شاسعة للغاية، لكن وضع العالم الإسلامي - للأسف الشديد - كان مؤلماً جداً.. فمع المساحات الواسعة من الأرض، ومع الأعداد الهائلة من البشر، ومع الإمكانيات العظيمة من المال والمواد والسلاح والعلوم.. مع كل هذا إلى أنه كانت هناك فرقة شديدة في العالم الإسلامي، وتدهور كبير في الحالة السياسية لمعظم الأقطار الإسلامية.. والغريب أن هذا الوضع المؤسف كان بعد سنوات قليلة من أواخر القرن السادس الهجري.. حيث كانت أمة الإسلام قوية منتصرة متحدة رائدة.. ولكن هذه سُنة ماضية: " وتلك الأيام نداولها بين الناس ".. [٢].

ولنلق نظرة على العالم الإسلامي في أوائل القرن السابع الهجري:

(١) د / السيد الباز العريني، المغول، ص ٣٨.
(٢) د. راغب السرجاني، قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، ص ٥.

١ـ الخلافة العباسية:

وهي خلافة قديمة جدًا؛ فقد نشأت بعد سقوط الدولة الأموية العظيمة في سنة ١٣٢ هـ.. وكانت - في مطلع القرن السابع الهجري - قد ضعفت جداً، حتى أصبحت لا تسيطر حقيقة إلا على العراق.



الإمارات والدويلات الإسلامية في بداية القرن السابع الهجري

العربي وخوزستان، وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥م) واتخذت الخلافة العباسية من بغداد عاصمة لها منذ سنة ١٣٢ هجرية...، ولم تعد قادرة على أن تبسط سلطانها على ما جاورها من أقاليم، وحول نطاق الخلافة العباسية في العراق العربي وخوزستان عشرات من الإمارات المستقلة استقلالاً

حقيقياً عن الخلافة، وإن كانت لا تعلن نفسها كخلافة منافسة للخلافة العباسية.. فتستطيع أن تقول: إن الخلافة العباسية كانت " صورة خلافة " وليست خلافة حقيقية.. وكانت كالرمز الذي يحب المسلمون أن يظل موجوداً حتى وإن لم يكن له دور يذكر.. تماماً كما يُبقى الإنجليز الآن على ملكة إنجلترا كرمز تاريخي فقط، دون دور يذكر لها في الحكم، بخلاف الخليفة العباسي الذي كان يحكم فعليًا منطقة العراق باستثناء الأجزاء الشمالية منها. وكان الخليفة العباسي الناصر يظن أنه يستطيع النهوض بالخلافة من جديد ويعيد لها هيبتها، ويعمل على اتساع رقعتها بمجرد أن شعر بضعف السلاجقة وانقسام دولتهم، وبعد أن خفت قبضتهم عن الخلافة العباسية، فوضع كل أمله في حكام الدولة الخوارزمية ليزيح من طريقه دولة السلاجقة، ولكن سرعان ما اتضح له أنه كان واهما في ظنه، إذ تكشفت له الحقيقة المرة، وهي أن الخوارزميين لهم أطماع إقليمية أكثر من مجرد مساعدة الخليفة العباسي، بل كانوا يهدفون ليس لمجرد السيطرة على الخلافة بدلا من السلاجقة ومن قبلهم البويهيين فقط بل إلى إزالة الخلافة العباسية من الوجود تماما [١].

والحقيقة أنه كان يتعاقب على حكم المسلمين في العراق خلفاء من بني العباس.. حملوا الإسم العظيم الجليل: " الخليفة "، ولكنهم (في هذه الفترة من القرن السابع الهجري) ما

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٦٩.

اتصفوا بهذا الاسم أبداً، ولا رغبوا أصلاً في الاتصاف به؛ فلم يكن لهم من همّ إلا جمع المال، وتوطيد أركان السلطان في هذه الرقعة المحدودة من الأرض.. ولم ينظروا نظرة صحيحة أبداً إلى وظيفتهم كحكام.. لم يدركوا أن من مسؤولية الحاكم أن يوفر الأمان لدولته، ويقوي من جيشها، ويرفع مستوى المعيشة لأفراد شعبه، ويحكم في المظالم، ويرد الحقوق لأهلها، ويجير المظلومين، ويعاقب الظالمين، ويقيم حق الله عز وجل على العباد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدافع عن كل ما يتعلق بالإسلام، ويوحد الصفوف والقلوب...

لم يدركوا هذه المهام الجليلة للحاكم المسلم، كل ما كانوا يريدونه فقط هو البقاء أطول فترة ممكنة في كرسي الحكم، وتوريث الحكم لأبنائهم، وتمكين أفراد عائلتهم من رقاب الناس، وكذلك كانوا يحرصون على جمع الأموال الكثيرة، والتحف النادرة، ويحرصون على إقامة الحفلات الساهرة، وسماع الأغاني والموسيقى والإسراف في اللهو والطرب.

حياة الحكام كانت حياة لا تصلح أن تكون لفرد من عوام أمة الإسلام فضلاً عن أن تكون لحاكم أمة الإسلام..

ضعفت الخلافة العباسية ضعفا شديداً في هذه الفترة نتيجة لتسلط طوائف العسكر المختلفة على الخليفة في بغداد، ومن المعروف أن العسكر إذا تركوا ثكناتهم وانحرفوا عن مهمتهم، وحركوا قوتهم باتجاه عاصمة الدولة فإن هؤلاء العسكر

يضلون الطريق فلا يعرفون طريق العودة إلى ثكناتهم ولا يستطيعون إصلاح الأمور السياسية، ويورطون أنفسم والبلاد في مشاكل خطيرة، ذلك لأن العقلية العسكرية التي تسيطر عليهم تجعلهم يلجأون إلى استخدام القوة والعنف في كل المشاكل التي يواجهونها.

فأخذوا يخلعون الخلفاء متي شاؤوا وإذا حاول الخليفة إعادتهم إلى المكان الطبيعي الذي يجب أن يكونوا فيه فإنهم يقتلونه أو يسعون إلى إحداث نقص أو عاهة في الخليفة تبرر لهم طرده لأنه ناقص الأهلية، فسملوا عيون كثير من الخلفاء، مثلما حدث مع الخليفة العباسي المقتدر فقد ضربه أحدهم على عاتقه فأسقط ذراعه وذبحه آخر وسلبوا كل ما كان معه من أشياء ثمينة حتى سراويله، وتركوه في موضعه ملقي على الأرض حتى جاء رجل ودفنه في موضعه، ومثل الخليفة المستنجد الذي أدخلوه الحمام ثم قتلوه استعجالا لموته. وسملوا عين الخليفة القاهر، وكان تارة يحبسونه وتارة يخلي سبيله، ثم رآه البعض وهو يسأل الناس الصدقة أمام جامع المنصور، وسملوا عين الخليفة المتقي بالله، وحبسوا أحدهم في كهف وقفلوا عليه بالحجارة والطين دون أن يستجيبوا لرجائه أو استرحامه بعد أن أذاقوه أشد العذاب [١].

جرائم لا يتصور الإنسان حدوثها. يرتكبونها ضد

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ / ١٧٨، ١٢ / ٢٦٧، ابن طبا طبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٨٤، ٢٦٥.

الشخص الذي يمثل الدوله الإسلامية وهيبتها. والويل كل الويل لمن يعترض العسكر وما أكثر المبررات التي يلجأ إليها هؤلاء المجرمون لتبرير جرائمهم وحماقتهم وتبرير تركهم لواجب الدفاع عن ثغور الدولة وليبقوا في الأجواء المعطرة داخل المدن يحاربون ولاة الأمور تحت شعار الإصلاح، ويقتلون الناس تحت شعار تأمين الحرية. وما أسهل أن يقتل هؤلاء إخوانهم أو يعذبونهم، أما الثغور الإسلامية وأما الدفاع عن المسلمين فشيء عارض فإذا جاء وقته وجدتهم لا يجيدون إلا الهرب من وجه الأعداء دون أن يثبتوا في معركة وحدة مشاركين النساء والأطفال، مبررين ذلك بشتي الحجج والمعاذير الواهية. ويذكرني موقف هؤلاء الزعماء بقول الشاعر المعاصر:

يا شعب قد حلقت زعا ::: متك البلاد فقل نعيما
ولتسقط الأوطان ولـ ::: يبق الزعيم لنا زعيما[1]

هذه هي أوضاع الخليفة قبل الحروب التي شنها المغول على البلاد الإسلامية ولا يمنع هذ من ظهور خليفة قوي تساعده بعض الظروف على القيام ببعض الإصلاحات ولكنها صحوات تشبه صحوات الذي يعاني سكرات الموت إلا أنها كانت على أي حال رمزاً لوحدة المسلمين، ومعقدا لأمالهم، راجين من الله أن يبعث لهم من الرجال من يعيدون لها كامل قوتها وعزتها ومجدها.

(١) البيتان للشاعر أحمد فرح عقيلان.

لقد ضاعت هيبة الخلافة.. وتضاءلت طموحات الخليفة!..

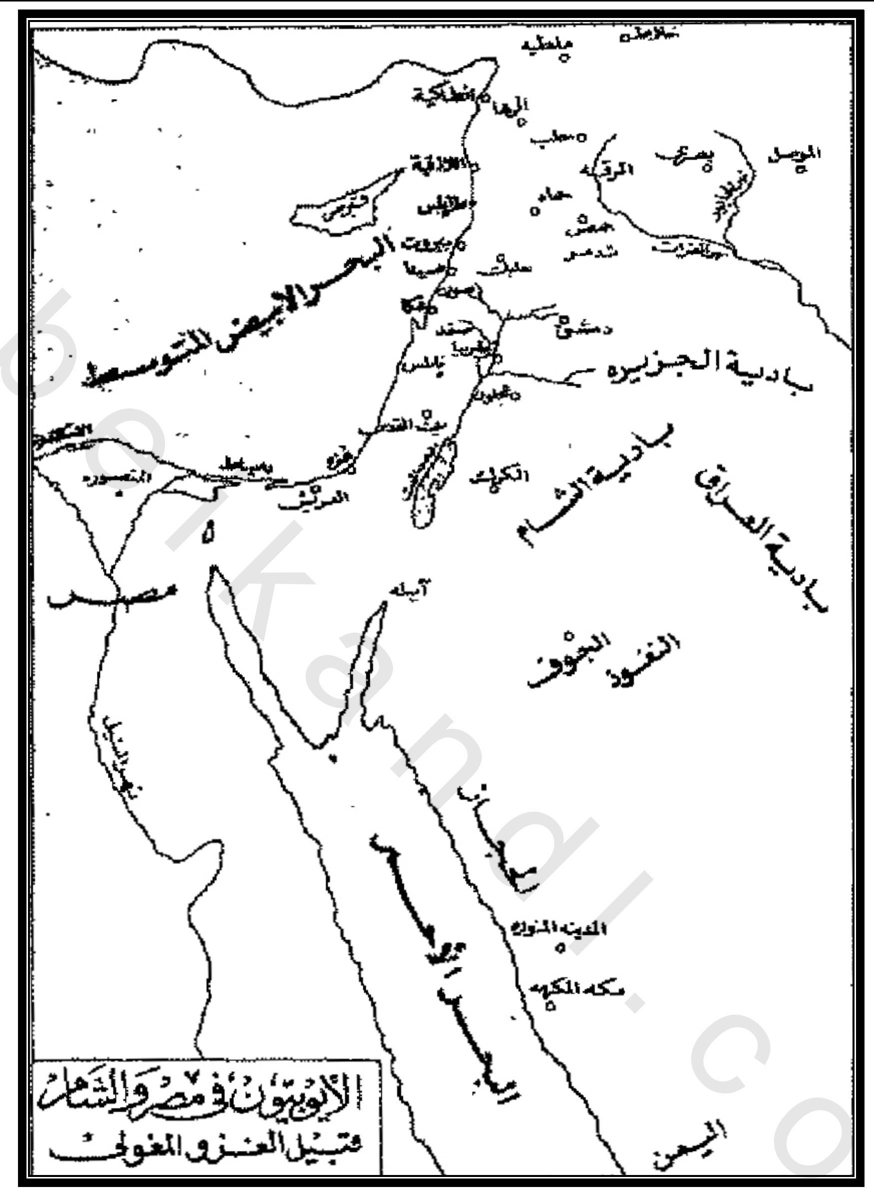
كانت هذه هي " الخلافة " العباسية في أوائل القرن السابع الهجري..[١].

٢ـ الأيوبيون في مصر والشام والحجاز واليمن:

كان صلاح الدين الأيوبي شخصية إسلامية فذة ومثلا أعلى للهمة والشجاعة، وكان قائدا عظيما وسياسيا محنكا نهج نهجا إسلاميا واقتفي أثر سلفه الصالح السلطان نور الدين محمود في تشجيع النزعة الإسلامية، فتوحدت في عهد صلاح الدين قلوب المسلمين في مصر والشام وأصبحوا يدًا واحدة فتحققت لهم أروع الانتصارات على أعدائهم الذين كانوا جميع دول أوروبا وممالكها واستطاع أن يأسر في معركة حطين سنة (1187 م) عدداً من ملوك أوروبا وأمرائها وكان من يري القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى[٢].

وقد فتح الله على المسلمين « بيت المقدس » وعدد آخر من البلدان التي كانت في أيدي الصليبيين، كما كان هذا النصر سببا في ضعف الصليبيين والقضاء عليهم فيما بعد.

(١) د. راغب السرجاني، قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، ص٦.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ١١ / ٢٢٤.



نعم صلاح الدين الأيوبي الذي كان وما زال مثلا أعلي ورمزا من رموز الجهاد في سبيل الله، فقد كان هذا الرجل العظيم قائدا محنكا وسياسيا بارعا، رأي في الوحدة العربية ملجأ وملاذا وشرطا أساسيا للانتصار على الصليبيين، واستعادة الحقوق والأراضي

الإسلامية المسلوبة، وعلى رأسها المقدسات الإسلامية في فلسطين، فكتب إلى الخليفة العباسي المستضيء رسالته الخالدة التي تعبر عن هذه الحقيقة وهذا المبدأ في أجلي بيان: " ولو أن أمور الحرب تصلحها الشراكة، لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين، ولا ساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير، لم يحتمل في اللقاء إلا العدة " [١].

ولكن - للأسف - لم يكن خلفاء صلاح الدين على شاكلته.. ولم يراعوا أن سبب قيام دولتهم ونجاحها في هزيمة الصليبيين هو وحدة الصف وإعلاء فريضة الجهاد، فأهمل الجهاد في سبيل الله، وتعرضت الوحدة الإسلامية التي كونها صلاح الدين وقضي عمره مجاهدا من أجل تحقيقها للانهيار، فقد قامت المنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي حول تقسيم التركة التي تركها صلاح الدين وتنازعوا الحكم فيما بينهم، وقسّموا الدولة الأيوبية الموحدة (التي هزمت الصليبيين في حطين هزيمة منكرة) إلى ممالك صغيرة متناحرة!!

فاستقلت الشام عن مصر، واستقلت كذلك كل من الحجاز واليمن عن الشام ومصر.. بل وقسمت الشام إلى إمارات متعددة متحاربة!!.. فانفصلت حمص عن حلب ودمشق.. وكذلك انفصلت فلسطين والأردن، وما لبثت الأراضي التي كان حررها صلاح الدين من أيدي الصليبيين أن تقع من جديد في أيديهم بعد هذه الفرقة، ولا حول

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢ / ٤٨.

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!..

وكثيرا ما كان يحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد، فيستعين الواحد منهم بالآخر على عدو ثالث، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على إخوانهم في النسب والعقيدة بالأيوبيين.

وكان من الطبيعي أن يغتنم الصليبيون تلك الفرصة فيحاولوا الاستيلاء على مصر التي كانت بمثابة القلب لدولة المسلمين، فقد أيقن الصليبيون فشل مشاريعهم الصليبية في الشام بسبب مصر، فكان التفكير في ضرب العالم الإسلامي في قلبه النابض مصر، ولذلك فقد تكررت محاولاتهم لغزو مصر والسيطرة عليها ولكن باءت محاولاتهم جميعا بالفشل، ولكن نجحت محاولاتهم في اقتطاع جزء كبير من بلاد الشام من أيدي الأيوبيين بسبب كثرة منازعاتهم بعضهم بعضا ففشلوا وذهبت ريحهم على أيدي مماليكهم في مصر وبلاد الشام، وقامت على أنقاض دولتهم دولة المماليك [١].

ولم تكن بلاد الشام بأحسن حالا مما يحدث في مصر بحكم الجوار والتبعية للأيوبيين ومن بعدهم للمماليك، فقد كانت تعيش حالة من الضعف والإهمال الشديد، والدسائس والمؤامرات،والانقسامات، ونتيجة لهذه الحالة لم تستطع مقاومة التيار الصليبي الذي اقتطع جزءا كبيرا من الجسد الإسلامي في بلاد الشام، ولما شن المغول هجماتهم على بلاد الشام عجز حكامه أن يحركوا ساكنا بل كان منهم من مد يده - تحت ضغط الخوف والهلع - لمساعدة المغول ضد

(١) للمزيد من التفاصيل عن تلك الحقبة التاريخية اقرأ تاريخ الدولة الأيوبية للمؤلف، من نشر دار الإيمان للطبع والنشر بالمنصورة.

إخوانه في العقيدة. وأفضل ما فعله الكثير منهم أنهم وقفوا يراقبون الأحداث من غير اهتمام ولا بعد نظر منتظرين عاقبتهم الآتية.

٣ـ بلاد المغرب والأندلس:

كانت تحت إمرة " دولة الموحدين ".. وقد كانت فيما سبق دولة قوية مترامية الأطراف تحكم مساحة تمتدّ من ليبيا شرقاً إلى المغرب غرباً، ومن الأندلس شمالاً إلى وسط إفريقيا جنوباً.. ومع ذلك ففي أوائل القرن السابع الهجري كانت هذه الدولة قد بدأت في الاحتضار.. وخاصةً بعد موقعة " العقاب " الشهيرة سنة ٦٠٩ هجرية، والتي كانت بمثابة القاضية على هذه الدولة الضخمة.. دولة الموحدين..[١].

٤ـ الدولة الخوارزمية:

لقد أسس الدولة الخوارزمية « نوشتكين » الذي كان عبداً أشتراه أحد الأمراء السلاجقة ء وتولى بعض المناصب العليا إلى أن أصبح حاكما على إقليم خوارزم وتلقب بلقب خوارزم شاه سنة ٤٩٠هـ.

وعندما شعرخلفاء « نوشتكين » بضعف الدولة السلجوقية أخذوا يعملون على الإستقلال عنها، ولما اعتلا السلطان " تكش " ٥٦٨ ـ ٥٩٦ هـ " ألعرش الخوارزمي وسع نفوذه مستغلا الخلاف الذي حصل بين « طغرل الثالث " آخر السلاطين السلاجقة والخليفة العبا سي «الناصرلدين

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ص ٦، وعن أحداث تلك الفترة أنظر للمؤلف: تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح إلى السقوط، من نشر دار الإيمان للطبع والنشر بالمنصورة.

الله » فوقف تكش هذا إلى جانب الخليفة وحارب ". طغرل الثالث » وقتله وضم أملاكه إلى سلطانه، وفي وقت قصير استقل على العراق العجمي، وتقلد حكم جميع هذه البلاد رسميا من الخليفة العباسي، وبهذا طويت صفحة السلاجقة من المشرق.

وهكذا صارت الدولة الخوارزمية تتسع شيئا فشيئا على حساب الأقاليم المجاورة حتى بلغت أقصى اتساعها في عهد السلطان « علاء الدين محمد خوارزم شاه » 596 - 617 هـ.

وكانت الدولة الخوارزمية دولة مترامية الأطراف، وكانت تضم معظم البلاد الإسلامية في قارة آسيا.. تمتد حدودها من غرب الصين شرقاً إلى أجزاء كبيرة من إيران غرباً.. وكانت هذه الدولة تجاور دولة القراخطائيين [(١)] التي تفصل بينها وبين جنكيزخان، ولكن الخوارزميون لم يقرؤوا الجغرافيا جيدا فعملوا على إزالة هذه الدولة ليصبحوا وجها لوجه مع جنكيزخان...

---

(١) القراخطائيون قوم من المغول الترك، أقاموا دولة قوية في بداية القرن العاشر الميلادي في منشوريا وشمال الصين، ولما انقضي عهد هذه الدولة في تلك البقاع، ذهب الفارون من فلولها، وأقاموا بين الصين وتركستان، واتخذوا من ملوك الأويغور في تركستان حماة لحدودهم مع الصين، نظير جرايات وإقطاعيات، ولما ساءت العلاقات بين هؤلاء القراخطائيين وبين ملوك التركستان المسلمين، زحف القراخطاي على بلادهم، وقضوا على الدولة الخاقانية (الأويغورية) عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١م واستولوا على كاشغر وختن... ثم زحفوا على بلاد ما وراء النهر، واستولوا عليها وأخذوها من يد السلاجقة، وامتدت دولتهم في بلاد القرغيز شمالا إلى مدينة بلخ جنوبا، ومن خوارزم غربا إلى صحراء جوبي شرقا، وكان هؤلاء القراخطائيين غير مسلمين، ولذلك كان التعاون بينهم وبين النوعية المسلمة في تركستان قائما، بما يسهل القضاء على دولتهم. دائرة المعارف الإسلامية، ١ / ٤٢ - ٤٥، محمد الخضري، تاريخ الدولة العباسية، ط القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٩٢.

وكانت قبائل الخطا قد نزحت منذ النصف الأول من القرن السادس الهجري من موطنها الأصلي في شمال الصين، على إثر الاضطراب الذي ساد هذه المنطقة، واستقروا غرب التركستان حيث كونوا دولة عرفت باسم " القراخطائيين " واستطاع ملوك هذه الدولة - الذين كانوا يلقبون بلقب " كورخان " أي: ملك الملوك - توسيع مملكتهم الجديدة شرقا وغربا حتى امتدت إلى صحراء جنوبي إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا، وحدث أنهم تغلبوا على السلاطين المسلمين في بلاد ماوراء النهر وأخضعوها لحكمهم المباشر وقبلوا منهم دفع الجزية السنوية، وأقاموا الحاميات العسكرية فيها لحمايتها وضمان إخضاعها.

ولما كانت هذه المناطق من الأتراك المسلمين، فإن القراخطائيين قد أبقوا عليهم، واكتفوا بأخذ الخراج منهم، وأقاموا في بلادهم الحاميات العسكرية. وكان نصرة الدين عثمان خان بن إبراهيم (٦٠٠ - ٦٠٩ هـ / ١٢٠٣ - ١٢١٢م) هو آخر ملوكهم، وقد اختار الإقامة في سمرقند، وقد تلقب بلقب سلطان السلاطين [١].

ونتج عن استيلاء القراخطائيين على منطقة بلاد ماوراء النهر، أنهم أصبحوا يجاورون ممالك الدولة الخوارزمية، وقد قبل سلاطين الدولة الخوارزمية أن يدفعوا لهم الجزية السنوية والتي قدرت بحوالي ٣٠٠٠ دينار من الذهب، مقابل أن لا يتعرضوا لهم بسوء، وقد ظل هذا الأسلوب متبع حتى عهد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه.

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٦٦.

ولكن هذا السلطان لم يكن راضيا عن هذه التبعية، وأن يخضع المسلمون لسلطة حكام وثنيين بوذيين، لا سيما وأنه قد استولي على بلدان كثيرة، وبدأ يشعر بالقوة، ووجد أن تبعيته لملك بوذي يعتبر حطا من شأنه وتقليلا من قيمته،وبدأ يتطلع إلى خلع قيود التبعية للقراخطائيين بل والتفكير في التخلص منهم نهائيا، وقد شجعه على ذلك ما كان يصله من عثمان خان صاحب سمرقند من رسائل تحضه على مهاجمة القراخطائيين. وفيها تعهد صريح من عثمان بأن يكون حليفا أمينا لخوارزم شاه وتابعا مخلصا له، وبأن يدفع له الجزية السنوية التي كان يدفعها للخطا، بل ويسك العملة باسمه، ويدعوا له على منابر سمرقند وبخاري، كما يتبين من هذه الرسالة " إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة المال وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة والسكة " [١].

ولم يكن عثمان خان فقط هو الذي شجعه على القيام بهذه الخطوة بل، أيده وساعده على اتخاذ هذه الخطوة كوجلك خان [٢] الذي كان

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ٩ / ٢٩١ فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٦٧.

(٢) بعد أن هزم جنكيزخان قبائل النايمان وقضي على ملكهم تايانك خان فر ابنه كوجلك خان في جمع من أصحابه وأتباعه، ودخل في خدمة دولة القراخطائيين وحاكمها كورخان، واستغل الخلاف بينه وبين خوارزم شاه وتظاهر بأنه يسعي لمساعدة كورخان ضده، فكون جيشا من أتباعه وبني جلدته الذين فروا من وجه جنكيزخان و لحقوا به، وأظهر نفسه في ثوب التابع المخلص لكورخان، حتى إذا لمس منه ضعفا، لبس جلد النمر، وصمم على الغدر

يجاور ممالك القراخطائيين من جهة الشرق، فأرسل رسالة سرية إلى السلطان محمد ينبئه فيها أنه من ناحية الشرق، وخوارزم شاه من ناحية الغرب يمكنهما القضاء نهائيا على ممالك القرا خطائيين واستئصال شأفتهم نهائيا واقتسام أملاكهم، وانتهي الأمر بإزالة الدولة في سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م.

وفي الحقيقة كان إزالة هذه الدولة خطأً كبيرًا ارتكبه السلطان محمد، فبإزالة هذه الدولة أتاح السلطان محمد بتصرفه هذا لكوجلك خان أن يجاوره وهو المعروف عنه الخيانة وعدم حفظ الجميل لسادته، كما أنه لم يكن خافيا على أحد العداوة الشديدة التي كانت بينه وبين جنكيزخان، ولم يكن المتوقع أن يزول أثر هذه العداوة بسهولة، ولم يكن جنكيزخان ليغفل عن تصرفاته وأخباره، ولذلك سرعان ما تقدم جنكيزخان إلى كوجلك خان وقضي على دولته وأعدمه، وأصبح جنكيزخان يجاور الدولة الخوارزمية وما يعني ذلك من خطر محدق بهم وبدولتهم(١).

بولي نعمته، والقضاء عليه واتفق مع السلطان محمد خوارزم شاه على إزالة دولة القراخطائيين واقتسامها بينهما، فصادف ذلك هوي في نفس خوارزم شاه ووافق على التدخل، فانتصر على كورخان وأسره وزج به في السجن وتزوج ابنته التي أقنعته بترك المسيحية والعودة إلى البوذية، وأخذ كوجلك يوسع دولته فأخضع كثيرا من القبائل المجاورة ومد سلطانه من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية، ولكنه سام المسلمين في بلاده الذل والهوان حيث أجبرهم على ترك الإسلام والتدين إما بالبوذية أو المسيحية، وأجبهم على التزي بزي القراخطائيين، وانقطع الآذان وحيل بين المسلمين وبين أداء شعائرهم الدينية، وظل هذا الوضع قائما حتى تمكن جنكيزخان من القضاء على كوجلك وعلى دولته وقتلوه في سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٥٧.

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٦٧ ـ ٦٨.

وكانت هذه الدولة على خلاف كبير مع الخلافة العباسية.. وكانت بينهما مكائد ومؤامرات متعددة، فقد حاول السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه أن تكون له المنزلة الأولي في بغداد، وكان يرغب في أن تذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد، كما كان الوضع في عهد السلاجقة والبويهيين من قبلهم، فلما عجز عن تحقيق ذلك بالطرق الودية، لم يجد بدا من استعمال القوة، فصمم على غزو بغداد.

وكان بداية الخلاف الحقيقي عندما أهان الخليفة العباسي الناصر لدين (٥٧٥ - ٦٢٢هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥م) رسل السلطان محمد عندما قدموا له الهدايا والعلم التي أهداها إلى الحجاج، في حين أنه قبل الهدايا والعلم التي وصلته من جلال الدين الحسن الإسماعيلي، المشهور بـ " نومسلمان " من خلفاء الحسن بن الصباح،ورحب برسله.

كما أن الخليفة العباسي كان يناصر ويؤيد معارضي ومعاندي السلطان الخوارزمي، فبعد أن استولي خوارزم شاه على غزنة عاصمة الغوريين سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م عثر على رسائل رسمية من الخليفة العباسي تحث شهاب الدين الغوري سلطان الغوريين على مهاجمة السلطان محمد الخوارزمي والقضاء عليه.

كما أن الخليفة العباسي الناصر ظل في تدبير المكائد والدسائس للخوارزميين، وتأيد كل خروج عليهم، فقد حرض القراخطائيين، وأبدي استعداده للتحالف معهم، ووعدهم بتأيد سلطانهم على البلاد التي يسيطرون عليها، وأثار على الخوارزميين أتابكة فارس وأذربيجان وزين لهم الاستيلاء على العراق العجمي وانتزاعه من

الخوارزميين، وادهي وأمر من ذلك أنه تحالف مع الإسماعيليين للغرض نفسه، بل إنه راح يحتضن عدة أشخاص من الحشاشين الفداوية ويحركهم ضد الخوارزميين، فقتلوا " أغلمش " نائب الخوارزميين في العراق العجمي[١].

وكان رد السلطان علاء الدين الخوارزمي أن أعلن تشيعه، وعمل جاهدا على إسقاط الخلافة العباسية وإقامة الخلافة الشيعية وجمع الفقهاء وأئمة الدين في دولته، وحصل منهم على فتوى صريحة مؤداها أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من العلويين أصحاب الحق الشرعي فيها، فينبغي أن يختار لهذا المنصب رجل من نسل الحسين بن على بن أبي طالب، وأن الخليفة العباسي قد ارتكب عدة مخالفات توجب على كل مسلم مقاومته. وأصدر السلطان علاء الدين أمرا بعزل الخليفة العباسي، وأسقط اسمه من السكة والخطبة، ووقع اختياره على رجل علوي من مدينة ترمذ اسمه " علاء الملك " فنادي به خليفة للمسلمين وخطب له على المنابر وضرب النقود باسمه.

وكان السلطان علاء الدين خوارزم شاه يهدف من وراء ذلك كله أن يكسب عمله صفة الشرعية، وليستميل أهالي تلك البلاد التي تجاوره لا سيما وأن أكثرهم يدينون بالمذهب الشيعي، فيكون هذا حافزا لهم على الانضمام إليه لمحاربة

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٧٠.

الخليفة العباسي[١].

ووقع الصدام المسلح بين الفريقين عندما قاد السلطان محمد جيشه قاصدا بغداد سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م. وفي العراق العجمي التحم بالأتابك سعد بن زنكي الذي كان توجه إلى تلك الديار بقصد الاستيلاء عليها بعد أن أطمعه فيها الخليفة العباسي، ولكن السلطان الخوارزمي انتصر عليه وأسره، وأخيرا أطلق سراحه، بعد أن قبل الدخول في طاعته، وتعهد له بأن يتنازل له عن ثلث خراج إقليم فارس سنويا وإعطائه بعض الامتيازات الأخرى[٢].

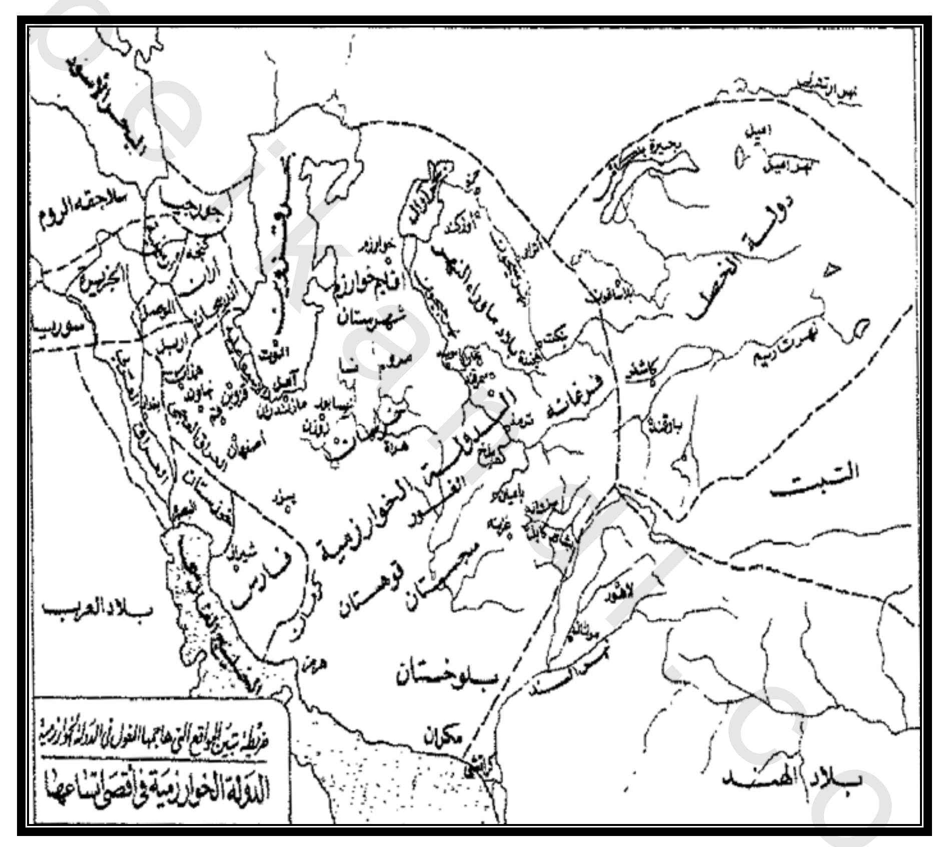
وكذلك أوقع خوارزم شاه الهزيمة بأوزبك بن البهلوان، أتابك أذربيجان، الذي جاء هو الآخر بتحريض الخليفة العباسي، ولكن خوارزم شاه تمكن من استمالته وأدخله في طاعته بعد أن أمنه على حياته، وضرب السكة وأقام الخطبة باسمه وأرسل إليه الهدايا والتحف الثمينة[٣].

ولما وجد الخليفة العباسي أن كل القوي التي اعتمد عليها في محاربة خوارزم شاه ضعيفة ومنحلة ولم تستطع تلبية تطلعاته، ولم تقف في وجه هذا العدو القوي، وتأكد من إصرار السلطان محمد بن خوارزم شاه على غزو بغداد، وأنه

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٧٠ - ٧١.
(٢)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣١٣، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٧١.
(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٧١.

لا قبل له بمقاومته لم يجد مفرا من أن يلجأ إلى جنكيزخان القائد المغولي الأعلي، والذي كان قد ذاع صيته وانتشر في شرق آسيا وغربها، فرأي فيه الخليفة الرجل الوحيد الذي يستطيع أن ينقذه من تلك الورطة، ويوقف خوارزم شاه عند حده [١].



وعلى ما يبدو أن جنكيزخان لم يلب الدعوة في حينها بل لم يعرها أي اهتمام، والدليل على ذلك أن الخليفة العباسي لجأ إلى حيلة

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣ / ٣٦١، المقريزي، السلوك، ١ / ٢١٨، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٧١.

سياسية بأن أرسل رسولا من قبله هو شهاب الدين السهروردي ليعرض على خوارزم شاه الصلح وتفادي الصدام المسلح، ولكن هذا الرسول لم يستطع إثناء الخليفة العباسي عن مقصده بغزو بغداد [١].

وعلى ما يبدو أن السلطان الخوارزمي كان عازما على تطبيق خطته القاضية بغزو بغداد وخلع الخليفة العباسي بالقوة العسكرية، فقد خرج على رأس جيش جرار باتجاه بغداد، ولم ينقذ بغداد والخليفة العباسية من نيته التي أضمرها سوي هبوب عاصفة ثلجية شديدة فأهلكت عددا كبيرا من الجنود والدواب وأتلفت مؤن الجيش، وتعرضت بقايا الجيش المتبقية لهجمات الأتراك والأكراد وتشتت شمل الجنود الخوارزمية، ولم يجد السلطان الخوارزمي بدا من العودة إلى بلاده ببقايا جيشه ممن كتبت لهم النجاة [٢].

والخلاصة أن مالت الدولة الخوارزمية في بعض فترات من زمانها إلى التشيع، وكثرت فيها الفتن والانقلابات، وقامت في عصرها حروب كثيرة مع السلاجقة والغوريين والعباسيين وغيرهم من المسلمين.. وظل السلطان الخوارزمي يخل في حروب جانبية لا طائل منه حتى أفجأته قوات المغول فلم يستطع الصمود في وجهها بعد أن أنهك قواته ولم يجن من ورائها سوي الخراب والدمار.

٥ـ الهند:

كانت تحت سلطان الغوريين في ذلك الوقت، وكانت

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٦ / ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٩.

الحروب بينهم وبين دولة خوارزم كثيرة ومتكررة..[1].. فلم يلبث السلطان محمد خوارزم شاه بعد أن اشتد ساعده أن دخل في معارك مع الغوريين الذين كانوا يسكنون شرقي خراسان وقسما من أفغانستان الحالية وغرب الهند وكانت هراة، وغزنة، وبلخ، وكابل، وسجستان، وكرمان ضمن أملاكهم وانتهت المعارك بهزيمة الغوريين بعد أن استعان السلطان محمد خوارزم شاه بالقراخطائيين الكفار ضدهم.

وبعد ذلك ارتكب خوارزم شاه حماقة بمحاربته القراخطائيين وهزيمتهم لأن هؤلاء كانوا سدا منيعاً بين المغول والمسلمين، وبذلك أصبح المغول وجهًا لوجه مع المسلمين.

٦ـ إسماعيلية فارس:

(وهي إيران الحالية)، فقد كانت أجزاء من فارس تحت سلطان الخوارزميين، وكانت الأجزاء الغربية منها ـ والملاصقة للخلافة العباسية ـ تحت سيطرة طائفة الإسماعيلية، وهي طائفة من طوائف الشيعة كانت شديدة الخبث، ولها مخالفات كثيرة في العقيدة جعلت كثيراً من العلماء يخرجونهم من الإسلام تماماً.. حيث خلطت طائفة الإسماعيلية الدين بالفلسفة، وكانوا أصلاً من أبناء المجوس؛ فأظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية، وتأولوا آيات القرآن على هواهم، وهم إحدى فرق الباطنية، وقد سميت بالإسماعيلية لأن أتباعها كانوا

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول، ص ٦٠ ـ ٦٨.

ينادون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، إذ كان لجعفر الصادق أربعة أولاد أكبرهم إسماعيل الذي كان حفيدا للحسن بن على رضي الله عنه من جهة أمه، وقد عهد أبيه إليه بالإمامة من بعده. ولكنه كان يعاقر الخمر، وملتفا حول أبي الخطاب الأسدي هذا الرجل الفاسق شارب الخمر الولوع بالنساء، الذي بدأ داعيا لإمامة جعفر الصادق، ثم بالغ في حب جعفر الصادق ووصل به الحد إلى تأليه جعفر الصادق، فلما رأي جعفر الصادق ذلك من أبو الخطاب وأقصاه عنه، فاشتدت صلته - أبو الخطاب - بابنه إسماعيل وأخذ يعلمه مذاهب الأقدمين من الزنادقة والملاحدة والباطنية كالمزدكية والمانوية والزرادشتية وغيرها من مذاهب أهل الضلال (١).

ولما رأي جعفر الصادق تقرب ابنه إسماعيل من أبو الخطاب، أقصاه وسحب منه الوصية بالإمامة وأسندها إلى ابنه الآخر موسي الكاظم (٢).

كما عرفوا بالباطنية؛ لأنهم كانوا يظهرون خلاف ما كانوا يبطنون، ويدعون بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويل، وكانوا يقولون: إن للشريعة باطنا وظاهرا، والأصل هو الباطن، فإذا كان الناس عالمين بباطن الشرع فلا خلل يحدث إذا استهانوا بالظاهر (٣).

وهم الذين يؤمنون بأن لكل أمر ظاهر في الدين أمرًا آخر باطنًا

(١) رجب محمود بخيت، الشيعة... التاريخ الكامل، ط دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، المنصورة، ص ١٧٩.
(٢) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٣٤، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٧٩.
(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٢١، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٧٩.

خفيًّا لا يعلمه إلا بعض الناس (وهم من أولئك الناس) ولا يُطلعون أحدًا على تأويلاتهم، إلا الذين يدخلون معهم في ملتهم، وهم ينكرون الرسل والشرائع، ومن أهم مطالبهم " الملك والسلطان "؛ ولذلك فهم مهتمون جدًا بالسلاح والقتال..

واشتهرت الإسماعيلية باسم الملاحدة؛ لأنهم غيروا وبدلوا في أركان الدين، ودعموا أرائهم بالأقوال التي وصلت إليهم عن فلاسفة اليونان، كما اقتبسوا بعض المبادئ من مذاهب المجوس السابقة مثل المانوية والمزدكية والزرادشتيه، وغيرها من مذاهب الملاحدة.

وسموا بذلك بعدة تسميات مثل السبعية نسبة لاعتقادهم بأن دور الإمامة سبعة سبعة... ولقولهم أن تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة، زحل ثم المشتري، ثم المريخ، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم عطارد ثم القمر [(١)].

وقد غلت الإسماعيلية غلوا أخرجها عن دائرة الإسلام على الرغم من حرصها على العمل في إطاره والتستر على غلوها وتطرفها بستار كثيف من التأويل على أوسع نطاق لهدم أركان الإسلام كلها، وفيهم يقول محمد بن مالك اليماني: " ويلبسون على كل جاهل بكلمة حق يراد بها باطل يحضونه على شرائع الإسلام من الزكاة والصلاة والصيام كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه [(١)].

---

(١) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ١٠٨ - ١١٠، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٨٠.

(٢) محمد بن مالك اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ص ١٩٤، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٨١.

ويبدأ نشأة الإسماعيلية كفرقة لها دورها في السياسة للعالم الإسلامي حين توفي الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م حيث دب الخلاف بين أنصاره الشيعة، حيث كان الإمام جعفر الصادق قد عين غبنه البكر إسماعيل لكي يتولي الإمامة من بعده، ولكن الإمام جعفر مالبث أن خلع إسماعيل لعدة أسباب قد أوردناها، ونص على تعيين ابنه التالي موس لكي يصبح إماما بعد أبيه، وقد قيل أن إسماعيل قد توفي في حياة أبيه جعفر الصادق، وحرر جعفر محضرا لإثبات وفاته وقع عليه جماعة من علماء المدينة ومشايخها ودفنه بالبقيع[١].

وبوفاة جعفر الصادق انشقت الشيعة ومال جماعة منهم إلى إمامة موسي الكاظم بعد أبيه، وهذا ما عليه أغلب الشيعة وبخاصة الشيعة الإمامية، ومال قسم آخر إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ورفضوا إمامة موسي الكاظم [٢].

وقد انضم غلاة الشيعة المتطرفين إلى جانب إسماعيل بن جعفر الصادق وسموا بالإسماعيلية، وجعلوا الإمامة من بعده لابنه محمد بن إسماعيل، وبعد وفاة محمد بن إسماعيل زعمت الإسماعيلية أنه لم يمت وأنه حي، وأنه غائب مستتر في بلاد الروم، وأنه القائم المهدي [١].

ولقد تحقق للدعوة الإسماعيلية في نهاية الأمر غرضها بقيام

(١) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٥٨.
(٢) القمي، المقالات والفرق، ص ٨٠ - ٨١.
(١) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٧٤، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٨٤.

الدولة الفاطمية بشمال إفريقية سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م، وظهر الإمام المستتر، ثم انتقال مقر الخلافة إلى القاهرة سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م، وما تلا ذلك من اتساع أملاك الفاطميين، وامتداد نفوذهم إلى الجهات التي كان يسيطر عليها العباسيون، وتهديدهم لبغداد.

وما أن أقام الفاطميون دولتهم، حتى أخذوا يروجون للمذهب الشيعي في المشرق الإسلامي، واضعين نصب أعينهم إضعاف الخلافة العباسية، تمهيدا للقضاء عليها، ولقد كان لمدارس الدعوة الشيعية في القاهرة أثر فعال في نشر مذهب الإسماعيلية في إيران، إذ نجح الحسن بن الصباح في تكوين قوة هائلة، عجز عن مقاومتها أقوي الحكام والسلاطين [١].

وعلى هذا النحو، ظل الفاطميون يتزعمون الحزب الإسماعيلي حتى عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) الذي دان له الإسماعيلية جميعا بالطاعة، واعترفوا بإمامته في الشرق والغرب، وكان المستنصر قد أوصي بأن يكون ابنه الأكبر نزار وليا للعهد، غير أنه بعد وفاته أن تقرر خلع نزار وتولية أخيه (المستعلي) عرش الخلافة الفاطمية، فكان هذا سببا في انقسام الحزب الإسماعيلي إلى فرقتين متعارضتين: أحدهما تناصر المستعلي والأخرى تناصر نزار، وكانت الفرقة الأولي تتمثل في الفرع الغربي الذي كان يقوم في مصر وسورية وشمال إفريقية، وأما الفرقة الثانية فكانت تتمثل في الفرع الشرقي الذي انتشر في إيران ومد نفوذه فيما بعد إلى بلاد الشام، وهذا الفرع الذي كان يضم

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٧٧.

طائفة الإسماعيلية بزعامة الحسن بن الصباح، وكان يقال لهم النزارية، وإليهم آلت زعامة الحركة الإسماعيلية في مختلف الأقطار الإسلامية بعد سقوط الدولة الفاطمية في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م.

ويعتبر الحسن بن الصباح هو المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة في إيران، إذ أخذ في الاستيلاء على كثير من القلاع المجاورة في قوهستان، وكانت أهمها قلعة " آلموت " التي استولي عليها في سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة ملكهم، ولم يقف أمر الحسن بن الصباح عند هذا الحد، بل استطاع - بمعاونة أتباعه - أن يستولي على المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين بأكملها[١].

وأظهرت الإسماعيلية قوة وشدة بأس أعجزت سلاطين السلاجقة الأقوياء، فلم يستطع حتى سلاطين السلاجقة المتعصبين للمذهب السني القضاء عليهم، وقد حاول السلطان ملكشاه أكثر من مرة استرداد قلعة " آلموت " من أيديهم ولكنه فشل في هذا الأمر. وجاءت الصراعات الدموية بين أفراد الأسرة السلجوقية وتنازعهم على العرش واشتراك الأمراء والوزراء والولاة في هذه المحنة، فرصة للإسماعيلية لاشتداد ساعدها بعدما أصبحت الساحة خالية أمامهم، بعد أن انشغل السلاجقة بخلافاتهم وأصبح بأسهم بينهم شديد، وأخذت الإسماعيلية في نشر مذاهبهم، وكذلك استغل أحمد بن عبد الملك عطاش رئيس الإسماعيلية في أصفهان فرصة النزاع الذي وقع بين السلاجقة حول العرش بين بركيارق وابن السلطان ملكشاه

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٧٩.

وأخيه محمود فاستولي على قلعة " شاهدر " سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، تلك القلعة الشامخة المنيعة التي كانت تشرف على مدينة أصفهان.

ولكن جهود الإسماعيلية في أصفهان وما جاورها سرعان ما تحطمت وانهارت عندما حمل عليهم السلطان محمد السلجوقي (٤٩٨ ـ ٥١١هـ / ١١٠٥ ـ ١١١٨م) حملة موفقة وهاجمهم في عقر ديارهم، " شاهدر " سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م واستطاع أن يقضي على زعيمهم أحمد بن عبد الملك، كما استأصل شأفة من بقي منهم في هذه القلعة [١].

ولكن جاءت وفاة السلطان السلجوقي محمد لتأخر القضاء على الإسماعيلية في قلعتهم الحصينة " آلموت " وينال ذلك الشرف المغول،ولوطال العمر بهذا السلطان عدة سنوات لربما أتيحت له فرصة الاستيلاء على قلعة آلموت، وأن يسبق المغول في القضاء على هذه الطائفة في عقر دارها، ويريح منها البلاد والعباد، ولقد كان السلطان محمد بن ملكشاه متحمسا في كفاحه ضد الإسماعيلية لدرجة أنهم خشوا بأسه فدسوا له السم فمات، كما أن النزاعات التي قامت بين السلاجقة حول وراثة العرش من بعده قد أعطت الإسماعيلية الفرصة في ترتيب صفوفهم التي كانت قد اهتزت بشده في عهد السلطان محمد السلجوقي.

وفي عهد السلطان سنجر حاول أكثر من مرة الوصول إلى قلعة آلموت والاستيلاء عليها وقتل الحسن بن الصباح الذي حاول أن

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٨٠.

يصد السلطان سنجر بالحيلة تارة والتهديد تارة أخري، ولما لم يستطع لجأ إلى حيلة طريفة تتلخص في أنه اجتذب إليه إحدى وصيفات السلطان سنجر وأغراها بغرس الخنجر بجوار فراشه حتى إذا استيقظ أخذه الفزع والرعب، ثم أتبع ذلك برسالة تهديد للسلطان سنجر يقول له فيها: إن الذي يستطيع أن يغرس هذا الخنجر في الأرض اليابسة يستطيع أن يغرسه في صدر السلطان " وكان لهذه الرسالة أثرها في فك الحصار عن قلعة آلموت، إذ خاف السلطان سنجر عاقبة هذا التحذير، بل نجد هذا السلطان يعقد معاهدة سنة ٥١٢هـ مع الحسن بن الصباح، تعهد فيها الحسن بألا يزيد في تحصين قلاعه أو يقوي نفسه حربيًا بشراء آلات الحرب، أو يدخل في مذهبه آخرين، وفي مقابل ذلك تعهد السلطان بإعفاء الإسماعيلية من أهالي إقليم دكوة من الضرائب.

وإذا نظرنا إلى هذه المعاهدة نري أن السلطان سنجر قد أعطي ولم يأخذ، إذ لم يعمل الحسن بن الصباح بما نصت عليه المعاهدة، بعكس السلطان سنجر الذي لم يوجه جهوده ضد الإسماعيلية بعد ذلك لفترة طويلة من الزمن [١].

والشيء الذي يؤسف له حقا أن سلاطين السلاجقة من ناحية والخلفاء العباسيين من جهة أخري كانوا يتسابقون في خطب ود هذه الطائفة المارقة عن الدين، ويستعينون بهم للخلاص من الأشخاص المعادين لهم، مع أن هؤلاء وهؤلاء يعلمون تمام العلم أن الإسماعيلية

(١) عثمان عبد الحميد عشري، الإسماعيليون في بلاد الشام، ص ٤٠، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٩٦.

ألد أعدائهم، وأنهم يهدفون أولا وأخيرا إلى الإطاحة بهم جميعا، وكان هذا التحالف يتم لمنفعة هذه الطائفة أولا، وعلى حساب النظام والقانون والأخلاق ثانيا.

وقد استغل الإسماعيلية الخلاف الذي وقع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة، ولجأ السلاجقة إلى الاستعانة بالإسماعيلية على الخلفاء العباسيين، لذلك نري أنه لما دب الخلاف بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود، قتل جماعة من الفدائيين الخليفة وفتكوا به بأن قطعوا أنفه وأذنيه، وكان ذلك بإيعاز من السلطان السلجوقي مسعود[١].

ويدلنا مقتل الخليفة المسترشد على مبلغ استهتار الإسماعيلية بأكبر رأس في قلب الدولة الإسلامية، ولا يفوتنا أن نذكر أن هدف هذه الطائفة الأساسي كان إسقاط الخلافة العباسية، غير أن هذا الهدف لم يتحقق، بمقتل الخليفة المسترشد، إذ تولي ابنه الراشد من بعده وأخذ يعمل على الانتقام لأبيه من الإسماعيلية، وكانت النتيجة أنهم قتلوه بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢هـ... وليس ببعيد أن يكون السلطان معود والسلطان سنجر هما اللذان دبرا قتله لعداوته لهما، وخاصة أنهما كانا السبب في مقتل أبيه المسترشد.

وقد عمد الإسماعيلية إلى أعمال السلب والنهب وشن حرب العصابات، فقاموا سنة ٥٥٣هـ بالهجمات القريبة من معاقلهم في قوهستان، وسلبوا ما بها وسلبوا النساء وأسروا الأطفال وأحرقوا ما

(١) أحمد الحفناوي، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام، ص ٥١٤.

لا يستطيعون حمله، وكان يسكن هذه الأقاليم جماعة من التركمان كانوا متغيبين عن منازلهم في الوقت الذي شن فيه الإسماعيلية هجومهم، فلما عاد التركمان اقتفوا أثر الإسماعيلية وتمكنوا من الوصول إليهم حيث وضعوا السيف في رقابهم [١].

وعلى ما يبدوا أن إسماعيلية سورية قد وجدوا في الصراع الإسلامي الصليبي فرصة للوجود على الساحة والمشاركة في أحداث التاريخ، هذه الظروف جعلتهم يفكرون في اغتيال صلاح الدين الأيوبي، وكانت له معهم محاولتان باءتا بالفشل: الأولى أثناء حصاره لحلب، والثانية أثناء حصاره حصن " عزاز "... ولكنه سلم في المرتين واكتشف المتآمرين وقتلوا!!!

وقد حاول صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة القضاء على إسماعيلية الشام، ولكن دائما ما كانت تحول بينه وبينهم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي، ففي سنة ٥٦٩هـ تقدم صلاح الدين في أراضيهم في محاولة للقضاء عليهم، ولكنه فوجئ بهجوم صليبي على منطقة " البقاع "... ودل ذلك على أن هناك اتفاق مسبق وإستراتيجية واحدة، لكل من الصليبيين والإسماعيلية الحشاشين...فاضطر صلاح الدين إلى الانسحاب من حصار قلاع الحشاشين لمواجهة الخطر الصليبي.

كما أن صلاح الدين أعاد الكرة في الهجوم على قلاع الإسماعيلية في الشام وكاد يصل إلى بغيته في القضاء عليهم، إلا أنه

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١ / ٩٧.

قبل شفاعة خاله الحارمي فيهم، وعفا عنهم [١].

ولم تقتصر الاغتيالات الإسماعيلية في سورية على القادة والأمراء المسلمين، بل تعداها إلى الصليبين، إذ إنهم تمكنوا من اغتيال الماركيز الفرنسي " كونراد " ملك بيت المقدس، لحساب ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا الذي استفاد من ذلك وأعلن ضم بيت المقدس إلى ممتلكاته في فلسطين [٢].

وكان لهذه الطائفة جهاز سري وتنظيم سري يتكون من طائفة من الشبان المغامرين الشجعان الممتلئين قوة وحماسة، وتضحية وفداء وتفانيا في الدفاع عن عقيدتهم، وكان هؤلاء الفدائيين يجيدون فن التخفي، وساعدهم على هذا طبيعة الدعوة الإسماعيلية التي كانت تجري في سرية تامة، بحيث كان يتعذر على المرء أن يميز بين الشخص الباطني من غيره، وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في سن مبكرة، ويدربون تدريبات شاقة مضنية على استعمال السلاح وأساليب القتال وطرق الاغتيال وسفك الدماء [٣].

ومن الملاحظ أن الحسن بن الصباح وخلفائه كانوا يعتمدون اعتمادا كبيرا على هؤلاء الفدائيين الذين كانوا يضحون بأنفسهم في

---

(١) عن علاقة صلاح الدين الأيوبي بطائفة الحشاشين... أنظر: تاريخ الدولة الأيوبية للمؤلف.

(٢) أحمد الحفناوي، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥. وللمزيد عن أخبار وتاريخ الإسماعيلية أنظر: الشيعة... التاريخ الكامل للمؤلف، من طبع دار الإيمان بالمنصورة.

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٨٢.

سبيل إرضائه؛ ولذلك يعتبر الفدائيين سر نجاحه، وكان يختارهم من الشبان المتحمسين الذين أصبحوا أداة للانتقام والذين أوقعوا الرعب في قلوب جميع السكان في بلاد المشرق.

وقد تدرب الفدائيون على فن التخفي واستعمال السلاح وتعلم اللغات الأجنبية، وكانوا يقتلون المسلمين في أيام الجمع في المساجد، وكان الحسن بن الصباح إذا أراد أن يقتل أميرا من الأمراء أو خليفة من الخلفاء أرسل إليه عادة ثلاثة من الفدائيين فينتهزون فرصة خروج ذلك الأمير إلى الصلاة فينتهزون فرصة خروج الأمير إلى الصلاة، حتى إذا ما استقر بالمسجد وثب عليه الرجل الأول، وكال له الطعنات بخنجره، وإذا فشل هذا الرجل أكمل الثاني والثالث مهمته [(١)].

وعلى هذا الأساس راح كثير من رجالات الدولة الإسلامية فريسة لانتقام زعماء الإسماعيلية الحشيشية... وفي مقدمة هؤلاء الوزير نظام الملك السلجوقي، الذي كان أول من قتله الفدائيون، وكانت هذه الجريمة بداية " لحرب الرعب " شنها الإسماعيليون الحشاشون ضد قواد وأمراء ومسئولين في الحكومة السلجوقية... بل ورجال دين كانوا قد أفتوا: بأن قتل ملحد واحد منهم - أي من الإسماعيلية - أكبر ثوابا من قتل سبعين من كفار الروم، ولقد كان القاتل من الإسماعيلية لا يحاول الهرب ولكنه ينتظر ليتم الإمساك به وقتله في ضحيته إيمانا منه بأنه بذلك يكون له الثواب الأوفى.

---

(١) حافظ حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٧١، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٩٣.

كذلك اغتال الإسماعيليون الحشاشون هؤلاء الخليفتين المسترشد والراشد، فقتلوا الأول سنة ٥٢٩هـ، وقتلوا الثاني سنة ٥٣٢هـ [١].

وعلى العموم، فإن " الإسماعيلية " من أخطر طوائف الباطنية، وقد كانت سببًا دائمًا لتحريف العقيدة والدين، ولقلب أنظمة الحكم الإسلامية، ولاغتيال الشخصيات الإسلامية البارزة، سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو علماء أو قواداً.

٧ ـ الأناضول [تركيا]:

وهذه المنطقة كانت تُحكم بسلاجقة الروم، وأصول السلاجقة ترجع إلى الأتراك، ومؤسس تلك الدولة هو سليمان ابن قطلمش بن أرسلان سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م. وهذه الدولة أول من اصطدم بالحملة الصليبية الأولى من القوي الإسلامية. وقد نقلت عاصمتها من نيقية إلى قونية على إثر سقوط نيقية في أيدي الصليبيين سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م. وعلى الرغم من ذلك ظلت تلعب دورا هاما في مصائر الصليبيين عامة، بل أفادت مما كان بين الصليبيين والدولة البيزنطية من كره متبادل، فحافظت بذلك على كيانها وقوتها حتى أواسط القرن السابع الهجري، وكان لهم في السابق تاريخ عظيم وجهاد كبير، وذلك أيام القائد السلجوقي المسلم الفذ " ألب أرسلان " رحمه الله، ولكن للأسف فإن الأحفاد الذين كانوا يحكمون هذه المنطقة الحساسة والخطيرة والملاصقة

(١) أحمد الحفناوي، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام، ص ٥٠٤.

للإمبراطورية البيزنطية كانوا على درجة شنيعة من الضعف أدت إلى مواقف مؤسفة من الذل والهوان..

وكان حكام هذه المنطقة في نزاع مستمر مع غيرهم من سلاطين المسلمين، كما كان لهم منافسون من الروم أو البيزنطيين ينازعونهم في الأناضول.

كما كان للخلافات المذهبية الأثر السيء في تفرق الأمة وفي تفرق الناس شيعأ وأحزابا وقد قامت بينهما الحروب لطاحنة التي أزهقت الكثير من ألارواح وتخربت بسببها البيوت، ومن المعروف تاريخيًا أن مجتمع بغداد كان يتكون من مسلمين سنة وشيعة نصارى ويهود وكانت تقوم بين هؤلاء مناقشات دينية تنتهي أحيانا بقتال شديد يضطر الدولة للتدخل بجيشها لإنهائه.

على أن أشد المعارك ضراوة تلك التي كانت تقوم بين السنة والشيعة، والتي كات تتكرر تقريبًا كل عام، ومن ذلك أنه في أواخر عهد المستعصم نشب قتال بين السنةوالشيعة، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر لكي يفض النزاع، فأغار أبوبكر على مقر الشيعة في الكرخ وزعموا أنه ارتكب كثيرا من الفظائع فقتل الرجال وسبي النساء وسفك الدماء وهتك الأعراض واستباح الحرمات، فكان لهذا التصرف الأثر السيئ في نفسية الشيعة، فنقموا على المستعصم وابنه، وقد أثار هذا الحادث في نفوس الشيعة كوامن من الحقد على الدولة العباسية فكرهوها وتمنوا زوالها، كما أن الوزير مؤيد الدين العلقمي - الذي كان من كبار الشيعة - تألم جدا لوقوع

هـذا الحـادث وكاتـب المغـول سـرا وهـون علـيهم أمـر احـتلال بغـداد، ونصـح الخليفـة بمصـانعة المغـول، وإرضـائهم بـبعض المـال الـذي يـوفره مـن تسـريح الجيـوش الكثيـرة العـدد التـي ينفـق عليهـا المـال بـدون حاجـة إليهـا وقـد كانـت هـذه النصـيحة القشـة التي قصمت ظهر البعير [١].

أضـف إلـى مـا سـبق انتشـار الموبقـات بـين الخلفـاء العباسـيين وعامـة الشـعب، فقـد أدمـن بعـض الخلفـاء شـرب الخمـر وحولـوا قصـور الخلافـة فـي بعـض الأوقـات إلـى مقاصـف للشـراب والسـماع والغنـاء، وكـذلك كانـت قصـور كثيـر مـن الأمـراء والـوزراء وكبـار رجـال الدولـة وعليـة القـوم، وكـان الخليفـة العباسـي الراضـي بـالله عاهـد ربـه ألا يشـرب وظـل علـى ذلـك سـنتين مـن خلافتـه مـع إذنـه لجلسـائه وندمائـه بالشـرب، ثـم وجـدوا لـه رخصـة مـن يمينـه فكفـر عنهـا، وعـاد إلـى الشـراب، والخليفـة العباسـي المسـتكفي كـان قـد تـرك الشـراب فلمـا ولـي الخلافـة دعـا بـه توا وعاد إلى شربه [٢].

وكـان الـذين يشـتغلون فـي الحانـات - رجـالا ونسـاءً - مـن غيـر المسلمين بل والمشرفون عليها كـانوا من اليهود والنصـاري، وكـانوا حريصين جدا علـى نشر هذه الآفـات فـي المجتمـع الإسـلامي، ونشـر الشـعر الـذي يـدعوا إلـى الخلاعـة وتلحينـه وغنائـه، ونشـر الشـراب،

---

(١) إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ / ٣٤، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ / ٣٦١، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٢.

ودفع الشباب للتفتيش عن المرأة وجمالها ووصلها، ذلك لأنهم يعلمون أن هذه هي أقصر الطرق إلى تسهيل القضاء على السلمين، بتحطيم المجتمع الإسلامي من الداخل، وذلك بدفع الشباب المسلم إلى إشباع البطن والفرج وحصر تفكيره ونشاطه في ذلك، وقد قال الجاحظ:

من تمام آلة الخمر أن يكون ذميا، وأن يكون اسمه " أذين " أو " مازياد " أو " ازدانقاذار " أو " ميشا " أو " شلوما " ويكون أرقط الثياب.

وكانت الحانات مملوءة بالجواري الفاتنات وغالبا ما كن أجنبيات من أجناس مختلفة، والشباب والشعراء يأتون إليهن، ويعرضن أنفسهن على الشباب والشعراء بلا تحفظ، وبلا حشمة أو كرامة، وكن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الشباب، ويستكثرن من العشاق بطرق غير مستقيمة فكن سببا في كثير من الفجور والمجون وكل شيء حولهن يدفعهن إلى هذا السلوك الآثم[(١)].

وصور الجاحظ ذلك فقال: " كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق - بالمنشأ - وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث... وبين الخلعاء والمجان، ومن لا تسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص ٩٣ - ٩٤، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٣.

ودين ولا صيانة ولا مروءة، وتروي الحاذقة منهم أربع آلاف صوت (أغنية) فصاعدا،يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد مايدخل ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب من عقاب، ولا ترغيب في ثواب، إنما بنيت كلها على ذكر الزني والقيادة العشق والصبوة والشوق والغلمة... " [١].

وقد حول النصاري أديرتهم إلى دور للعبث واللهو والمجون وساعدهم على ذلك ما كانت تحويه تلك الأديرة من خمور معتقة تقدمها لروادها، وكانت الأديرة متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء وفي طول البلاد الإسلامية وعرضها، فأكثر الشعراء والشباب من الإختلاف إليها طلبا للخمر والمجون، وأكثروا من التغني بها، ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات، حتى لقد ألفت الكتب في مثل ذلك مثل كتاب " الديارات للشابشتي " وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره، ومن شعره في ذكر لياليه " بالمطيرة " إحدى متنزهات سامراء وبالكرخ وحاناته " وبدير السوسي " وراهباته

ياليالي بالمطيرة والكـ ::: رخ ودير السوسي بالله عودي
كنت عندي أنموذجات من الجنة ::: لكنها بغير خلود [١]

---

(١) رسائل الجاحظ، كتاب القيان، ٢ / ١٧٦، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٣.

(١) الشابشتي، الديارات، ص ١٤٩، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ص ٩٤، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٤.

وكان لكل دير عيد تقريبا يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون، والهزل وكانت هذه الأديرة تستغل أعياد النصاري لدعوة الشباب المسلمين وتسهيل وصولهم إلى الموبقات، ومن تلك الأعياد " عيد الميلاد " و " عيد الشعانين " و " عيد الفصح " وغيرها من الأعياد حيث لا يبقي أحد من أهل الطرب واللهو إلا قصده للقصف والمجون.

وبالإضافة إلى الأعياد النصرانية التي كانت تقام فيها الحفلات الماجنة الداعرة أحياالفرس أعيادهم، وأخذوا يحتفلون بها ويقدمون من الخمور والمأكولات مالا يتصوره عقل منها عيد النيروز في أول الربيع وهو أول السنة الفارسية وعيد المهرجان في أول الشتاء [١].

ولا شك في أن كل ماذكرناه أعد لانتشار المجون والخلاعة في العراق، بل وفي كثير من البلاد الإسلامية، إذ كانت الخمر في كل مكان تقريبا، ومعها القيان المبتذلات، وعم تبعا لذلك الشعر الصريح بل المفرط في الإباحية، وفي التعبير عن الغرائزالجسدية التي تدفع الشباب إلى الجري وراء إشباع غرائزه تاركا واجبه نحو الجهاد في سبيل الله، والثغرة التي هو عليها ليؤتي الإسلام من ناحيته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كما انتشر في العصر العباسي، وخاصة الثاني منه حب الغلمان والغزل بهم، واتخاذهم بدل الخليلات، وقد انتشرت هذه الموبقات بين قادةالجيوش والسلاطين، وقد قال أحدهم

(١) شوقي، تاريخ الأدب العربي، ص ٩٥، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٤.

عن غلامه: " ضياع بغداد مني أشد على من أخذ بغداد من يدي، بل وأرض العراق كلها " [١].

وكان أحدهم يقبل المردان من غير ريبة أو خجل [٢].

وكانت تقام الحفلات والسهرات للغناء والطرب، وكان إذا طرب الملك أو السلطان أعطي عطاء لا يتصور [٣].

وكان للزانيات والفساق بيوت تكاد تكون معروفة للجميع، وتنتشر في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية الكبيرة، وكان يرتادها عدد كبير من الناس يقتلون فيها ثروتهم وأعمارهم غير مبالين بدين، ولا هيابين من سلطة ولم لا؟! والناس على دين ملوكهم [٤].

ولم يقتصر الفساد على الجواري والغلمان، بل تعداه إلى الحرائر، ولا شك في ذلك فقد قال رسول الله ﷺ :«**عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ...**» [٥].

وكاد زمان آخر الخلفاء العباسيين ينقضي أكثره في سماع الأغاني، وما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب، وفي نفس الوقت وصل رسول هولاكو إلى صاحب الموصل نفسه يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار، فقال بدر الدين لؤلؤ: " أنظروا

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ / ٢٩١.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ / ٢٩١.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢ / ٩٣.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢ / ٢٢١.
(٥) صحيح رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله " [١].

وحقـــــــا:{ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾} [الإسراء: ١٦].

ويجب ألا يتبادر إلى الأذهان أن المجتمع الإسلامي كله انقلب إلى مجتمع فاسد بعيد عن الإسلام، فقد كان المجتمع مجتمعا إسلاميا وكانت طبقة العامة فيه - التي تمثل الأغلبية - حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننته وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، وإنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطا شديدا على المجان المنحلين، وكان المؤمنون يعمرون مساجد الله، وكان الكثير منهم يذكرون الناس بالله وباليوم الآخر، وأنهم معروضون يوم الحساب فإما إلى الجنة وإما إلى النار، وشاعت في تلك الفترة طبقة الزهاد، عاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة [٢].

ولكن الطبقة الفاسدة المترفة هي التي كانت تقود الأمة، وتمسك بزمامها، فقادتها إلى محاربة الفضيلة، ونشر الرذيلة، تحقيقا لرغبات هؤلاء المترفين وإرضاء لشهواتهم، ثم سيطرت طبقة العسكر على أمور الناس فقادوهم إلى محاربة

---

(١) ابن طبا طبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٩٤، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٦.

(٢) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، ص ١٠٩، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المغول والعالم الإسلامي، ص ٦٦.

بعضهم البعض وصولا إلى الحكم، ولتوسيع رقعة الأرض التي تحت أيديهم، فأضعفت هذه التصرفات الغبية الأمة الإسلامية وجعلتها هشة ضعيفة خائرة مثل بيت العنكبوت، فانهارت تحت ضربات أعدائها المتربصين بها من كل جانب.

وبعد..

فهذه نظرة على الأمة الإسلامية في ذلك الوقت..

وقد عُلم على وجه اليقين أن من كان هذا حاله فلا بد من استبداله!!..

وأصبح العالم الإسلامي ينتظر كارثة تقضي على كل الضعفاء في كل هذه الأقطار، ليأتي بعد ذلك جيل من المسلمين يغير الوضع، ويعيد للإسلام هيبته، وللخلافة قوتها ومجدها..

* * *

غزو المغول للدولة الخوارزمية

توتر العلاقة بين المغول والدولة الخوارزمية:

بعد أن نجح جنكيزخان في توحيد القبائل المغولية المتناثرة تحت لواء دولته، والقضاء على دولة القراخطائيين التركية أصبح خان مملكة عظمي تضم جميع القبائل التركية على اختلاف عقائدها، ثم بدأ " جنكيزخان " يفكر في أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق، فوجد أن التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، هي أفضل وسيلة لتحقيق هذه الفكرة؛ لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش التترية في منطقة متوسطة بين العراق والصين.. كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية.. وكانت من حواضر الإسلام المشهورة، وكنوزها كثيرة.. وأموالها وفيرة.. هذا بالإضافة إلى أنه لا يستطيع تكتيكياً أن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة قد تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد..

كل هذه العوامل جعلت " جنكيزخان " يفكر أولاً في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي

تعرف في ذلك الوقت بالدولة الخوارزمية.. وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران.. وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة " أورجندة " (في تركمنستان حاليًّا).

وكان جنكيزخان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم (محمد بن خوارزم شاه) على حسن الجوار، ومع ذلك فلم يكن جنكيزخان من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، ولكنه عقد هذا الاتفاق مع ملك خوارزم ليؤمّن ظهره إلى أن يستتب له الأمر في شرق آسيا، أما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية!.. [١].

واستغل جنكيزخان قيام علاء الدين محمد خوارزم شاه بنقض المعاهدة التجارية التي كان قد أبرمها معه، بعد أن قام أحد قادة السلطان الخوارزمي بقتل عدد من التجار المغول واستولي على ما كان معهم من التحف والهدايا الثمينة [٢].

وكان جنكيزخان قد بلغ نفوذه الحد الأقصى في ذلك الوقت، خاصة بعد أن تغلب على كوجلك خان وقضي على البقية الباقية من قبائل النايمان، كما أن السلطان الخوارزمي كان ما يزال حديث عهد بالخسارة القاسية في مواجهته مع الخليفة العباسي، بعد أن فقد معظم

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية، ص ١٦.
(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٩، محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس الإسلام، ص ٢٦.

جيشه في رحلته الفاشلة إلى بغداد، بدون الدخول مع الخليفة العباسي في معركة فاصلة بل نجا هو بأعجوبة، ولم تكن هذه الحقيقة خافية على جنكيزخان، الذي - على ما يبدو - أراد استغلالها جيدا.

ويجب أن لا ننسي أن السلطان الخوارزمي كان قد انتهي من محاولة القضاء على الخلافة العباسية، ذات السلطة الروحية على جميع المسلمين في أنحاء المعمورة، كما كان قد خلع المذهب السني وأعلن التشيع، وهذه الأشياء قد أفقدته التعاطف والمساندة ليس من جانب العالم الإسلامي فحسب، بل ومن جانب شعبه أيضا، وهو الذي كان يدعي أنه حامي المسلمين، مما جعله في موقف غاية في الضعف [١].

والحقيقة أن جنكيزخان لم يكن يرغب في أكثر من نقض السلطان الخوارزمي للمعاهدة التجارية لكي يقوم بهجومه على البلدان الإسلامية؛ فليس المجال مجال حجة أو برهان أو دليل.. حقيقة الأمر أن جنكيزخان قد أعد لغزو بلاد المسلمين خططا مسبقة.. ولن يعطلها شيء.. وإنما كان يبحث فقط عن علة مناسبة، أو شبه مناسبة، وقد وجد في هذا الأمر العلة التي كان يريدها..

وفي الوقت الذي تأهب فيه المغول لاجتياح الدولة الخوارزمية نجد أن السلطان الخوارزمي لم يكن في أحسن حالاته العسكرية والسياسية، فقد كان منفصلاً - بل معادياً - للخلافة العباسية في العراق، ولغيرها من الممالك الإسلامية؛ فلم يكن على وفاق مع

(١) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٨٣ - ٨٤، محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس الإسلام، ص ٢٦.

الأتراك ولا مع السلاجقة ولا مع الغوريين في الهند.. وهكذا كانت مملكة خوارزم شاه منعزلة عن بقية العالم الإسلامي.. ووقفت وحيدة في مواجهة الغزو المغولي المهول..

وهذه المملكة وإن كانت قوية وتمكنت من الثبات في أول اللقاءات، فإنها - ولا شك - لن تصمد بمفردها أمام الضربات المغولية المتوالية..

وفي رأيي أنه مع قوة المغول وبأسهم وأعدادهم إلا أن سبب المأساة الإسلامية بعد ذلك لن يكون في الأساس بسبب هذه القوة، وإنما سيكون بسبب الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

{وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ}

[الأنفال: ٤٦].

فجعل الله عز وجل الفشل قريناً للتنازع.. والمسلمون كانوا في تنازع مستمر، وخلاف دائم.. وعندما كانت تحدث بعض فترات الهدنة في الحروب مع التتار - كما سنرى - كان المسلمون يغيرون على بعضهم، ويأسرون بعضهم، ويقتلون بعضهم...!! وقد عُلم يقيناً أن من كانت هذه صفتهم، فلا يكتب لهم النصر أبدًا..

خلاصة القول أن جنكيزخان وضع خطة محكمة لاجتياح أراضي الدولة الخوارزمية، ولم يمهل السلطان علاء الدين الفرصة للاستعداد، وخرج له " محمد بن خوارزم شاه "

بجيشه أيضاً.. والتقى الفريقان في موقعة شنيعة استمرت أربعة أيام متصلة، وذلك شرق نهر سيحون [١] (وهو يعرف الآن بنهر " سرداريا "، ويقع في دولة كازاخستان المسلمة)، وقتل من الفريقين خلق كثير.. لقد استُشهد من المسلمين في هذه الموقعة عشرون ألفاً، ومات من التتار أضعاف ذلك.. ثم تحاجز الفريقان، وانسحب " محمد بن خوارزم شاه " بجيشه لأنه وجد أن أعداد التتار هائلة.. وذهب ليحصن مدنه الكبرى في مملكته الواسعة (وخاصة العاصمة: أورجندة) [٢].

وكانت مدينة أترار هي أول مدينة قصدها المغول؛ لأنها تعتبر من جهة مفتاح إقليم ما وراء النهر، ومن جهة أخري كان لا يزال يحكمها " ينال خان " الحاكم الخوارزمي الذي قتل التجار المغول، فأثار بذلك حفيظة جنكيزخان وأعطاه الذريعة لاجتياح الدولة الخوارزمية، وجعله يصمم على تأديبه والثأر لرعاياه.

أسرع المغول إلى محاصرة المدينة، وبعد ما يقرب من خمسة أشهر من الحصار، سقطت المدينة، حيث وقع ينال خان في قبضة المغول، فأرسلوه إلى معسكر جنكيزخان الذي سنحت له فرصة التشفي من خصمه والتنكيل به، فأمر بأن تصهر الفضة وتسكب في عينيه وأذنيه حتى مات بهذه الطريقة البشعة.

---

(١) سيحون: نهر ينبع من آسيا الوسطى من منطقة (كيركيسان KIRGHIZISTAN) الروسية، ويصب في بحر أرال. وكان يسمى باليونانية (جاكسارتس JAXARTES)، وفي العصر المغولي أضحى اسمه (سيرداريا SYRADARIA).

(٢) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١٦.

وعلى إثر دخول المغول مدينة أترار لم يبقوا على شخص قط، مدفوعين بالحقد الدفين في قلوبهم، فكل من وجدوه في طريقهم جعلوه طعمة لسيوفهم، وذلك بعد أن نهبوا ممتلكات هؤلاء الضحايا وأسروا عددا كبيرا من السكان. وكانت مذبحة يعجز القلم عن وصفها واللسان عن ذكرها، من هول الفظائع التي ارتكبها المغول في حق السكان (١).

وعلى ما يبدو أن الطريق أصبح مفتوحا أما القوات المغولية لاجتياح بقية الأراضي الخوارزمية، حيث لم يعد هناك ما يعوق تقدمهم، فبعد أترار سارت الجيوش المغولية نحو بقية المدن الخوارزمية، فاستولوا على، مدينة جند، إحدى مدن الثغور على نهر سيحون، فسقطت المدينة في شهر صفر عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م، ثم أجبر المغول الأهالي على مغادرة المدينة، ثم أعملا السلب والنهب في المدينة المكلومة وقتلوا عددا كبيرا من أهليها وأسروا عددا آخر (٢).

ثم استولوا على مدينة بخاري المسلمة (٣) (في دولة أوزبكستان الآن)، وهي بلدة الإمام الجليل، والمحدث العظيم "البخارى" رحمه الله، وحاصر جنكيزخان البلدة المسلمة في

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول، ص ١١٣.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول، ص ١١٤.
(٣) بخاري: من بلاد ما وراء النهر، تقع في إقليم الصغد غربي سمرقند. كانت قاعدة المملكة السامانية كما كانت إحدى مراكز الفكر الإسلامي. ينسب إليها عدد من العلماء منهم إمام أهل الحديث أبو عبدالله محمد بن إسماعيل المعروف بالبخاري وأبو زكريا عبدالرحيم بن أحمد التميمي وابن سينا الحكيم أبو على الحسين بن عبدالله وغيرهم. وتقع اليوم في إقليم أوزبكستان بروسيا الآسيوية.

ذي الحجة سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩ هجرية، ثم طلب من أهلها التسليم على أن يعطيهم الأمان وفتحت المدينة المسلمة أبوابها المغول.. ودخل جنكيزخان إلى المدينة الكبيرة.. وأعطى أهلها الأمان فعلا في أول دخوله خديعةً لهم، وذلك حتى يتمكن من السيطرة على المجاهدين بالقلعة..

وفعلاً.. بدأ جنكيزخان بحصار القلعة، بل أمر أهل المدينة من المسلمين أن يساعدوه في ردم الخنادق حول القلعة ليسهل اقتحامها، فأطاعوه وفعلوا ذلك!!! وحاصر القلعة عشرة أيام.. ثم فتحها قسرًا.. ولما دخل إليها قاتل من فيها حتى قتلهم جميعًا!!.. ولم يبق بمدينة بخارى مجاهدون..

وهنا بدأ جنكيزخان في خيانة عهده، فسأل أهل المدينة عن كنوزها وأموالها وذهبها وفضتها.. ثم اصطفى كل ذلك لنفسه.. ثم أحل المدينة المسلمة لجنده، ففعلوا بها ما لا يتخيله عقل!.... "... فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا مع النساء الفواحش في حضرة أهليهن..!! (ارتكبوا الزنا مع البنت في حضرة أبيها، ومع الزوجة في حضرة زوجها)، فمن المسلمين من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أُسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم أشعلت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها، فاحترقت المدينة حتى صارت خاوية على عروشها.. "!!!

انتهى كلام ابن كثير.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!.. [١].

ثم دخل التتار مدينة " سمرقند " العريقة، في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، ففعلوا بها مثلما فعلوا سابقاً في " بخارى ".. فقتلوا أعداداً لا تحصى من الرجال والنساء والأطفال، ونهبوا كل ثروات البلد، وانتهكوا حرمات النساء، وعذبوا الناس بأنواع العذاب البشعة بحثاً عن أموالهم، وسبوا أعداداً هائلة من النساء والأطفال، ومن لم يصلح للسبي لكبر سنه، أو لضعف جسده قتلوه، واستبقوا من يصلح للقتال،وبعد أن اختاروا عددا كبيرا من العمال والصناع وأرسلوهم إلى منغوليا، وأحرقوا الجامع الكبير، وتركوا المدينة خراباً.. ولاقت سمرقند نفس المصير الذي لاقته بخاري [٢].

وفي شهر ربيع الأول سنة ٦١٧هـ / مارس ١٢٢٠م انطلق الفرسان المغول فعبروا نهر جيحون باتجاه مدينة " أورجندة " حيث يستقر " محمد بن خوارزم شاه "، في حين كان السلطان قد قر قراره على ألا ينازل المغول في معركة من المعارك بل آثر الفرار هائما على وجهه!.. وفوجئ المسلمون بجيش التتار إلى جوارهم، ومع أن أعداد المسلمين كانت كبيرة إلا أنهم كانوا قد مُلئوا من التتار رعباً وخوفاً، وما كانوا يتماسكون إلا لاعتقادهم أن النهر الكبير يفصل بينهم

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ٩٨، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٣، الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٩٥ - ٩٦، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٢٢.

وبين وحوش التتار.. أما الآن وقد أصبح التتار على مقربة منهم فلم يصبح أمامهم إلا طريق واحد.... طريق الفرار!!..؟!

يقول ابن الأثير: "... وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً، وقد اختلفوا فيما بينهم، إلا أنهم كانوا يتماسكون بسبب أن نهر جيحون بينهم، فلما عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات، ولا على المسير مجتمعين، بل تفرقوا الأيدي سبايا، وطلب كل طائفة منهم جهة، ورحل خوارزم شاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته، وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها.

وكانوا لا يتعرضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى مازندران، وهي له أيضاً، فرحل التتر المغربون في أثره، ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه، فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان يعرف بباب سكون، وله هناك قلعة في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا... " [١].

وكان السلطان الخوارزمي قد قصد نيسابور، فلما علم أن

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٣٣٥.

المغول قد عبروا نهر جيحون وأنهم يجدون في طلبه ترك المدينة على الفور، واتجه نحو إقليم العراق العجمي، ووصل التتار إلى مسافة قريبة من مدينة نيسابور العظيمة في فترة وجيزة، ولم يتمكن " محمد بن خوارزم شاه " من جمع الأنصار والجنود، فالوقت ضيق، والتتار في أثره، فلما علم بقربهم من نيسابور، ترك المدينة واتجه إلى مدينة " مازندران " (من مدن إيران)، فلما علم التتار بذلك لم يدخلوا نيسابور بل اتجهوا خلفه مباشرة، فترك مازندران إلى مدينة " الري "، ثم إلى مدينة " همذان " (وهما من المدن الإيرانية أيضًا)، والتتار في أثره، ثم عاد إلى مدينة " مازندران "... حيث أكرم وفادته أمراء هذا الإقليم، وقاموا نحوه بما يليق من تبجيل واحترام [(١)].

ولما سمع خوارزم شاه بقرب وصول المغول إلى مازندران، وكان متواريا في إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر، ولم يلبث أن رأي المغول يهجمون عليه، فركب سفينة وأسرع بها، بينما كانت سهام المغول تنهال عليه دون أن تصيبه، وسار إلى عمق البحر، وأخيرا استطاع أن يصل سالما إلى إحدى الجزائر الصغيرة المنعزلة في بحر قزوين، وجاء التتار ووقفوا على ساحل البحر، ولم يجدوا ما يركبونه خلفه... [(٢)].

وبالرغم من أن السلطان قد سر بنجاته من قبضة المغول،

---

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ٢ / ١١٣، حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٢٨ - ١٢٩.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٣٣٥.

إلا أن ذلك لم يدم طويلا، فقد أعياه المرض الذي اشتد عليه،وعاش مدة شهر في الجزيرة في كرب وعناء، ولما أحس بدنو أجله استدعي ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي، وابنيه الآخرين اللذين كانا معه في الجزيرة وهما: أزلاغ شاه وآق شاه، وأعلن خلع ابنه قطب الدين أزلاغ شاه من ولاية العهد،والبيعة لابنه جلال الدين؛ لأنه وجد فيه الشخص الوحيد الذي يستطيع مقاومة المغول واستعادة أملاك الدولة الخوارزمية وكان مما قاله لأبنائه في هذا الشأن العبارة الآتية: " إن عري السلطنة قد انفصمت، والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبث بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ ثأري منه إلا ولدي (جلال الدين) منكبرتي، وها أنا ذا موليه العهد فعليكما بطاعته،والانخراط في سلك تباعته " وعهد إليه بولاية العهد ومحاربة المغول[١].

ثم حدث بعد ذلك بقليل أن وصلت الأخبار إلى خوارزم شاه بأن المغول قد استولوا على مازندران،والقلعة التي كان قد احتمي فيها نساؤه وأبناؤه، وأن أولاده الصغار قد قتلوا، ووقع نساؤه في الأسر، فلم يحتمل وقع هذه المصائب التي أخذت تنهال على رأسه الواحدة تلو الأخري، فأسلم الروح في شوال سنة ٦١٧ هـ/١٢٢١م.

والشيء الذي يؤسف له حقا أن أتباعه لم يجدوا كفنا يكفنونه به، وأخيرا صنعوا له كفنا من قميص واحد منهم، ودفن بالجزيرة سنة

(١) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١٢٠.

٦١٧هـ / ١٢٢١م[1].

بعد أن فر خوارزم شاه من قبضة المغول إلى بحر قزوين (الخزر) فقد كان هم القوات المغولية الأكبر هو الوصول إلى بقية أبنائه وأمه وزوجاته، وكانت تركان خاتون - والدة السلطان - قد غادرت إقليم خوارزم.

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٢٣.



خريطة (٥) : غزو التتار للدولة الخوارزمية

غزو المغول (التتار) للدولة الخوارزمية:

مصطحبة معها نساء السلطان وأبنائه، وحاملة معها ما خف

وزنه وغلا ثمنه، قد عبرت نهر جيحون، واخترقت الطريق الصحراوي قاصدة خراسان، ثم توجهت إلى مازندران، حيث لجأت إلى إحدى القلاع الحصينة الموجودة بهذه المنطقة.

ولكن المغول كانوا قد شرعوا في حصار تلك القلعة في أوائل سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠ م، عندما كانوا يطاردون السلطان محمد، واستمروا يحاصرونها مدة ثلاثة أشهر إلى أن نفذ الماء لدي المحاصرين، فسلمت تركان خاتون ومن معها، وسيق الجميع إلى معسكر جنكيزخان، وقد بقيت تركان خاتون أسيرة عند المغول إلى أن صحبوها معهم عندما قرروا العودة إلى بلادهم، حيث ظلت تعيش أسيرة ذليلة إلى أن ماتت في سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م. أما أبناء السلطان محمد الصغار فقد تخلص جنكيزخان منهم رغم صغر سنهم(١).

ثم وضعت القوات المغولية نصب عينيها - بعد الخلاص من السلطان الخوارزمي - الاستيلاء على مدينة جرجانية (٢) قاعدة إقليم خوارزم وعاصمته، التي كانت في نفس الوقت حاضرة الدولة. فاقتحموها عنوة بعد حصار دام أربعة أشهر كاملة. ففعلوا بها الأفاعيل واستباحوها، فأسروا من بقي من النساء والأطفال، ووضعوا السيف في رقاب من نجا من الغرق من الرجال، ولم يبقوا على أحد من سكان المدينة على قيد الحياة، اللهم إلا أرباب الحرف

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٢٥.
(٢) قاعدة خوارزم وتقع على الجانب الغربي من نهر جيحون واسمها (كركنج) وسماها العرب (جرجانية).

والصناعات الذين أرسلوا إلى بلاد المغول حيث يتم استخدامهم [١].

ثم بسط جنكيزخان سيطرته على المناطق المحيطة بسمرقند، وعلى الأقاليم الإسلامية الضخمة الواقعة في جنوب " سمرقند " وشمالها..

وكان أعظم الأقاليم وأقواها في هذه المناطق: بقية مدن إقليم خوارزم وكل إقليم خراسان..

وكان إقليم خراسان يعد من الأقاليم الشاسعة وبه مدن عظيمة كثيرة مثل بلخ ومرو ونيسابور وهراة وغزنة وغيرها (وهو الآن في شرق إيران وشمال أفغانستان)..

وأما إقليم خوارزم فهو الإقليم الذي كان نواة للدولة الخوارزمية، واشتهر بالقلاع الحصينة والثروة العددية والمهارة القتالية، وهو يقع إلى الشمال الغربي من " سمرقند "، ويمر به نهر جيحون (وهو الآن في دولتي أوزبكستان وتركمنستان).. وقام ببث الرعب والفزع في نفوس الأهالي، فقام بعمليات إبادة وتدمير تبث الرعب في قلوب المسلمين في الإقليمين الكبيرين خوارزم وخراسان.

بتدمير إقليمي خراسان وخوارزم يكون المغول قد سيطروا على المناطق الشمالية ومناطق الوسط من دولة خوارزم الكبرى، ووصلوا في تقدمهم إلى الغرب إلى قريب من نهاية هذه الدولة (على حدود العراق)، ولكنهم لم يقتربوا بعد من جنوب دولة خوارزم.. وجنوب دولة خوارزم كانت تحت سيطرة " جلال الدين بن محمد بن

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ١٠١.

خوارزم شاه "، وهو ابن الزعيم الخوارزمي الكبير محمد بن خوارزم، وكان قد عهد عليه بحكم قبل هذا الإقليم في حياته وقبل تنامي الخطر المغولي، ثم استدعاه ليساعده في الحرب مع المغول، ثم اصطحبه في رحلة الفرار من قبضة المغول إلى أن وصل إلى جزيرة في بحر قزوين، ثم أوصى له قبل وفاته بولاية العهد من بعده بعد عزل أخيه أزلاغ شاه، وحمله لواء الحرب والجهاد ضد المغول.

وكان الذي حدث أنه عقب وفاة السلطان الخوارزمي عاد أبناؤه الكبار إلى خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والترحاب، وسرعان ما تكون جيش خوارزمي، حيث بدأ جلال الدين منكبرتي منذ العام ٦١٨ هـ العمل على إحياء فكرة الجهاد بين الجموع المتحاربة،واستجمع الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم، وظل على تلك الحال يستنفر أهالي غزنة [١] وجنوب دولة خوارزم - الذي كان يشمل وسط وجنوب أفغانستان وباكستان، وكان يفصل بينه وبين الهند نهر السند -، ويحضهم على الجهاد، حتى كون جيشا قويا [٢].

وبالرغم من أن جلال الدين قد نجح في بداية الأمر من توجيه ضربة قاسية للمغول وأوقع بهم الهزيمة في أفغانستان، ولكن انقسم

(١) غزنة: من أشهر مدن سجستان (أفغانستان). كانت دارا لملوك آل سبكتكين، وإليها ينسب البيت الغزنوي والدولة الغزنوية التي اشتهرت في القرن الخامس والسادس للهجرة. ينسب إليها كثير من العلماء منهم: أبو الفضل محمد بن أبي يزيد طيفور السجاوندي الغزنوي صاحب كتاب (عين المعاني) في تفسير القرآن. ومدينة غزنة في أفغانستان الآن، وتقع على بعد حوالي مائة وخمسين كم جنوب مدينة كابول، وهي مدينة حصينة تقع في وسط جبال باروبا ميزوس الأفغانية).

(٢) أبو الفدا، المختصر، ٣ / ١٢٨، النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ١٢٣ - ١٢٤.

جيشه عليه حينما تنازعوا على الغنائم ففشلوا وذهبت ريحهم، وأمام هذا الانقسام وجد جلال الدين نفسه عاجزا عن مواجهة المغول بجيوشه المفككة والمنقسمة على نفسها، فاضطر إلى التقهقر نحو السهل الواقع غربي نهر السند، وخاصة عندما علم أن جيوش جنكيزخان تتعقبه.

لقد أخذ جيشه وبدأ يتجه جنوباً للهروب من جيش جنكيزخان، أو على الأقل لتجنب الحرب في هذه الظروف..

وبعد الخلاص من السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد بهروبه ثم وفاته في إحدى جزر بحر قزوين، وفرار ابنه جلال الدين منكبرتي إلى الجنوب بعد انقسام جيشه، وجد المغول الفرصة سانحة لاستكمال ما كانوا قد بدأوه، فاستولوا على إقليم أذربيجان المسلم سنة ٦١٨ هجرية وعلى اجتياح أرمينيا وجورجيا اللذان يقعان في غرب وشمال أذربيجان، وهمذان وأردبيل وتبريز،اجتاحوا داغستان والشيشان،وبعد أن سيطر المغول على المناطق الشمالية من الخلافة العباسية لا سيما مناطق أذربيجان وأرمينية وجورجيا واجتاحوا الجنوب الغربي من روسيا.

وبعد هذه العاصفة على العالم الإسلامي خفت القبضة المغولية على غرب الدولة الخوارزمية (غرب وشمال إيران) واكتفوا ببعض الحملات المتباعدة، واهتموا بتوطيد ملكهم وتثبيت أقدامهم في شرق الدولة الخوارزمية في مناطق نهري سيحون وجيحون، وفي شمال أفغانستان وشرق إيران..مما مهد لظهور الأمير " جلال الدين بن محمد بن خوارزم "، والذي كان قد فرّ قبل ذلك إلى الهند منذ خمس

سنوات (في سنة ٦١٧ هجرية)، وذلك أنه لم يستطع إكمال حياته في الهند، فقد كانت العلاقات أصلاً سيئة مع ملوك الهند، ثم إنه وجد أن التتار قد تركوا منطقة فارس نسبياً، وأن جنكيزخان قد عاد إلى بلاده لمعالجة بعض الأمور هناك وترك زعيماً غيره على جيوش التتار، وأن أخاه غياث الدين قد سيطر على معظم أجزاء فارس بعد أن تقاتل مع سعد الدين بن دكلا، واتفقا في النهاية على تقسيم فارس بينهما، وكان النصيب الأكبر لغياث الدين، وتم ذلك في سنة٦٢١ هجرية كما أشرنا من قبل.. [(١)].

فعبر نهر السند ودخل إقليم كرمان (جنوب باكستان) ثم تجاوزه إلى جنوب فارس (جنوب إيران) ثم بدأ يجمع حوله الأنصار له، وذهب إلى " سعد الدين بن دكلا " وتحالف معه ضد أخيه غياث الدين!!!!..

وبدأ جلال الدين في غزو إقليم فارس من جنوبه إلى الشمال محارباً أخاه غياث الدين، حتى وصل إلى غرب إيران، وأصبح قريباً من الخلافة العباسية، وكانت العلاقات القديمة بين مملكة خوارزم والخلافة العباسية متوترة جداً، ووجد جلال الدين في نفسه قوة، ووجد في الخلافة ضعفاً، فأعلن الحرب على الخلافة العباسية.. ودخل جلال الدين بجيشه إلى البصرة، وحاصرها لمدة شهرين، ثم تركها واتجه شمالاً ليمر قريباً من بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وخاف الناصر لدين الله الخليفة العباسي على نفسه؛ فحصن المدينة وجهز الجيوش لدفع جلال الدين، ولكن لم يكتف بذلك بل أرسل إلى

(١) ابن الأثير، الكامل، ٥ / ٢٩١، أبو الفدا، المختصر، ١ / ٤٠١.

المغول يستعين بهم على حرب جلال الدين.

إلا أن التتار كانوا مشغولين ببسط سيطرتهم في المناطق الشاسعة التي احتلوها، فلم يحدث بينهم وبين جلال الدين قتال إلا في أواخر سنة ٦٢٢ هجرية.. واستثمر جلال الدين هذه الفترة في بسط سيطرته على المناطق المحيطة ببغداد، ثم شمال العراق ثم منطقة شمال فارس، وبدأ يدخل في أذربيجان وما حولها من أقاليم إسلامية.

ثم بسط جلال الدين سيطرته على مملكة الكرج النصرانية بعد أن أوقع بهم هزيمة فادحة، واصطلح مع أخيه غياث الدين صلحاً مؤقتاً، وأدخله في جيشه، ولكن كان كل واحد منهما على حذر من الآخر..

واستمر جلال الدين في حروبه في هذه المنطقة ليس مع التتار، ولكن مع المسلمين!! واستولى على بعض المدن والأقاليم، وكان من أبشع ما فعل هو حصاره لأهل " خلاط " أو " أخلاط " وهي مدينة مسلمة (في شرق تركيا الآن)؛ فقد قتل منهم خلقاً كثيراً، وامتدت أيدي الجنود الخوارزميين إلى كل شيء في البلد بالسلب والنهب حتى سبوا الحريم المسلمات [١].

وبعد وفاة جنكيزخان، هدأت الأمور نسبيا فواصل جلال الدين تقدمه وسيطرته على كثير من الممالك الإسلامية فاقتحم كرمان وفارس ويزد، وخضع له الأتابكة في تلك الأقاليم، وصاروا يأتمرن بأمره، ثم قصد أصفهان فأسرعت إلى تقديم الخضوع له بعد أن أنقذها من المغول، وبهذا أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٧٢.

الدولة الخوارزمية.

ولم يقف جلال الدين خوارزم عند هذا الحد، بل عمل أيضا على بسط نفوذه على الأقاليم المجاورة، فاستطاع أن يخضع الخليفة العباسي، وينتصر على جيوشه، وعلى الرغم من هذا فقد هادنه واصطلح معه، ثم توجه شمالا فأخضع إقليم أذربيجان، واستولي على عاصمته تبريز، ومكث عدة أيام في هذه المدينة، ثم تركها وتوجه نحو جورجيا وفتحها، وسقطت في يده عاصمتها تفليس سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م، وفي العام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م حارب الإسماعيلية وانتصر عليهم وأجبرهم على أن يلزموا قلاعهم، وفي العام ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م انتزع خلاط من يد صاحبها الأشرف موسي بن المالك العادل أيوب [١].

وبعد وفاة جنكيزخان كلف الخاقان الجديد " أوكيتاي " أحد أبرز قادته بالقيام بمهمة الاجتياح التتري الثاني، وهو القائد " شورماجان " والذي جمع جيشاً هائلاً من التتر

وتقدم صوب العالم الإسلامي من جديد..

وكان جلال الدين خوارزم شاه قد استغل فرصة إنشغال المغول بشئونهم الداخلية وانسحاب قواتهم من المناطق الرئيسية في أقاليم الدولة الخوارزمية، وسعي لاستعادة ملك آبائه وأجداده، واستطاع بالفعل أن يستعيد الكثير من أجزاء ا لدولة الخوارزمية، ولكنه دخل

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٤٤٧، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٦٩.

في منازعات كثيرة مع الحكام والملوك المسلمين مما شتت جهوده وأضاع الكثير من الوقت والجهد في نزاعات تعتبر داخلية لا طائل منها وظل منشغلا بها حتى فاجأته جحافل المغول من جديد وأجبرته على الفرار أمامها والتنازل لها عما حققه من نجاحات.

فلما جاءت جيوش التتار بقيادة شورماجان اجتاحت البلاد الإسلامية اجتياحاً بشعاً، وسارت القوات المغولية إلى إيران، فاستولت على الري وهمدان، وواصلت زحفها على حدود أذربيجان في أوائل سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م، وفي ذلك الوقت كانت جهود المغول منصرفة إلى تتبع جلال الدين والقضاء عليه؛ لأن هذا يكفل لهم - في سهولة ويسر - إحكام سيطرتهم من جديد على أقاليم الدولة الخوارزمية، وقد وصل إلى علمها أن جلال الدين قد ضعف جدًّا في هذه السنة لحدوث هزيمتين له من الأشرف بن العادل حاكم ديار الجزيرة في شمال العراق وجنوب تركيا، وكانت طائفة الإسماعيلية - وهي من طوائف الشيعة في غرب إقليم فارس - قد راسلت التتار وأخبرتهم بضعف جلال الدين؛ وذلك لأنه كانت بينهم وبين جلال الدين حروب، فأرادوا الانتقام منه بإخبار التتار بوقت ضعفه..

وجاءت جحافل التتار ودمرت في طريقها كل ما يمكن تدميره، وأكلت الأخضر واليابس، وكان لها هدف رئيسي هو الإمساك بجلال الدين بن خوارزم.. فلما رحل السلطان الخوارزمي إلى تبريز مطمئنا إلى أن المغول سيقضون الشتاء في إقليم العراق العجمي، إذا بهم يفاجئونه، وهم يجدون في أثره، ويرغمونه على التقهقر إلى سهل موقان المجاور للساحل الغربي لبحر قزوين، قبل أن يتمكن من

جمع جيوشه، ولم يكد يستقر في موقان حتى علم بمسير المغول إليه، فاضطر إلى العودة ثانيًا إلى أذربيجان [1].

وبدأ جلال الدين يفكر في الاستنجاد بالحكام المسلمين الذين كان قد عاداهم ودخل مع معظمهم في صراعات دامية حول القليل من المناطق متناسين ذلك العدو المتربص بهم، فبدأ أخيرا يعرف أهمية اتحاد الوحدة الإسلامية، فأرسل إلى أمراء وحكام المسلمين يدعوهم إلى التحالف معه للوقوف صفا واحدا في وجه المغول، وقال لهم: " إن جيشا جرارا من عساكر التتار، كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا. فإذا ترك وشأنه، فسوف لا تصمد هذه القلاع والأمصار، وقد تمكن الرعب من قلوب الناس في هذه المنطقة، فإذا هزمت وخلا مكاني من بينكم فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو. وإذن فأنا لكم بمثابة سد الاسكندر، فليسارع كل منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود، حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم، وفت في عضدهم، فيتشجع جنودنا وتقوي قلوبهم " [2].

ولكن قد فات الأوان، فقد اقترب طوفان المغول، ولا مجال إلا للفرار، وذهبت دعوته أدراج الرياح، وترك وحده يلقي مصيره المحتوم، والتقى بهم جلال الدين في موقعة انهزم فيها شر هزيمة، وقتل المغول عددا كبيرا من الخوارزميين، وتفرق الباقون، وكان السلطان ممن أسرع بالفرار من أمام التتار وقد تمزق جيشه، وإذا به

(١) حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٩٤، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٧١.

(٢) الجويني، تاريخ جهانكشاه، ٢ / ١٨٣، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص١٧٢.

يلقى نفس المصير الذي لقيه أبوه منذ أحد عشر عاماً.. فهو يفر من قطر إلى قطر، ومن مدينة إلى مدينة، والتتار خلفه يقتلون ويسبون وينهبون، حتى وصل جلال الدين إلى أرض الجزيرة بشمال العراق حيث تفرق عنه جنوده أجمعون، وبقي وحيداً شريداً طريداً كما حدث مع أبيه تماماً، وأخذ يتنقل بمفرده بين القرى فراراً من التتار، واختفى ذكره من البلاد شهوراً متصلة؛ فلا يعرف أحد إن كان قُتل أو اختفى أو هرب إلى بلد آخر.. ثم وصل إلى إحدى القرى حيث استقبله فلاح من الأكراد وسأله من أنت؟ وقد تعجب الفلاح من كثرة الجواهر والذهب الذي عليه، فقال له جلال الدين: أنا ملك الخوارزمية..! يقول ذلك ليلقي الرهبة في قلب الفلاح، ولكن - سبحان الله - كان ذلك الإعلان ليقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ فقد كانت جنود الخوارزمية قتلت أخاً لهذا الفلاح!! فلما علم الفلاح بأن هذا هو جلال الدين استقبله وأكرمه وقدم له الطعام، ثم اطمأن له جلال الدين فنام، وهنا قام الفلاح وقتل جلال الدين بالفأس، وأخذ ما عليه من الجواهر وسلمها إلى شهاب الدين غازي صاحب هذه المنطقة، والذي طالما ذاق من ويلات جلال الدين..وكانت نهاية جلال الدين منكبرتي آخر الملوك الخوارزمية في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ / ١٥ أغسطس سنة ١٢٣١م [١].

ولم يبق فاصل بين المغول والخلافة العباسية في العراق إلا

---

(١) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٣٨٤، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص١٧٢، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٧٢.

.

شريط ضيق في غرب إقليم فارس، (غرب إيران الآن).. وهو على قدر من الأهمية - وإن كان ضيقاً -؛ إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية الخطرة، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلاً عن طبيعة المكان الجبلية.. وكانوا على خلاف دائم مع الخلافة العباسية.. وكراهية شديدة للمذهب السني، وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيراً.. فمرة يراسلون المغول، ومرة يراسلون الصليبيين.. وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم؛ فالمغول ما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض..

التقارب الصليبي المغولي ضد المسلمين:

كانت " توراكينا خاتون " زوجة الخاقان المغولي تدين بالمسيحية وقامت بتربية ابنها " كيوك " على المسيحية، فنشأ يدين ويحب المسيحية وصار بلاطه يعج بالمسيحيين من المغول، وقرب إليه كل من يدين بالنصرانية، وصار يعطف عطفا شديدا على رعاياه من المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس، وقد شجع ذلك الغرب الأوروبي في التقرب من المغول ومحاولة التحالف معهم ضد العالم الإسلامي، وتكوين معه جبهة يطوقون بها العالم الإسلامي ويجعلونه بين شقي رحا، فأرسل البابا " إنوسنت الرابع " سفارة إلى منغوليا في سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥ م، وكان غرض السفارة هو التوحد مع التتار لحرب المسلمين في مصر والشام، (لم يكن همّها - مثلاً - أن ترفع الاحتلال والظلم عن نصارى أوروبا وروسيا)، وكانت هذه الرسالة برئاسة الراهب الفرنسيسكاني " يوحنا دي بلاين كاربين "

واستقبل " كيوك " السفارة الصليبية بحفاوة لكثرة النصارى في البلاط المغولي، ولكن عندما قرأ كيوك رسالة البابا وجده - بالإضافة إلى طلبه توحيد العمل العسكري ضد المسلمين - فإنه يدعوه إلى اعتناق النصرانية، واعتبر خاقان المغول أن هذا تعدياً من البابا؛ إذ كيف يطلب من خاقان المغول أن يغير من ديانته؟! فأعاد الخاقان " كيوك " السفارة الصليبية بعد أن حملها برسالة إلى البابا يطلب منه أن يجمع أمراء الغرب الأوروبي جميعاً ليأتوا إلى منغوليا لتقديم فروض الولاء والطاعة للخاقان التتري، وبعد ذلك يبدأ التعاون.. وبالطبع رفض ملوك أوروبا الغربية هذا الطلب، وبذلك فشلت السفارة الصليبية في تحقيق أهدافها..

لكن البابا الكاثوليكي " إنوسنت الرابع " لم ييئس من فشل هذه السفارة، بل أرسل سفارة صليبية أخرى - بعد فترة قصيرة -، ولكنه هذه المرة أرسلها إلى قائد القواد التترية في مدينة " تبريز " بمنطقة فارس الملاصقة للخلافة الإسلامية، وكان اسمه " بيجو " وذلك في سنة ٦٤٥ هـ / مايو ١٢٤٧ م، وقد لمس فيه البابا حباً للعدوان والهجوم، وعلم أنه من أنصار التوسع من جديد في أراضي المسلمين، وقد لاقت السفارة ترحيباً كبيراً من " بيجو " الذي توقع أن هجوم الصليبيين على مصر والشام سوف يشغل المسلمين في هذه الأقاليم عن الدفاع عن الخلافة العباسية في العراق، وبذلك تسهل مهمته في اقتحامها.. ولكن لا يخفى على أحد أن صلاحيات " بيجو " لم تكن تؤهله لاتخاذ مثل هذا القرار الاستراتيجي الخطير بالتعاون مع الصليبيين، وكان " كيوك " ما زال على رأيه في عدم التوسع،

وعدم التعاون مع الصليبيين إلا بعد خضوعهم له، ومن ثم فشلت أيضاً هذه السفارة الثانية.. [١].

ولم تلبث تلك الاتصالات التي بدأت بين المغول والبابوية، وفي الوقت الذي كان لويس التاسع يعد العدة لحملته الصليبية ضد المسلمين، أن أدت إلى نوع من المفاوضات بين المغول والصليبيين، بقصد تطويق المسلمين في الشرق الأدني. ذلك أن لويس التاسع لم يكد يصل قبرص في طريقه إلى دمياط حتى وفدت على نيقوسيا في ديسمبر سنة ١٢٤٨ م سفارة تألفت من اثنين من نساطرة الموصل - اسميهما: داوود ومرقص - قالا أنهما موفدان من قبل جغطاي خان نائب الخاقان الأعظم في القوقاز وفارس. وكان الغرض من تلك السفارة عقد تحالف عسكري بين الصليبيين والمغول ضد الأيوبيين في الشام من ناحية والخلافة العباسية في بغداد من ناحية أخري.

وكان المغول عندئذ يفكرون في اجتياح العراق وبغداد، وهو الأمر الذي قام به - بعد سنوات هولاكو - فأرادوا أن يحولوا دون أي مساعدة يقدمها الأيوبيون في مصر والشام للخلافة العباسية عن طريق محالفة الصليبيين، وقد رد الملك لويس على المغول بإرسال سفارة من ثلاثة أعضاء من الرهبان الدومنيكان إلى المغول، فغادرت السفارة قبرص في يناير سنة ١٢٤٩م محملة بالهدايا من الملك الفرنسي، وقصدت جغطاي خان في أذربيجان، وسلكت تلك السفارة طريق أنطاكية والموصل. على أنه يبدو أن تلك السفارة لم تحقق نتيجة حاسمة سريعة في موضوع التحالف بين لويس

(١) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني، ٣ / ٤٤٧.

والمغول، لأن جغطاي أرسل مبعوثي لويس إلى قراقورم - مقر خاقان المغول الأعظم في جوف آسيا - في الوقت الذي كان الخاقان كيوك قد توفي في أوائل إبريل سنة ١٢٤٨م. ومن الواضح أن منكوخان - خاقان المغول الجديد - وجغطاي خان - نائب الخاقان في فارس - خشيا تحمل مسئولية سياسة جديدة تستهدف التحالف مع لويس التاسع ضد المسلمين، الأمر الذي جعل لويس يوجه نظره إلى كتلة أخري من المغول، وهم مغول وسط روسيا.

وكان ذلك سنة ١٢٥٣م - أي بعد هزيمة المنصورة وإطلاق سراح لويس - عندما أرسل الملك الفرنسي سفارة إلى سرتاق بن باتو - وكان مسيحيا لطلب التحالف ضد المسلمين. وكانت سفارة لويس يرأسها أحد الرهبان الفرنسيسكان واسمه: روبروك، وقد وصل روبروك إلى سرتاق، وعندئذ أخبره الأخير أنه لا يستطيع أن يقطع في الموضوع برأي حاسم دون إذن من والده باتو خان. وهكذا يممت سفارة لويس وجهها شطر باتو خان الذي حول السفارة بدوره إلى منكو - خاقان المغول العظيم -. وقد قضي روبروك مندوب لويس التاسع خمسة أيام في بلاط الخاقان في قراقورم، التقي فيها بكثير من رسل الملوك والحكام، مثل رسل الإمبراطور البيزنطي والبابوية وبعض ملوك الأيوبيين، فضلا عن الخليفة العباسي، وغيرهم ممن أرادوا أن يخطبوا ود المغول. ويبدو أن رد منكو على رسالة لويس التاسع جاء غير مقبول، إذ طلب خاقان المغول من ملك فرنسا أن يعلن تبعيته له. وعندما عاد روبروك مبعوث لويس إلى قبرص ومنها إلى عكا سنة ١٢٥٥م، وكان لويس قد غادر الشام منذ

أشهر عائدا إلى فرنسا، فأرسل له روبروك رسالة تتضمن ما قام به في رحلته. وإذا كان روبروك قد ردد بعض الأنباء عن تأهب المغول لغزو العراق والقضاء على الخلافة العباسية والباطنية جميعا، فإن هذه الأنباء إنما سمعها روبروك في بلاط المغول، وليس فيها - على ما يبدو - ما يفيد تحالف المغول مع الصليبيين لتحقيق تلك المشروعات.

ومع أن رد خاقان المغول على سفارة لويس التاسع كان غير مشجع على استمرار المحادثات بين المغول والصليبيين، فإن الأنباء التي حملها روبروك - رسول لويس - عن استعداد المغول لاجتياح العراق وإسقاط الخلافة العباسية، جاءت مشجعة للصليبيين الذين رأوا في ذلك فرصة للانتقام من المسلمين واسترداد بيت المقدس. حقيقة أن المشروع المغولي ضد المسلمين - هو المشروع الذي سمع به روبروك سنة ١٢٥٢م - لم ينفذ إلا سنة ١٢٥٨م - ١٢٦٠م، لكنه مع ذلك أظهر المغول في صورة الحلفاء الطبيعيين للصليبيين ضد عدو مشترك واحد. ولهذا السبب حرص الصليبيون في هذا الدور على دوام الاتصال بالمغول، فلم يكتف هيثوم الأول ملك أرمينية الصغري بإرسال أخيه سمباط - وهو المؤرخ الشهير صاحب الحولية المعروفة في عصر الحروب الصليبية - إلى بلاط الخاقان في قراقورم سنة ١٢٤٧ - ١٢٤٨ م، إنما أحس هيثوم بضرورة ذهابه بنفسه سنة ١٢٥٤م إلى بلاط منكوخان، فوصل إليه في سبتمبر من العام نفسه حيث قدم لخاقان المغول فروض الولاء والخضوع. وفي المحادثات التي دارت بين الطرفين أظهر الخاقان عطفه الشديد

على المسيحية والمسيحيين، وأعلن وضع الكنيسة ورعاياها في جميع البلاد التابعة له تحت حمايته ورعايته. وأهم من هذا كله أن منكو خان أعلن رسميا في تلك الزيارة أنه كلف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العباسية (العدو اللدود)، واستعادة الأراضي المقدسة للمسيحيين.

وليس من العسير بعد هذا كله أن ندرك قيام نوع من التحالف بين المغول والصليبيين في تلكم الفترة، وإن كانت الوثائق التي بأيدينا ليس فيها ما ينص على عقد ذلك التحالف رسميا. وربما كان السبب في ذلك هو أن هيثوم كان لا يملك أن يتكلم باسم نفسه وباسم مملكة أرمينية الصغري، في حين لم يحاول بقية الأمراء الصليبيين - في قبرص والشام - أن يتصلوا بالمغول اتصالا مباشرا، كما فعل لويس التاسع وهيثوم.

ومهما يكن من أمر فالذي يهمنا في هذا الموضوع هو أن لويس التاسع خطا خطوات فعالة في مفاوضة المغول، ومحاولة جرهم إلى حلف ضد المسلمين، مما مكن هيثوم الأول ملك أرمينية من تحقيق التحالف فعلا مع المغول، وبذلك أتيح للصليبيين أمل كبير في محو الخلافة العباسية - المركز الروحي للمسلمين في الشرق الأدنى - فضلا عن إخضاع فارس والعراق والقطاع الذي بيد المسلمين من الشام لحكم المغول، الذين يميلون إلى المذهب النسطوري، مما يجعل الصليبيين يأمنون على أنفسهم في بلاد الشام [١].

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ / ٨٧٠ - ٨٧٣.

وفي تلك الأثناء كان لويس التاسع قد أصر على القيام بحملته الصليبية حتى مع عدم اشتراك التتار، فتوجه فعلاً من قبرص إلى مصر، ونزل بدمياط في سنة 647 هجرية، واحتل دمياط، ثم تجاوزها إلى داخل مصر - عبر نهر النيل - في اتجاه القاهرة، ولكن الجيش المصري قابله في المنصورة، وكان معه سلطان مصر " الصالح أيوب " الذي مات بعد ثلاثة أيام من بداية المعركة في المنصورة، وتولت أمر مصر السلطانة " شجرة الدر " زوجة الصالح أيوب التي أخفت خبر وفاة زوجها، وراسلت توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان يحكم إحدى المناطق في تركيا، وقامت شجرة الدر - بالاشتراك مع قواد الجيش فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس - بإدارة موقعة المنصورة المشهورة ضد الصليبيين، وانتصر المسلمون في هذه الموقعة، ثم وصل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى مصر، وتولى حكم البلاد، وانتصر مرة أخرى على الصليبيين في موقعة فارسكور، وأسر لويس التاسع وذلك في سنة ٦٤٨ هـ، ثم حدثت بعض الفتن في مصر، وقتل توران شاه، وتولت شجرة الدر ملك مصر علانية، ولكن الجو العام في مصر لم يكن يقبل بولاية امرأة، فتزوجت من أحد قادة المماليك وهو " عز الدين أيبك "، ثم أصبح سلطاناً على مصر، وبذلك وصل المماليك إلى حكم مصر خلفاً للأيوبيين

لكن المهم في تلك الأحداث أن نشير إلى ظهور قوة المماليك، وفشل الحملة الصليبية السابعة، وهذا ولا شك قد زاد من حقد الصليبيين، وأكد على ضرورة التعاون مع التتار لحرب

المسلمين..[١].

إسقاط الطائفة الإسماعيلية

في حقيقة الأمر أن غزو المغول (التتار) العالم الإسلامي لم يكن أمراً مفاجئاً وطفرة بدون مقدمات؛ لأن جيوش المغول كانت قبل ذلك قد اخترقت الآفاق، دوخت الصين الشمالية، وقضت على الدولة الخوارزمية المسلمة، وسيطرت على خراسان ومرو وبخارى وسمرقند، وأذربيجان وروسيا الجنوبية، والقرم والقوقاز، دون أن تنتبه بغداد من نومها. وبعد تولي (أوكتاي) الذي خلف جنكيز خان، انقضت جيوشه على شمال جبال الأورال وبحر الخزر ومدينتي موسكو وبلغار على نهر الفولغا، وهزمت البولنديين ودمرت مدينة براسلاف الألمانية، وهزمت حاكم سيليسيا هنري الثاني الذي انتحر للهزيمة. ثم حينما اختارت الأمة المغولية (مانكو) خلفاً لأوكتاي، أقام - على وثنيته - نظاماً متسامحاً تعايشت فيه جميع الأديان إسلاماً ومسيحية وبوذية، وشيدت فيه على قدم المساواة المساجد والكنائس والمعابد. ثم بعد ذلك عهد إلى أخيه هولاكو بغزو الغرب الأسيوي الذي يضم ديار المسلمين وعاصمتهم بغداد؟؛ كل هذا وقع والخليفة مع قادته العسكريين غارقون في غفلتهم!! [٢].

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٨٥. وللمزيد عن نشأة دولة المماليك أنظر: تاريخ دولة المماليك للمؤلف من نشر دار الإيمان للنشر والتوزيع بالمنصورة.

(٢) ثم بعد توقف المد المغولي عند فارس والعراق، وانحساره عن الشام بجهاد المماليك ومقاومتهم، ترك أمة ذاهلة واقتصاداً منهاراً ومجتمعاً بائساً هزيلاً، منغمساً في الخرافة والفوضى. ثم لطف الله بهذه الأمة فأسلم حكام إيران من المغول، وعلى رأسهم ملكهم (تيكودار)، وتتابع بعده إقبال المغول على الإسلام، لاسيما في عهد " غازان " الذي

كان سقوط الدولة الخوارزمية نذير شؤم بالنسبة للخلافة العباسية، وأرسل الخليفة العباسي المستنصر بالله يستنجد بملوك الأيوبيين في مصر والشام، كما بعث يطلب النجدة من القبائل العربية، بيد أن الظروف التاريخية السائدة في المنطقة العربية كانت تبدو مواتيه تماما للطموح المغولي؛ فالخلافة العباسية أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف الرافدين، كما أن سلاجقة فارس والعراق قد صاروا أثرا بعد عين، ولم يعد لهم وجود حقيقي، أما دولة سلاجقة الروم فكانت متاعبها الداخلية أكبر من قدراتها، كذلك فإن الأيوبيين الصغار في بلاد الشام كانوا على حالة من التشرذم والأنانية السياسية تمنعهم من أي جهد حقيقي، وتبقي دولة سلاطين المماليك التي كانت تعاني من مشكلات الشرعية السياسية، وتداول السلطة، وترتيب الأوضاع في الداخل، واتقاء خطر القادم من الخارج، وكانت المواجهة مع المغول بمثابة الاختبار الحاسم لقدرات هذه الدولة الوليدة [1].

وعلى مايبدو أن المغول أرادوا استغلال حالة الضعف والوهن

اختار مذهب أهل السنة وأحسن إلى أهل الشيعة. ثم خلفت مملكة المغول في إيران الدولة المظفرية في كرمان وفارس، والدولة الجلائرية في منطقة ما بين النهرين. وتتابعت بعد ذلك دويلات ضعيفة منقسمة على نفسها. مثل: الأسرة الخلجية الأفغانية (١٢٩٠ م - ١٣٣٠ م) الأسرة التغلقية (١٣٢٥ م - ١٤١٥ م) أسرة الشاة البيضاء (١٣٧٩ م - ١٥٠٣ م) أسرة الأسياد (١٤١٤ م - ١٤٥١ م) الأسرة اللودية (١٤٥٢ م - ١٥٢٦ م) نجم الدين إبراهيم بن على الحنفي الطَّرَسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق، عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، (ج ١ / ص ١٢).

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٥٦.

.

الذي كانت تعيشه المنطقة العربية الإسلامية، وهاجموا بغداد قبل سقوطها في أيديهم، وكانت المرة الأولي في عام ٦٣٥ هـ وفشلت هذه المحاولة وحاقت بهم الهزيمة، وعلى ما يبدو أن هذا الفشل جعل المغول أكثر تصميما من ذي قبل على الاستيلاء على بغداد وإسقاط الخلافة العباسية، ففي العام ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م اجتمع مجلس رؤساء التتر (القوربلاي) في عاصمتهم (قراقورم) وأجمعوا أمرهم على اختيار منكوحان بن نولاي بن جنكيزخان ليكون خانهم الأعظم، ولم يمض وقت طويل على تولية الخان الجديد، إذ أنه في العام التالي مباشرة أرسل حملتين:الأولي توجهت إلى الصين، والأخرى توجهت إلى غربا باتجاه الأراضي الإسلامية، وهذه الحملة كان غرضها الأساسي هو القضاء على معاقل طائفة الشيعة الإسماعيلية وتدمير الخلافة العباسية والاستيلاء على حاضرتها بغداد.

وبعد سقوط الدولة الخوارزمية على يد المغول لم يعد هناك قوة إسلامية يعتد بها من الممكن أن تقف في وجه هؤلاء الغزاة كما يقول ابن الأثير: "... نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر، والمعين، والذاب عن الإسلام معدوم،{وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ } [الرعد: ١١]، فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم، ولا من يحميها:{لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ

أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ} [الأنفال: ٤٤] (١).

وكان منكو خان قد جهز حملة عسكرية كبيرة وضعها تحت تصرف أخيه هولاكو وطلب منه التوجه إلى العالم الإسلامي وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيز خان (الياسا) (٢) التي كان قد وضعها لتسير عليها إمبراطورية المغول من بعده، وأوصاه بأن يبدأ أولا بالقضاء على طائفة الإسماعيلية التي كانت تسيطر على الشريط الحدودي الضيق الذي يفصل أملاك المغول في فارس عن دولة الخلافة العباسية في العراق (٣).

ومن العجيب حقا أن الإسماعيلية (٤) التي كانوا على اتصال دائم

(١) الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٠٥.
(٢) المقريزي، الخطط، ١ / ٢١٩ - ٢٢٠.
(٣) رشيد الدين، جامع التواريخ، ١ / ٢٤٦.
(٤) الإسماعيلية فرقة باطنية، انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام، تشعبت فرقها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر، وحقيقتها تخالف العقائد الإسلامية الصحيحة، وقد مالت إلى الغلوّ الشديد لدرجة أن الشيعة الاثني عشرية يكفّرون أعضاءَهَا.
التأسيس وأبرز الشخصيات: أولاً: الإسماعيلية القرامطية: كان ظهورهم في البحرين والشام بعد أن شقُّوا عصا الطاعة على الإمام الإسماعيلي نفسه ونهبوا أمواله ومتاعه فهرب من سلمية في سوريا إلى بلاد ما وراء النهر خوفاً من بطشهم. ومن شخصياتهم:.
- عبد الله بن ميمون القداح: ظهر في جنوبي فارس سنة ٢٦٠هـ.
- الفرج بن عثمان القاشاني (ذكرويه): ظهر في العراق وأخذ يدعو للإمام المستور.
- حمدان قرمط بن الأشعث (٢٧٨هـ): جهر بالدعوة قرب الكوفة.
- أحمد بن القاسم: الذي بطش بقوافل التجار والحجاج.
- الحسن بن بهرام (أبو سعيد الجنابي): ظهر في البحرين ويعتبر مؤسس دولة القرامطة.
- ابنه سليمان بن الحسن بن بهرام (أبو طاهر): حكم ثلاثين سنة، وفي عهده حدث التوسع والسيطرة وقد هاجم الكعبة المشرفة سنة ٣١٩هـ وسرق الحجر الأسود وأبقاه

عنده لأكثر من عشرين سنة.
- الحسن الأعصم بن سليمان: استولى على دمشق سنة ٣٦٠هـ.
ثانياً: الإسماعيلية الفاطمية:.
* وهي الحركة الإسماعيلية الأصلية وقد مرت بعدة أدوار:.
- دور الستر: من موت إسماعيل سنة ١٤٣هـ إلى ظهور عبيد الله المهدي. وقد اختلف في أسماء أئمة هذه الفترة بسبب السرية التي انتهجوها.
- بداية الظهور: بدأ الظهور بالحسن بن حوشب الذي أسس دولة الإسماعيلية في اليمن سنة ٢٦٦هـ وامتد نشاطه إلى شمال إفريقيا واكتسب شيوخ كتامة. يلي ذلك ظهور رفيقه على بن فضل الذي ادعى النبوة وأعفى أنصاره من الصوم والصلاة.
- دور الظهور: يبدأ بظهور عبيد الله المهدي الذي كان مقيماً في سلمية بسوريا ثم هرب إلى شمال إفريقيا واعتمد على أنصاره هناك من الكتاميين.
* قتل عبيد الله داعيته أبا عبد الله الشيعي الصنعاني وأخاه أبا العباس لشكهما في شخصيته وأنه غير الذي رأياه في سلمية.
* أسس عبيد الله أول دولة إسماعيلية فاطمية في المهدية بإفريقية (تونس) واستولى على رقادة سنة ٢٩٧هـ وتتابع بعده الفاطميون وهم:.
- المنصور بالله (أبو طاهر إسماعيل) ٣٣٤ - ٣٤١هـ.
- المعز لدين الله (أبو تميم معد): وفي عهده دخلوا مصر سنة ٣٦١هـ وانتقل إليها المعز في رمضان سنة ٣٦٢هـ.
- العزيز بالله (أبو منصور نزار) - ٣٦٥- ٣٨٦هـ.
- الحاكم بأمر الله (أبو على المنصور) - ٣٨٦ - ٤١١هـ.
- الظاهر (أبو الحسن على) - ٤١١ - ٤٢٧هـ.
- المستنصر بالله (أبو تميم) وتوفي سنة ٤٨٧هـ.
* وبوفاته انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى نزارية شرقية ومستعلية غربية والسبب في هذا الانقسام أن الإمام المستنصر قد نص على أن يليه ابنه نزار لأنه الابن الأكبر. لكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نحَّى نزاراً وأعلن إمامة المستعلي وهو الابن الأصغر كما أنه في نفس الوقت ابن أخت الوزير. وقام بإلقاء القبض على نزار ووضعه في سجن وسدَّ عليه الجدران حتى مات.
* استمرت الإسماعيلية الفاطميَّة المستعلية تحكم مصر والحجاز واليمن بمساعدة الصليحيين والأئمة هم:.
- المستعلي (أبو القاسم أحمد) - ٤٨٧ - ٤٩٥هـ.
- الآمر (أبو على المنصور) - ٤٩٥ - ٥٢٥هـ.
- الظافر (أبو المنصور إسماعيل) - ٥٤٤ - ٥٤٩هـ.
- الفائز (أبو القاسم عيسى) - ٥٤٩ - ٥٥٥هـ.

- العاضد (أبو محمد عبد الله) - من ٥٥٥هـ حتى زوال دولتهم على يدي صلاح الدين الأيوبي.
ثالثاً: الإسماعيلية الحشاشون:.
* وهم إسماعيلية نزارية انتشروا بالشام، وبلاد فارس والشرق، ومن أبرز شخصياتهم:.
* الحسن بن الصباح: وهو فارسي الأصل وكان يدين بالولاء للإمام المستنصر قام بالدعوة في بلاد فارس للإمام المستور ثم استولى على قلعة آلموت وأسس الدولة الإسماعيلية النزارية الشرقية - وهم الذين عرفوا بالحشاشين لإفراطهم في تدخين الحشيش، وقد أرسل بعض رجاله إلى مصر لقتل الإمام الآمر بن المستعلي فقتلوه مع ولديه عام ٥٢٥هـ. توفي الحسن بن الصباح عام ١١٢٤م.
* كيابزرك آميد توفي سنة ١١٣٥م.
* محمد بن كيابزرك آميد توفي سنة ١١٦٢م.
* الحسن الثاني بن محمد توفي سنة ١١٦٦م.
* محمد الثاني بن الحسن توفي سنة ١٢١٠م.
* الحسن الثالث بن محمد الثاني توفي سنة ١٢٢١م.
* محمد الثالث بن الحسن الثالث توفي سنة ١٢٥٥م.
* ركن الدين خورشاه: من سنة ١٢٥٥هـ إلى أن انتهت دولتهم وسقطت قلاعهم أمام جيش هولاكو المغولي الذي قتل ركن الدين فتفرقوا في البلاد وما يزال لهم أتباع إلى الآن.
رابعاً: إسماعيلية الشام:.
* وهم إسماعيلية نزارية، لقد أبقوا خلال هذه الفترات الطويلة على عقيدتهم يجاهرون بها في قلاعهم وحصونهم غير أنهم ظلوا طائفة دينية ليست لهم دولة بالرغم من الدور الخطير الذي قاموا به ولا يزالون إلى الآن في منطقة سلمية بالذات وفي مناطق القدموس ومصياف وبانياس والخوابي والكهف.
- ومن شخصياتهم (راشد الدين سنان) الملقب بشيخ الجبل، وهو يشبه في تصرفاته الحسن بن الصباح، ولقد كون مذهب السنانية الذي يعتقد أتباعه بالتناسخ فضلاً عن عقائد الإسماعيلية الأخرى.
خامساً: الإسماعيلية البهرة:.
* وهم إسماعيلية مستعلية، يعترفون بالإمام المستعلي ومن بعده الآمر ثم ابنه الطيب ولذا يسمون بالطيبية، وهم إسماعيلية الهند واليمن، تركوا السياسة وعملوا بالتجارة فوصلوا إلى الهند واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة، والبهرة لفظ هندي قديم بمعنى التاجر.
- الإمام الطيب دخل الستر سنة ٥٢٥هـ والأئمة المستورون من نسله إلى الآن لا يعرف

عنهم شيئاً، حتى إن أسماءهم غير معروفة، وعلماء البهرة أنفسهم لا يعرفونهم.
* انقسمت البهرة إلى فرقتين:.
- البهرة الداوودية: نسبة إلى قطب شاه داوود: وينتشرون في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجري وداعيتهم يقيم في بومباي.
- البهرة السليمانية: نسبة إلى سليمان بن حسن وهؤلاء مركزهم في اليمن حتى اليوم.
سادساً: الإسماعيلية الأغاخانية:.
* ظهرت هذه الفرقة في إيران في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وترجع عقيدتهم إلى الإسماعيلية النزارية، ومن شخصياتهم:.
- حسن على شاه: وهو الأغاخان الأول: الذي استعمله الإنجليز لقيادة ثورة تكون ذريعة لتدخلهم فدعا إلى الإسماعيلية النزارية، ونفي إلى أفغانستان منها إلى بومباي وقد خلع عليه الإنجليز لقب أغاخان، مات سنة١٨٨١م.
- أغا على شاه وهو الأغاخان الثاني:١٨٨١م - ١٨٨٥م.
- يليه ابنه محمد الحسيني: وهو الأغاخان الثالث:١٨٨٥م - ١٩٥٧م، وكان يفضل الإقامة في أوروبا وقد رتع في ملاذ الدنيا وحينما مات أوصى بالخلافة من بعده لحفيده كريم مخالفاً بذلك القاعدة الإسماعيلية في تولية الابن الأكبر.
- كريم: وهو الأغاخان الرابع: من ١٩٥٧م، وقد درس في إحدى الجامعات الأمريكية.
سابعاً: الإسماعيلية الواقفة:.
* وهي فرقة إسماعيلية وقفت عند إمامة محمد بن إسماعيل وهو أول الأئمة المستورين وقالت برجعته بعد غيبته.
الأفكار والمعتقدات:.
* ضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل على أن يكون الإبن الأكبر وقد حدث خروج على هذه القاعدة عدة مرات.
* العصمة لديهم ليست في عدم ارتكاب المعاصي والأخطاء بل إنهم يؤولون المعاصي والأخطاء بما يناسب معتقداتهم.
* من مات ولم يعرف إمام زمانه ولم يكن في عنقه بيعة له مات ميتة جاهلية.
* يضفون على الإمام صفات ترفعه إلى ما يشبه الإله، ويخصونه بعلم الباطن ويدفعون له خُمس ما يكسبون.
* يؤمنون بالتقية والسرية ويطبقونها في الفترات التي تشتد عليهم فيها الأحداث.
* الإمام هو محور الدعوة الإسماعيلية، ومحور العقيدة يدور حول شخصيته.
* الأرض لا تخلو من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور فإن كان الإمام ظاهراً جاز أن يكون حجته مستوراً، وإن كان الإمام مستوراً فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين.
* يقولون بالتناسخ، والإمام عندهم وارث الأنبياء جميعاً ووارث كل من سبقه من

الأئمة.

* ينكرون صفات الله أو يكادون لأن الله - في نظرهم - فوق متناول العقل، فهو لا موجود ولا غير موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، ولا يقولون بالإثبات المطلق ولا بالنفي المطلق فهو إله المتقابلين وخالق المتخاصمين والحاكم بين المتضادين، ليس بالقديم وليس بالمحدث فالقديم أمره وكلمته والحديث خلقه وفطرته.

من عقائد البهرة:.

* لا يقيمون الصلاة في مساجد المسلمين.

* ظاهرهم في العقيدة يشبه عقائد سائر الفرق الإسلامية المعتدلة.

* باطنهم شيء آخر فهم يصلون ولكن صلاتهم للإمام الإسماعيلي المستور من نسل الطيب بن الآمر.

* يذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين لكنهم يقولون: إن الكعبة هي رمز على الإمام.

* كان شعار الحشاشين (لا حقيقة في الوجود وكل أمر مباح) ووسيلتهم الاغتيال المنظم والامتناع بسلسلة من القلاع الحصينة.

* يقول أبو حامد الغزالي عنهم: (المنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها، وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم).

* يعتقدون أن الله لم يخلق العالم خلقاً مباشراً بل كان ذلك عن طريق العقل الكلي الذي هو محل لجميع الصفات الإلهية ويسمونه الحجاب، وقد حل العقل الكلي في إنسان هو النبي وفي الأئمة المستورين الذين يخلفونه فمحمد هو الناطق وعلي هو الأساس الذي يفسر.

الجذور الفكرية والعقائدية:.

* لقد نشأ مذهبهم في العراق، ثم فروا إلى فارس وخراسان وما وراء النهر كالهند والتركستان فخالط مذهبهم آراء من عقائد الفرس القديمة والأفكار الهندية، وقام فيهم ذوو أهواء في انحرافهم بما انتحلوا من نحل.

* اتصلوا ببراهمة الهند والفلاسفة الإشراقيين والبوذيين وبقايا ما كان عند الكلدانيين والفرس من عقائد وأفكار حول الروحانيات والكواكب والنجوم واختلفوا في مقدار الأخذ من هذه الخرافات وقد ساعدتهم سريتهم على مزيد من الانحراف.

* بعضهم اعتنق مذهب مزدك وزرادشت في الإباحية والشيوعية (القرامطة مثلاً).

* ليست عقائدهم مستمدة من الكتاب والسنة فقد داخلتهم فلسفات وعقائد كثيرة أثرت فيهم وجعلتهم خارجين عن الإسلام.

الانتشار ومواقع النفوذ:.

* لقد اختلفت الأرض التي سيطر عليها الإسماعيليون مدًّا وجزراً بحسب تقلبات الظروف والأحوال خلال فترة طويلة من الزمن، وقد غطى نفوذهم العالم الإسلامي

مع المغول لمدة طويلة، وكان جلال الدين حسن بن محمد زعيم الإسماعيلية قد أرسل إلى جنكيز خان مبعوثا ليقدم له فروض الولاء والطاعة، عندما اقترب من بلاد ماوراء النهر بقواته، وكان الإسماعيلية هم الذين استحثوا المغول أكثر من مرة على مهاجمة جلال الدين منكبرتي، واستحثوهم على سرعة القضاء على الدولة الخوارزمية وكلما اعتلي العرش المغولي خان جديد كان الإسماعيلية هم أول المهنئين، وفي حالة الوفاة كانوا أول المعزين.

ولكن بتشكيلات متنوعة تختلف باختلاف الأزمان والأوقات:.
- فالقرامطة سيطروا على الجزيرة وبلاد الشام والعراق وما وراء النهر.
- والعبيديون أسسوا دولة امتدت من المحيط الأطلسي وشمالي إفريقيا، وامتلكوا مصر والشام، وقد اعتنق مذهبهم أهل العراق وخُطب لهم على منابر بغداد سنة ٥٤٠هـ ولكن دولتهم زالت على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.
- والآغاخانية يسكنون نيروبي ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكنغو البلجيكي والهند وباكستان وسوريا ومركز القيادة لهم في مدينة كراتشي بباكستان.
- والبهرة استوطنوا اليمن والهند والسواحل القريبة المجاورة لهذين البلدين.
- وإسماعيلية الشام: امتلكوا قلاعاً وحصوناً في طول البلاد وعرضها وما تزال لهم بقايا في مناطق سلمية والخوابي والقدموس ومصياف وبانياس والكهف.
- والحشاشون: انتشروا في إيران واستولوا على قلعة آلموت جنوب بحر قزوين واتسع سلطانهم واستقلوا بإقليم كبير وسط الدولة العباسية السُنية، كما امتلكوا القلاع والحصون ووصلوا بانياس وحلب والموصل، وولي أحدهم قضاء دمشق أيام الصليبيين وقد اندحروا أمام هولاكو المغولي.
- المكارمة: وقد استقروا في نجران.

ويتضح مما سبق:أن الإسماعيلية في بدايتها كانت إحدى الفرق الشيعية ولكنها غلت في أئمتها أشد من غلو الرافضة، وتأثرت بمؤثرات كثيرة حتى وصل الأمر إلى أن اعتبرتها معظم الفرق الإسلامية كافرة وخارجة من الإسلام، لما أسبغوه على إمامهم من صفات تصل به إلى ما يشبه مقام الألوهية، ولقولهم بالتناسخ وإنكارهم صفات الله سبحانه وتعالى، ولعدم استمدادهم عقيدتهم من خالص الكتاب والسُّنة. وللمزيد من المعلومات أنظر: د / رجب محمود إبراهيم بخيت، الشيعة التاريخ الكامل، ص ١٧٧ - ٢٠٥ باختصار.

وبالرغم من ذلك فقد وجد هولاكو أن طائفة الإسماعيلية الشيعية التي تتمركز في الجبال في غرب فارس وشرق العراق سوف تمثل خطورة على الجيش المغولي... فطائفة الإسماعيلية مشهورة بقوة القتال، وبالحصون المنيعة، وهي طائفة لا عهد لها ولا أمان.. ومع أن المغول يعلمون أن الإسماعيلية كانوا على خلاف شديد مع الخلافة العباسية، ومع أنهم راسلوا قبل ذلك المغول ليدلوهم على ضعف جلال الدين بن خوارزم قبل مقتله في سنة ٦٢٩ هجرية، ومع أنهم من المنافقين الذين يتزلفون لأصحاب القوة.. مع كل هذه الاعتبارات إلا أن المغول لم يكونوا يأمنون أن تتحرك الجيوش المغولية إلى العراق، ويتركون في ظهرهم قوات عسكرية للإسماعيلية.. هذا بالإضافة إلى ثأر قديم كان بين المغول والإسماعيلية، فقد قتلت الإسماعيلية ابناً من أبناء جنكيزخان اسمه " جغتاي "، وذلك أيام حملة جنكيزخان على فارس، منذ أكثر من ثلاثين سنة..! ولم ينس المغول هذا الثأر؛ لأنه يخص ابن الزعيم الأكبر لهم، والذي جعل منهم مملكة لها شأن في الدنيا، كما أن حكام المغول من نفس عائلة جنكيزخان، ويعتبرون الثأر من الإسماعيلية مسألة شخصية بحتة، حتى إن الجيوش المغولية كانوا يصحبون معهم في حربهم ابنة " جغتاي " القتيل القديم، وذلك لزيادة حماستهم في القتال، ولكي تقوم بنفسها بالثأر لأبيها..

كل هذا دفع المغول إلى العزم على التخلص من الإسماعيلية نهائياً.. وصدرت الأوامر من قراقورم بمنغوليا بإبادة هذه الطائفة من على الوجود..

والحقيقة التي أغفلها الإسماعيلية والشيعة عامة هي أن المغول لم تكن عهود ولا وعود، ولا تقف أطماعهم عند حد معين، وهذه الحقيقة أغفلها الإسماعيلية وظنوا أن كرههم للمسلمين سوف يجمعهم مع المغول وسيكون حصنا يحتمون فيه من أخطار المغول، ولكن حينما أدرك الإسماعيلية أنهم الفريسة القادمة للمغول - وقد أثارهم مصير جيرانهم المسلمين - وأدركوا أنهم أحد الأهداف القادمة للمغول فتحركوا في اتجاهين، الاتجاه الأول حاولوا فيه أن يؤلفوا من الشعوب التي تعرضت لخطر المغول حلفا لمواجهة هذا الخطر بما في ذلك من كانوا أعداء الإسماعيلية، وفي نفس الوقت أرسلوا إلى أوروبا سنة ١٢٣٨م رسلا إلى ملوك إنجلترا وفرنسا يعلمونهما بهذا الخطر، ويطلبون في نفس الوقت المساعدة شارحين لهما ما اشتهر به المغول من قسوة وميل لإثارة الرعب والخوف، وما قاموا به في البلاد التي غزوها من تدمير وتخريب وقتل بطريقة غاية في الوحشية، وتحمس الإسماعيلية لإثارة ملوك أوروبا ضد المغول، خاصة بعد أن هرع الحكام المجاورون والقائمون بالحكم في آسيا الصغري وما حولها على تقديم فروض الطاعة والولاء للمغول [١].

ولكن لم تكن المواقف في أوروبا على مستوي الحدث، ولم يحصل سفراء الإسماعيلية إلا على وعود جوفاء وإجابات لا تشفي الغليل، بل ظل الأوربيون مشغولون بمشاكلهم الداخلية وبما كان يحدث من صراع بين البابا والإمبراطور فردريك الثاني [١].

---

(١) محمد مرسي الشيخ، أوروبا والتتار، ص ٢٦٥.

(١) محمد مرسي الشيخ، أوروبا والتتار، ص ٢٦٦.

ولما استيقظ الإسماعيلية من غفوتهم وأدركوا أن المغول في الطريق إليهم، حاولوا بالطرق السلمية دفع هذا الخطر فأرسل خورشاه زعيمهم إلى هولاكو الخواجة نصير الدين الطوسي (١) مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة يحملون الهدايا والتحف والطرائف الكثيرة، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا، حيث تقدم هولاكو صوب قلاع الإسماعيلية واستولي عليها الواحدة تلو الأخري، حتى وصل إلى قلعة آلموت (٢)وشدد الحصار عليها حتى اضطر ركن

(١) هو أبو جعفر أبو عبد الله محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي ويعرف بالمحقق، وبالخواجة، ولد بطوس (قرب نيسابور) سنة ٥٩٧هـ، وتوفي ببغداد سن ٦٦٢هـ، وكان مهتما بمؤلفات ابن سيناء، وهو أحد المعاول التي مكن للتتار من تدمير بغداد، وقتل المسلمين، فتعامله مع التتار لا ينكره أحد من علماء الشيعة، بل يذكرون كونه سبباً في جريان دماء المسلمين كالأنهار في نكبة التتار الشذرات ٣٣٩/٥، البداية والنهاية ٢٦٧/١٣، الأعلام ٣٠/٧. وقال فيه ابن القيم: " ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو شفى نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة واستشفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين واستبقى الفلاسفة والمنجمين الطبائعيين والسحرة.. إلى أن قال: وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر " والعجيب أن الخميني الشيعي يبارك نشاط الطوسي لدوره في هدم الخلافة الإسلامية وتفويض أركانها أنظر عن ذلك، الخميني، الحكومة الإسلامية ص ١٢٨.

(٢) قلعة آلموت: بالقرب من مدينة قزوين بإيران. استولى عليها الحسن الصباح الملقب بشيخ الجبل، ولبثت مائة وإحدى وسبعين سنة أمنع حصون الإسماعيلية، ثم استولى عليها هولاكو وأمر بتجريدها من آلاتها الحربية سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م.

وظلت صورة الحياة داخل قلعة (الموت) أشبه بالأساطير، حتى قدم الرحالة الشهير ماركو بولو، وصفاً دقيقاً لهذه القلعة فيما يلي: " هي أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عين، وتقع في واد بين جبلين، وملأها شيخ الجبل بكل أنواع الفاكهة، وأقام فيها قصوراً ومقصورات من أروع ما يمكن تخيله، وجميعها مغطاة برسوم فاتنة، ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وأقام على خدمة الحديقة فاتنات من أجمل نساء العالم، يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية،

الدين خورشاه إلى الذهاب إلى خيمة هولاكو وأعلن الخضوع والاستسلام، وأرسله هولاكو إلى الخان الأعظم مونكو خان ليري فيه ما يراه، ولكنه رفض مقابلته، فعاد ركن الدين، ولكنه لقي مصرعه أثناء عودته، وتمكن هولاكو من الاستيلاء على قلعة آلموت وغيرها من القلاع وقتل الألوف من أتباع هذه الطائفة سنة ١٢٥٧م.

وبعد قتل ركن الدين خورشاه قام " هولاكو " بخدعة خبيثة قذرة في مناطق الإسماعيلية، فقد أظهر لهم أنه على استعداد للاتفاق معهم، والتعاون سوياً لدخول بغداد، وطلب من قواد الإسماعيلية أن

ويغنين بأصوات رخيمة، ويؤدين رقصات تخلب الألباب، ذلك لأن شيخ الجبل كان يريد أن يوحي لشعبه بأن هذه هي الجنة الحقيقية، ولذا فقد نظمها بالوصف الذي جاء به محمد للفردوس، كحديقة جميلة، تفيض بأنهار من الخمر واللبن والعسل والماء، ومليئة بالحور العين، ومن المؤكد أن المسلمين في هذه الجهات يعتقدون أنها الجنة حقاً. ويستطرد الرحالة ماركو بولو في وصفه للقلعة: والآن لا يسمح لأحد بدخول هذه الحديقة إلا لهؤلاء الذين يراد لهم أن يكونوا حشاشين (Ashashin)، وتوجد قلعة عند مدخل الحديقة، تبلغ من القوة والمناعة أنها تستطيع مقاومة كل العالم، وليس هناك طريق آخر للدخول، وهو يحتفظ في بلاطه بشبان من أبناء المنطقة المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، وهي السن الملائمة للجندية، وتعود أن يقص عليهم قصصاً عن الجنة كما كان يفعل محمد، وهم يعتقدون فيه كما يعتقد المسلمون في النبي، ثم يدخلهم حديقته في مجموعات من أربعة أو ستة أو عشرة أفراد كل مرة، بعد أن يجعلهم يشربون مخدراً معيناً يسلمهم إلى نعاس عميق، ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك، وهكذا، فإنهم عندما يستيقظون يحسبون أنفسهم في الفردوس حقاً. وتغازلهم الفتيات بما يملأ قلوبهم حبوراً، حتى يشبعن كل رغبات هؤلاء الشبان إلى درجة أنهم يتمنون ألا يغادروا هذا المكان أبداً. وعندما يريد شيخ الجبل اغتيال أحد الأمراء فإنه يستدعي أحد الشبان بعد تخديره، ويقول اذهب واقتل فلاناً، وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس، وإذا مت فسوف أبعث ملائكتي لتحملك إلى هناك، ولذا يسارعون إلى تلبية كل أوامره مهما كانت عسيرة أو قاتلة رغبة منهم في العودة إلى الفردوس، وهكذا بث شيخ الجبل الرعب في قلوب جميع الأمراء، وجعلهم يدفعون له الجزية مقابل أن يمنحهم السلام والمودة.

يقوموا باستدعاء الإسماعيلية من كل مكان حتى يقوم المغول بعملية إحصاء لأعداد الإسماعيلية، وعلى ضوء هذا الإحصاء سيكون الاتفاق، فإن هولاكو - كما يزعم - يخشى أن يضخم الإسماعيلية أنفسهم للحصول على مكاسب أكبر، وبهذه الحيلة بدأ الإسماعيلية في جمع كل أعوانهم حتى جاء رجال من العراق ومن الشام، وعندما اجتمع هذا العدد الكبير قام هولاكو بمذبحة بشعة فيهم، وقتل كل من أمسكه في يده، ولم ينس أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى " سالقان خاتون " ابنة " جغتاي " وحفيدة جنكيزخان لتقتلهم بيدها لتأخذ بثأر أبيها " جغتاي " المقتول على يد الإسماعيلية قبل ذلك..

وهكذا تم في خلال سنة ٦٥٥ هجرية استئصال شأفة الإسماعيلية في هذه المنطقة كلها تقريباً، ولم ينج منهم إلا الشريد الذي كان يعيش في الشام أو العراق، ولم يأت في عملية الإحصاء المزعومة.. [١].

ومن طريف ما يروي حول سقوط قلعة آلموت أنه كان بها مكتبة ضخمة تحتوي على العديد من الكتب النفيسة، وقد طلب هولاكو من حاجبه المسلم عطا الملك الجويني أن يفحص المكتبة، فأخرج المصاحف والكتب التاريخية والعلمية وأحرق الباقي، ولكن صاعقة نزلت على المكان فأحرقت ما تبقي من كتب ولم ينقذ إلا القليل [٢].

وبذلك أصبح الطريق آمناً مفتوحاً إلى بغداد.. وبدأت الجيوش

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١١١.

(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، ص ٢٥٣ - ٣٥٤، الجويني، تاريخ جهانكشاي، ٣ / ٢٧٠، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٥٨ - ٥٩.

المغولية الرابضة في فارس تزحف ببطء - ولكن بنظام - في اتجاه عاصمة الخلافة، ووضح للجميع أن اللحظات المتبقية في عمر العاصمة الإسلامية أصبحت قليلة.. بل قليلة جدًّا!!..

إسقاط الخلافة العباسية:

وبعد أن انتهي هولاكو من تدمير قلاع الحشيشية في بلاد فارس، تحركت القوات المغولية لتنفيذ الهدف الثاني من أهداف الحملة وهو مهاجمة بغداد، وإسقاط الخلافة العباسية، وكان على رأس الخلافة العباسية في تلك الفترة الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) [1] الذي أصبح آخر الخلفاء العباسيين في بغداد،

(١) عبد الله المستعصم بالله. أبو أحمد، أمير المؤمنين، الشهيد، ابن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد الهاشمي العباسي، البغدادي، رحمه الله تعالى. آخر الخلفاء العراقيين. وكان ملكهم من سنة اثنتين وثلاثين ومائة إلى هذا الوقت. وُلِد أبو أحمد سنة تسع وستمائة، وبويع بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين، والأصح أنه بويع بعد موت والده في شهر جمادى الأخرة. وكان مليح الخط، قرأ القرآن على الشيخ على ابن النيار الشافعي، وكان كريما حليما، سليم الباطن، حسن الديانة. كان متدينا متمسكا بالسنة كأبيه وجده، ولكنه لم يكن على ما كان عليه أبوه وجده الناصر من التيقظ والحزم وعلو الهمة. فإن المستنصر بالله كان ذا همة عالية، وشجاعة وافرة، ونفس أبية، وعنده إقدام عظيم. استخدم من الجيوش ما يزيد على مائة ألف. وكان له أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشهامة والشجاعة، وكان يقول: إن ملكني الله لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وانتزع البلاد من التتار واستأصلهم. فلما تُوُفّي المستنصر لم ير الدويدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر، وخافوا منه، وآثروا المستعصم لما يعلمون من لينه وانقياده وضعْف رأيه، ليكون الأمر إليهم. فأقاموا المستعصم، ثم ركن إلى وزيره ابن العلقمي، فأهلك الحرث والنسل، وحسن له جمع الأموال، والاقتصار على بعض العساكر، وقطع الأكثر. فوافقه على ذلك. وكان فيه شح، وقلة معرفة، وعدم تدبير، وحب للمال، وإهمال للأمور. وكان يتكل على غيره، ويقدم على ما لا يليق وعلى ما يستقبح. ولو لم يكن إلا ما فعله مع الناصر داود في أمر الوديعة.
قال الذهبي: وكان يلعب بالحمام، ويهمل أمر الإسلام، وابن العلقمي يلعب به كيف

وكـان يأمـل أن يعيـد مجـد الخلافـة مـرة أخـرى، ولكنـه كـان رجـلا ضعيف الشخصية، وجعل كل اهتمامه إشباع غرائزه، يضاف إلى ذلك الصراع المذهبي الذي دار داخل البلاط بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي [1]، وبين كاتب الخليفة السني أيبك الدوادار [1]مما

أراد، ولا يطلعه على الأخبار. وإذا جاءته نصيحة في السر أطلع عليها ابن العلقمي ليقضي الله أمراً كان مفعولا. ثم إن ابن العلقمي عمل على أن لا يخطب بالجوامع، ولا يصلي الجماعة، وأن يبني مدرسة على مذهب الشيعة ولم يحصل أمله، وفتحت الجوامع، وأقيمت الجماعات. قال الذهبي: تُوُفِّي الخليفة في أواخر المحرم أو في صفر، وما أظنه دفن، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان الأمر أعظم من أن يوجد مؤرخ لموته، أو موار لجسده. وقيل: جُعِل في غرارة ورُفس إلى أن مات. ثم دفن وعُفِي أثره. وقد بلغ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، سير أعلام النبلاء، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ٢٣ / ١٨٠، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي.، لبنان/ بيروت. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٤٨ / ٢٥٨.

(١) أبو طالب الوزير المدبر مؤيد الدين ابن العلقمي البغدادي الرافضي وزير المستعصم، ولي الوزارة أربع عشرة سنة فأظهر الرفض قليلاً وكان وزيراً كافياً خبيراً بتدبير الملك وكان عنده من الضغن ما أوجب له أنه سعى في دمار الإسلام وخراب بغداد على ما هو مشهور لأنه كان شيعي رافضي عمل على ترك الجمعات، وأن يبني مدرسة على مذهب الرافضة، فما بلغ أمله، وأقيمت الجمعات. وأفشى الرفض فعارضه السنة، وأكبت، فتنمر، ورأى أن هولاكو على قصد العراق فكاتبه وجسره وقوى عزمه على قصد العراق، ليتخذ عنده يدا، وليتمكن من أغراضه، وحفر للأمة قليبا، فأوقع فيه قريبا، وذاق الهوان، وبقي يركب كديشا وحده، بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب سلطان، فمات غبنا وغما، وفي الآخرة أشد خزيا وأشد تنكيلا.

أخذ يكاتب التتار إلى أن جرّ هولاكو وجرّأه على أخذ بغداد وقررّ مع هولاكو أمورا انعكست عليه وندم حيث لا ينفعه الندم وكان كثيرا ما يقول عند ذلك وجرى القضاء بعكس ما أمّلته لأنه عومل بأنواع الهوان من أراذل التتار والمرتدة حكى أنه كان في الديوان جالسا فدخل بما أراد وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس ضد التتار ممن لا وجاهة له راكبا فرسه فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخا وأنه بلغ مراده، وقال له بعض أهل بغداد من الشيعة الرافضة: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حمية لهم

جعل الخلافة العباسية تعيش أسوأ فترات حياتها أشبه بالرجل المريض الذي ينتظر أجله المحتوم [٢].

وواقع الحال أن جيش الخلافة العباسية أصبح ضعيفا بعد أن خفض الخلفاء أعداده حتى وصلت إلى عشرين ألفا بدلا من مائة ألف

وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون وارتكب من الفواحش من نسائهم وافتضت بناتهم الأبكار مما لا يعلمه إلا الله تعالى فقال: بعد أن قتل من السنة وزعمائهم فلا مبالاة بذلك؟ ولم تطل مدته حتى مات غما وغبنا في أوائل سنة سبع وخمسين وست مائة، وكان مولده في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وخمس مائة، وحكى أنه لما كان يكاتب التتار تحيل مرة إلى أن أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد عليه بوخز الأبر كما يفعل بالوشم ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال إذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرؤون ما فيه وكان في آخر الكلام قطعوا الورقة فضربت رقبته وهذا غاية في المكر والخزي والله أعلم. الصفدي، الوافي بالوفيات - (ج ١ / ص ٨٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣/ ٢٦٣.

(١) الدويدار، مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير الملك، مقدم جيش العراق، مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير. أحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين الذي كان يقول: لو مكنني أمير المؤمنين المستعصم، لقهرت التتار، ولشغلت هولاكو بنفسه. وكان مغرى بالكيمياء، له بيت كبير في داره فيها عدة من الصناع والفضلاء لعمل الكيمياء، ولا تصح؛ فحكى شيخنا محيي الدين ابن النحاس، قال:.

مضيت رسولا، فأراني الدويدار دار الكيمياء، وحدثني، قال:عارضني فقير، وقال: يا ملك، خذ هذا المثقال، وألقه على عشرة آلاف مثقال يصير الكل ذهبا. ففعلت، فصح قوله، ثم لقيته بعد مدة، فقلت: علمني الصنعة.

قال: لا أعرفها، لكن رجل صالح أعطاني خمسة مثاقيل، فأعطيتك مثقالا، ولملك الهند مثقالا، ولآخرين مثقالين، وبقي لي مثقال أنفق منه.

ثم أراني الدويدار قطعة فولاذ قد أحميت، وألقى عليها مغربي شيئا، فصار ما حمى منها ذهبا وباقيها فولاذ.

قال الكازروني فيما أنبأني: إن الخليفة قتل معه عدة من أعمامه وأولاده وابن الجوزي ومجاهد الدين الدويدار الذي تزوج ببنت بدر الدين صاحب الموصل، وحمل رأسه ورأس الملك سليمان شاه وأمير الحج فلك الدين، فنصبوا بالموصل. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٧٢/٢٣.

(٢) محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٥٩.

فارس لعدم الوثوق في في قادته، وظل الاعتماد محصورا في حصانة مدينة بغداد، وعلى ما يمكن أن يأتي من مساعدة من البيت الأيوبي في مصر والشام، وهذا أمر مشكوك فيه لانشغال القوات الأيوبية في الصراع مع الصليبيين، وعلى إمكانية التفاوض مع المغول ودفع الأموال لتجنب مهاجمة بغداد.

في الحقيقة أنه لم يكن ينقص المسلمين عدد ولا عدة، ولكنه الوهن الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ الذي نزع مهابة المسلمين من قلوب أعدائهم، فالشباب كان قد فسد، لأن طغيان النساء وتبرجهن عرض أنفسهن لكل جائع تكون نتيجته الحتمية انهيار الأخلاق، وضياع القيم والاشتغال بالملذات التي تغري بترك الجهاد في سبيل الله، وإذا كان الفساد قد تعدي الشباب المراهق ليصل إلى كبار السن، فلنا والحالة هذه أن نتصور ما آل إليه أمر الدفاع عن ثغور الإسلام وحواضره.

وتقدم هولاكو بقواته صوب العراق لإسقاط الخلافة العباسية، وحاول الكاتب أيبك أن يتصدي للقوات المغولية القادمة من الموصل، ولكن القوات المغولية أوقعته وقواته في كمين لاذ على إثرها بالفرار في الطريق إلى بغداد، وكان ابن العلقمي في ذلك الوقت قد خرج إلى هولاكو فأخذ الأمان لنفسه، ولكن مالبث أن عاد ومعه شروط هولاكو بالاستسلام، واستيقظ الخليفة من غفلته على واقع مرير يقول العصامي - واصفا ما حدث لبغداد والخليفة -: وكان التتار جائلين في الأرض يقتلون ويأسرون ويخربون الديار، ونارهم في غاية الاشتعال والاستعار، والمستعصم ومن معه في غفلة عنهم؛

لإخفاء ابن العلقمي عنه سائْر الأخبار، إلى أن وصل هولاكو خان إلى بلاد العراق، واستأصل من بها قتلاَ وأسراً.

وتوجه إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يطلبه، فاستيقظ من نوم الغرور، وندم على غفلته حيث لا ينفع الندم، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله، وجمع من أهل بغداد خاصته، ومن عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل، لكنهم مرفهون بلين المهاد، وساكنون على شط بغداد، في ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب، ما كابدوا حربَاً، ولا ذاقوا طعناً ولا ضرباً، وعساكر المغول ينوفون على مائة ألف مقاتل، فوقع التصاف، والتحم القتال، وزحف الخميس إلى الخميس، يوم الخميس عاشر محرم سنة ست وخمسين وستمائة، وصبر أهل بغداد على حر السيوف، صبروا مضطرين على طعم الحتوف، وأعطوا الدار حقها، واستقبلوا غمام السهام وبلها ودقها، واستمروا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا أشد انكسار، وولوا الأدبار، وغرق كثير منهم في دجلة، وقتل أكثرهم شر قتلة، ووضعت التتار فيهم السيف والنار، فقتلوا في ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاثمائة ألف وسبعين ألفاً، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، وأخذ هولاكو جميع النقود، وأمر بحرق الباقي، ورمى كتب مدارس بغداد في دجلة، وكانت لكثرتها جسراً يمرون عليها ركبانَاً ومشاة، وتغير لون الماء بحبرها إلى السواد، فأشار الوزير على الخليفة بمصانعتهم وقال: أنا في تقرير الصلح، فخرج، ووثق لنفسه بينهم، ورجع إلى الخليفة وقال: إن الملك هولاكو قد ركب في أن يزوج ابنته بابنك

الأمير أبي بكر، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يؤثر أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع سلاطين الديلم والسلجوقية، وينصرف عنك بجنوده، فيجيب مولانا إلى هذا، فإن فيه حقناً لدماء من بقي من المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، فالرأي أن تخرج إليهم.

فخرج الخليفة في أعيان دولته فأنزل في خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد، فخرجوا من بغداد، فضربت أعناقهم، وكذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، حتى قتل جميع من فيها من العلماء والأمراء والحجاب والكتاب، واستبقى هولاكو المستعصم أياماً إلى أن استصفي أمواله وخزائنه وذخائره، ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه، وأمر أن يوضع الخليفة في غرارة، ويرفس بالأرجل حتى يموت؛ ففعل به ذلك.

وفي رواية: أن خروج الخليفة المستعصم إليه كان قبل وقوع شيء من القتال، ثم لما خرج وفعل به ومن معه ما فعل - بذل السيف في بغداد، واستمر السيف نحو أربعين يوماً، فبلغت القتلى أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة (١).

إنهم لا يرقبون فيهم إِلاًّ ولا ذمة، كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد{ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً } [التوبة: ٨].

عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٢/٢٠٥.

سريعة من تاريخ « البداية والنهاية » لابن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ هـ:...ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان. ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار. إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم. فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة - فإنا لله وإنا إليه راجعون - كذلك في المساجد والجوامع والربط. ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا أمانا بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة..

« وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل: ثمانمائة ألف. وقيل: ألف ألف. وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس - فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم. وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً.. وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر، وعفى قبره، وكان عمره يومئذ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر. ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام. وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس

أحمد، وله خمس وعشرون سنة. ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم..

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد. منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد.. وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على ابن النيار. وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن. وتعطلت المساجد والجماعات عدة شهور ببغداد**!؟**..

« ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يوماً، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون [١].

(١) راجع ابن كثير، البداية والنهاية أحداث عام ٦٥٦ هـ.

يقول ابن الأثيرعن المسلمين: "... فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدي همته بطنه وفرجه " [١].

وصدق الله العظيم إذ يقول:{ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾} [الإسراء: ١٦].

كان مؤيد الدين رجلاً فاسدًا خبيثًا رافضيًّا (يرفض خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما)، وكان شديد التشيع، كارهاً للسنة ولأهل السنة، ومن العجب أنه يصل إلى هذا المنصب المرموق وهو على هذه الصفة، وفي دولة سنية تحمل اسم الخلافة، ولا شك أن هذا كان قلة رأي، وضحالة فكر، وسوء تخطيط من الخليفة المستعصم بالله الذي ترك هذا الوزير المفسد في هذا المكان الخطير..

لقد اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمي الشيعي، مستغلاً فساده وتشيعه وكراهيته للسنة، واتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، والمساعدة بالآراء الفاسدة، والاقتراحات المضللة التي يقدمها للخليفة العباسي المستعصم بالله، وذلك في مقابل أن يكون له شأن في " مجلس الحكم " الذي سيدير بغداد بعد سقوط الخلافة، والتخلص من الخليفة.. وقد قام الوزير الفاسد بدوره على أكمل ما يكون.. وكان له أثر بارز على قرارات الخليفة، وعلى الأحداث التي مرت بالمنطقة في تلك الأوقات..

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٦.

لقد كان بلاء المسلمين من هذا الصنف من الأمراء الذين ساروا في الرعية سيرة سيئة، فارتكبوا الفواحش والمنكرات واستباحوا الحرمات وظلموا، وتجبروا، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، ومن هؤلاء العصاة...؟ إنهم السلاطين والملوك والخلفاء والأمراء والقادة الذين وكلت إليهم أمور المسلمين، لقد عصوا الله ونسوه، فسلط عليهم من لا يعرفه ومن لا يرحمهم، وأي عذاب ذلك الذي حل بالمسلمين الذين نجوا من القتل؟إنهم استعملوا كحواجز يفترس بها الأعداء، أو أصبح السيد منهم عبدا لسيد من الأعداء وزوجته أمة لسيد آخر، وابنه لسيد ثالث، وهم لا يملكون حينئذ إلا البكاء، " وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ".

" وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا * فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا * أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله ياأولي الألباب الذين امنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا " (الطلاق: ٨ - ١٠)

بقي أن نقول: أنه لم يكن سقوط بغداد (٦٥٦ هـ) ممكناً لولا خيانة الوزير ابن العلقمي، لأن القوى الخارجية تبقى محدودة التأثير ما لم تتعاون معها قوى عميلة من الداخل.

ولم تكن مأساة سقوط بغداد هي الوحيدة التي ابتلي بها المسلمون فقد تكررت مآسي المسلمين بعد سقوط بغداد فتساقطت مدن الأندلس واحدة تلو الأخرى وتتابعت المآسي، فضاعت فلسطين وبضياعها ضاعت حقوق أهلها، وها نحن الآن نعاصر ضياع البوسنة والهرسك وأفغانستان والعراق والصومال - وما خفي كان أعظم - والأعداء هم الأعداء، وطريقة الضياع هي نفسها لم تتغير، والعالم

الإسلامي يقف متفرجاً كأنما أصيب بالشلل التام.

إنه أمر عجيب تحار فيه العقول!!

ما الذي دهى المسلمين حتى ضاعوا وأضاعوا حقوقهم وبلادهم. إننا لا نطلب من العلماء والمفكرين وصف الداء بل وصف الأدواء علنّا لنجد مخرجاً من هذا المأزق، كما نطلب أن يتحملوا المسؤولية كاملة قولاً وعملاً، قياماً بما يمليه عليهم الواجب في هذه الأيام العصيبة التي كرست اليأس الذي يكاد أن يحيط بالمسلمين.

وصدق حكم التاريخ... لقد كان هولاكو هو الزعيم التتري السفاح.. الذي لا يمتلك أية نزعة إنسانية.. الرجل الذي كان لا يرتوي إلا بدماء البشر.. تماماً كسلفه جنكيزخان، لعنهما الله..

هولاكو.. شخصية من أبشع الشخصيات في تاريخ الأرض!!..

ولأنه كان موكلاً بقيادة إقليم فارس، فإن مجال عمله الرئيسي كان البلاد الإسلامية.. وكانت معظم الدماء التي أراقها دماءً إسلامية.. ومعظم الآلام التي زرعها في قلوب البشر كانت في قلوب المسلمين.. وسبحان الله!.. كأن الحقد الذي كان في قلب هولاكو لم يكن كافياً لتدمير الأرض، فقد تزوج امرأة لا تقل عنه حقداً وبطشاً وظلماً.. لقد تزوج من الأميرة المغولية " طقزخاتون "، وكانت امرأة قوية ذات نفوذ في البلاط المغولي، وكانت فوق ذلك قد انتقلت إلى النصرانية، وكانت شديدة التعصب لديانتها، وشديدة الكراهية للإسلام..

وهكذا اجتمع هولاكو مع زوجته " طقزخاتون " ليصبا جام

غضبهما على الأمة الإسلامية.. وكان الهدف واضحاً في ذهن هولاكو.. إنه كان يريد بوضوح أن يُسقط " بغداد " عاصمة الخلافة العباسية، ثم يتجاوزها إلى ما بعدها..

نتائج سقوط بغداد:

بعد سقوط بغدد وانقراض الخلافة العباسية - التي استمرت قائمة لأكثر من خمسة قرون - من أكبر الوقائع التي حدثت في التاريخ، ولقد كان لهذا الحدث الأسوأ الأثر في نفوس المسلمين جميعا، واعتبرت هذه المأساة لطمة قاسية وبلاء شديد سلط على رؤوسهم، إذ انتهكت حرمتهم على يد المغول أهل الكفر والشرك، الذين صوبوا طعنة نجلاء إلى مقام الخلافة المقدس، وإلي خلفاء الرسول محمد صلي الله عليه وسلم، فلا غرو أن كان لهذا الحدث نتائج خطيرة نلخصها فيما يأتي:

فقد نتج عن سقوط بغداد في أيدي التتار آثار ونتائج عديدة في الحياة الإسلامية، فالوحدة السياسية للمسلمين أصبحت من الأمور التي يستحيل تحقيقها، أضف إلى ذلك أن الثقافة الإسلامية منيت على أيدي التتار بخسارة كبيرة حين أتلف المغول آلافا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة، وقتلوا كثيرا من العلماء والأدباء، وشتتوا شمل من بقي منهم في مختلف البقاع الإسلامية. وجذبت مصر عددا كبيرا من هؤلاء العلماء، مما أدي إلى انتقال مركز الزعامة الفكرية إلى القاهرة التي أضحت بحكم وضعها الجغرافي أقرب من بغداد إلى أوروبا، مما ساعد على اقتراب العالم الغربي من الحضارة الشرقية. وما يقال بصدد هجرة العلماء والأدباء يقال كذلك على أهل

الحرف والصناعات وغيرهم من أهالي بلاد المشرق الإسلامي، مثال ذلك أن مصر استقبلت أبان الغزو المغولي عددا كبيرا من المشارقة الذين بنوا لأنفسهم بيوتا على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل، وقد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية، وتأثر المعمار المصري نتيجة ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية، ومن المحتمل جدا أن تكون خطة بناء مسجد الظاهر بيبرس مأخوذة من رسم مسجد ميافارقين الذي أنشيء في سنة ١٢٢٣ م. وعلى الرغم من أن هذه الأساليب والمؤثرات الفنية، قد وجدت بالفعل في مصر قبل القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أن تلك الهجرات الأخيرة كانت مدعاة لظهورها وإحيائها من جديد.والواقع أن سقوط بغداد وقيام دولة إيلخانات فارس على عهد هولاكو، قد فصل أراضي شرق دجلة عن غربه، ففي الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية، وفي الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية، بعد أن كانت حضارة العالم الوسيط من سمرقند إلى أشبيلية قائمة على التعاون الفكري والتبادل العلمي والأدبي بين الفرس والعرب في ظل الخلافة العباسية. حقيقة أن الفرقة بين اللغتين العربية والفارسية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة لنهوض القومي الفارسي، إلا أنه منذ سقوط بغداد قلت أهمية اللغة العربية، بين الفرس وأصبحت قاصرة البحوث الدينية والفلسفية. وترتب على سقوط بغداد أيضا الاتجاه في إعادة ترتيب البيت السياسي مثل وجوب تعيين حدود جديدة وعقد محالفات مختلفة، كما ترتب عليه تغيير سلاطين المماليك في مصر سياستهم نحو الخلافة، إذ جعلهم

يفكرون في إحيائها من جديد،وفي الوقت نفسه أعطاهم فرصة قصيرة من الزمن يستعدون فيها لصد هذا السيل المغولي الجارف المندفع نحوهم، ومع أن سقوط بغداد أوضح للمسلمين ضرورة توحيد الجهود إزاء ذلك الخطر العام، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائما مستمرا، فاستغل المغول ما هنالك من تنافس لصالحهم، وزحفوا نحو الغرب يعيثون فسادا وتخريبا يساعدهم في ذلك انقسام كلمة المسلمين، وأيد هولاكو حزب الشيعة واتخذ الاحتياطيات التي تكفل سلامة قبر الإمام على بالنجف من التدمير [١].

حملة هولاكو على الشام:

كان إقليم الشام في ذلك الوقت تتقاسمه سلطات ثلاث: هي سلطة الفرنج، وسلطة الأرمن المسيحيين، وسلطة الحكام المسلمين المتمثلين في الأمراء الأيوبيين. وكان هؤلاء الأمراء يحكمون مدن ميافارقين وحصن كيفا والكرك وحلب ودمشق وحماة وحمص،وهم ينتسبون للأسرة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام.

ولكن مما يؤسف له حقا أن كل واحد من هؤلاء الأمراء كان يعتبر نفسه مستقلا، فلا وفاق بينهم، ولا سلطان لأمير منهم على الآخر، وكانوا في نزاع دائم وخلاف مستمر، حتى في الوقت الذي بدأ فيه شبح المغول يظهر مخيفا مرعبا، وأصبح هذا الخطر ماثلا أمام الأعين على إثر فتح بغداد، ولو قدر لهؤلاء الأمراء فاتحدوا

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٧٩ - ٢٨١، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٤٩ - ١٥٠.

وتكتلوا لاستطاعوا أن يكونوا سدا منيعا، يدرأون به خطر المغول عن تلك البلاد [١].

وكان من الطبيعي بعد سقوط بغداد في يد التتار أن يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام، وكان صاحب الشام - حلب ودمشق في ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف (٦٤٠ - ٦٥٩ هـ) [٢] وكان معاديا للمماليك في مصر فلم يجد بدًّا من الاستعانة بالتتار ضد سلاطين المماليك في مصر، فأرسل الناصر صلاح الدين يوسف ولده الملك العزيز إلى هولاكو وبصحبته بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا من هولاكو مساعدة الملك الناصر ضد المماليك في مصر، الذين انتزعوا السلطنة من الأيوبيين [٣] وكان حريا بهولاكو أن يقبل ذلك الطلب لو أن أمير دمشق أحاطه بشيء من العناية وذهب بنفسه في طلب حلف الإيلخان المغولي ويعرض عليه ولاءه وتبعيته، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو أن يرتبط بعهد وثيق، ففضل البقاء بعيدا عن حضرة هولاكو، حتى إذا أصيبت القوي المغولية بالهزيمة أمام المسلمين استطاع أن يجد لنفسه بعض المعاذير [١] وربما خاف أن يلقي نفس مصير الخليفة العباسي فأراد أن يبقي على نفسه إلى حين.

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٧٩.

(٢) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، صاحب حلب ودمشق - وهو آخر ملوك بني أيوب، وكان قد ورث الحكم في حلب عن أبيه عام ١٢٣٦م وكان عمره ست سنوات إذ ذاك وأخذ دمشق عام ١٢٥٠ م. المقريزي، السلوك، ٣٦٦/١.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٠،.

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٥١.

وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري - والمماليك البحرية الفارين من مصر - قد أرسل إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف يلتمس منه الأمان، ثم جاء معه عدد من الأمراء حيث أكرمه الناصر وأعطاه إمرة مائة فارس، وأقطعه نصف نابلس وجينين، وعبثا حاول بيبرس إقناع الناصر بالصمود أمام خطر التتار،ولما أصر الناصر يوسف على موقفه غضب منه المماليك البحرية ورحلوا إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وعرضوا عليه الاستيلاء على مصر فاستجاب المغيث لطلبهم، ولكن انتهي الأمر بعودة المماليك البحرية إلى مصر وخاصة الظاهر بيبرس ودخلوا في طاعة السلطان المظفر قطز [١] .

والحقيقة أن الملك الناصر قد جانبه الصواب حينما أقدم على هذه الخطوة التي أضرت بمصالحه قبل أن تضر بمصالح المسلمين، فكان الواجب عليه أن يقف إلى جوار المماليك فلا يعاديهم - على الأقل في هذه المحنة التترية - لأن عدوهم أصبح واحد، كما أنه - بفعلته هذه - وجد نفسه بين قوتين تبادلانه العداء، المماليك والمغول، وكان الأقرب والأفضل له أن يوحد جهود المسلمين ويتعاون مع المماليك ضد المغول.

ولم ينل الناصر يوسف مراده وأتت الرياح بما لا تشتهي السفن وبدلا من أن يكسب ود ومساعدة هولاكو كسب عداوته، إذ أن هولاكو غضب من الرسالة والوفد الذي بعث به الناصر يوسف ورأي أنه لم يناسب مقامه، فأرسل إلى الملك الناصر رسالة يأمره

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٩ - ٤٢٠.

فيها بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط هذا نصها:

" الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالي، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:{ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾} [النمل: ٣٤]. واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نمي ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

إذا تم أمر دنا نقصه ::: توق زوالاً إذا قيل تم
إذا كنت في نعمة فارعها ::: فإن المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة ::: فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روي زمين (أي ملك الملوك على وجه الأرض) تأمن شره، وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:{ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾} [النجم: ٣٩ - ٤١]، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى كروان سراي (الاسم التتري لمصر) فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها.

أين النجاة ولا مناص لهارب ::: ولي البسيطان الثري والماء

ذلت هيبتنا الأسود وأصبحت ::: في قبضتي الأمراء والوزراء [(١)]

وعندما أدرك الناصر أنه خسر احترام المسلمين ونصرة المغول في آن واحد، بعث برسالة عنيفة ملؤها السباب واللعن إلى هولاكو، الأمر الذي جعله يدفع ثمن السباب غاليا عندما اقتحم أملاكه [(٢)].

التحالف المغولي الصليبي لاجتياح الشام:

وهناك عامل آخر شجع المغول على اجتياح الشام ومصر وهو التحالف الذي تم بين الحكام المسيحيين في غرب آسيا من جهة وبين المغول من جهة أخري، فقد رأي " هيثوم " ملك أرمينية أن الفرصة سانحة للانضمام للمغول واقتناص الشام من أيدي أمراء المسلمين ثم السيطرة على بيت المقدس بعد ذلك، ولما كان " بوهيمند السادس " ملك أنطاكية الصليبي حليفا وفيا لجاره " هيثوم "، وكان قد تزوج من ابنته، دخل هو الآخر في الحلف المغولي الصليبي، ومما هو جدير بالذكر أنه كان لزوجة هولاكو المسيحية " دوقوز خاتون " - والتي كان يؤثرها باحترامه وحبه - أكبر الأثر في توطيد أواصر الصداقة بين الأمراء المسيحيين وهولاكو، وذكر المؤرخون أن خطة الحملة على بلاد الشام قد تقررت بعد لقاء تم بين هولاكو وتابعه الأرمني " هيثوم "، وكان الخان المغولي قد طلب إليه أن يسير بجيشه الأرمني إلى الرها بحجة أنه ذاهب لكي يخلص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ويردها إلى المسيحيين، ففرح هيثوم بهذا الخبر،

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٠ - ٤١٧، وكانت أفاعيل ووحشية التتار قد أقلقت الكثير من سكان الشام وأجبرت الكثير منهم إلي الفرار صوب مصر، وكان الوقت شتاء فمات منهم عدد كبير، ونهب البدو أمتعة كثيرين. أنظر: المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٦.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك ن ص ١٥١، قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٥٩.

وجمع جيشا كبيرا وانضم إلى هولاكو، وقدم البطريق الأرمني ليمنح البركة للخان المغولي، وهكذا أخذت حملة حفيد جنكيزخان المغولية الأرمينية سمات الحرب الصليبية، ذلك لأن ملك الأرمن هيثوم كان في علاقته بالمغول لا يتحدث عن نفسه فقط، وإنما كان يتحدث كذلك عن صهره الفرنجي " بوهيمند " [١].

بدأ المغول محاولة السيطرة على بلاد الشام بحصار ميافارقين التي كانت تحت حكم الأمير " الكامل محمد الأيوبي (١٢٤٤ - ١٢٦٠ م) أمير منطقة " ميافارقين ".. [٢].

وكانت جيوش الكامل محمد - رحمه الله - تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال، أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق، وعلى الشمال الشرقي من سوريا..وحاول هولاكو إرهاب " الكامل " وإقناعه بالتخلي عن فكرة الجهاد فأرسل إليه رسولاً يدعوه فيه إلى التسليم غير المشروط، وإلى الدخول في زمرة غيره من الأمراء المسلمين.. ومع أن الأعراف تقتضي أن لا يقتل الرسل إلا أن الكامل قام بقتلهم ليكون بمثابة الإعلان الرسمي للحرب على هولاكو، وكنوع من شفاء الصدور للمسلمين انتقاماً من

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٢) ميافارقين.

مدينة آرامية كانت تدعى (ميفاركات (MAYPHARKATH، من أهم مدن الجزيرة، تقع في الحوض الأعلى لنهر دجلة قرب آمد، وكانت أشهر مدن ديار بكر قبل الإسلام وبعده، واستمرت من أهم المراكز الحصينة حتى ما بعد القرن السابع الهجري. ينسب إليها نفر من العلماء منهم الشيخ أبو النصر الحسن الفارقي الكاتب والشاعر الأديب. و " ميافارقين " مدينة تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة " وان ".

ذبح مليون مسلم في بغداد؛ ولأن التتار ما احترموا أعرافاً في حياتهم..

فجهز هولاكو بسرعة جيشًا كبيرًا، ووضع على رأسه ابنه " أشموط ابن هولاكو "، وتوجه الجيش إلى ميافارقين مباشرة بعد أن فتح له أمير الموصل أرضه للمرور..

وتوجه " أشموط بن هولاكو " بجيشه الجرار إلى ميافارقين وشدد المغول الحصار عليها، وقدم لهم الكرج والأرمن المساعدة في تضييق الخناق على المدينة، واستمر الحصار مدة عامين أظهر خلالها المدافعون عن المدينة ضروبا من الشجاعة المنقطعة النظير، ولكن مع طول الحصار المشدد الذي ضربه المغول على المدينة نفذت الأقوات وقلت الأسلحة والمؤن العسكرية، وعم القحط وانتشر الوباء، وهلك معظم السكان، وسقطت المدينة في أوائل العام ١٢٦٠ م ودارت مذبحة في المدينة، قتل فيها كل المسلمين، أما المسيحيون فقد تم الإبقاء على حياتهم، وتم القبض على الكامل الثاني وعذب حتى الموت، وقد حملت رأسه على رمح وطيف بها في البلاد مثل حلب وحماه ودمشق، ولعل هذا التصرف آثار الرعب في نفوس أهل الشام، مما كان له أبلغ الأثر على الحالة النفسية للأهالي والقوات الإسلامية [١].

وكانت المرحلة الثانية من العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام هي مدن ماردين وكانت في قبضة الملك السعيد الذي أبي إلا

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ٢ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

أن يقاوم المغول، فضرب المغول الحصار على المدينة مدة ثمانية أشهر دون أن ينجحوا في دخولها،ولم يتمكنوا من ذلك إلا بعد أن حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يثني أباه عن عزمه وحاول إقناعه بالتسليم للمغول، ولما لم يستجب الملك السعيد ولم ير إلا المقاومة، قتله ابنه، وسلم القلعة للمغول فعينه على ماردين بدلا من أبيه، ثم تقدمت القوات المغولية باتجاه مدن نصيبين وحران والرها والأراضي الواقعة في تلك النواحي مثل البيرة وسروج، واستولت عليها في سهولة ويسر وبدون مقاومة، ثم تقدمت القوات المغولية بقيادة هولاكو إلى مدينة حلب التي كانت تحت حكم الملك المعظم تورانشاه نيابة عن الناصر يوسف الذي هرب إلى دمشق وترك حلب، حيث تم فرض الحصار عليها بعد أن رفضت الاستسلام، وقد قاومت المدينة ستة أيام حتى انهارت أسوارها أمام ضربات المغول، فدخلتها القوات المغولية وحل بها ما حل بالمدن الأخرى من ذبح المسلمين والإبقاء على المسيحيين، وقد استغل " هيثوم ملك أرمينية " تلك الفرصة فأحرق

الجامع الكبير، في الوقت الذي احترقت فيه الكنيسة اليعقوبية، ومع ذلك كله فقد ظلت قلعة المدينة تقاوم لمدة شهر كامل حتى سقطت، وقد احترم هولاكو - على غير عادته - الأمير الأيوبي تورانشاه بن صلاح الدين لكبر سنه وبسالته، وقد استولي هولاكو على ثروة المدينة وعين عليها الأمير الأيوبي الأشرف حاكم حمص (١٢٤٦ - ١٢٦٢م) (١).

(١) محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٦٣، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٩٤.

ثم اتجه هولاكو غربًا بعد إسقاط حلب، إلى حصن " حارم " المسلم[١]، وكانت به حامية مسلمة رفضت التسليم لهولاكو، فاقتحم عليها الحصن بعد عدة أيام من المقاومة، وذبح كل من فيها.. كذلك سقطت في أيدي المغول مدن حماه التي جاء إلى هولاكو وفد من أعيانها وكبرائها يقدمون له مفاتيح المدينة، ويسلمونها له دون قتال.. وذلك برغبتهم وإرادتهم الذاتية، ودون طلب من هولاكو!!.. وقبل منهم هولاكو المفاتيح، وأعطاهم الأمان، ولكنه كان في هذه المرة أماناً حقيقياً، وذلك ليشجع غيرهم على أن يحذوا حذوهم..واستولى كذلك على المعرة وحمص (بلد " صديقه " الأشرف الأيوبي) [٢].

ونتيجة لهذه الانتصارات السريعة الحاسمة، وما صاحبها من قتل وتشريد وتخريب وتدمير، عم الرعب كل البلاد الشامية، فسارع الأمراء الآخرون إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للمغول، فكان ممن جاء إلى هولاكو وهو عند أسوار حلب: الأيوبي الملك الأشرف موسي، سليل أسد الدين شيركوه وملك حمص السابق، وكان في ذلك الوقت يمتلك فقط قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها، فكافأه هولاكو على ولائه للمغول بأن رد إليه حمص التي كان الناصر قد انتزعها منه في سنة ٦٤٦هـ كما اختاره نائبا عنه ببلاد الشام!!! [١].

وكانت وجهة المغول بعد ذلك مدينة دمشق، وكان الناصر

(١) حارم بليدة تقع غربي حلب (على بعد حوالي خمسين كيلو مترًا من حلب)، على طريق أنطاكية، فيها آثار لحصون مينعة.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٩.

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٢٣ / ٤٣٣، مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٥٣، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٩٥.

صلاح الدين يوسف - سلطان حلب ودمشق - لما علم بما فعله المغول في حلب، رحل عن دمشق بما بقي معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية، ولم يحاول الدفاع عن المدينة،وأقام لبعض الوقت في مدينة نابلس، ثم اتجه إلى غزة، وبلغه أن المغول هاجموا نابلس، فرحل إلى العريش وأرسل إلى سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠ م) يطلب منه المساعدة، أما دمشق فقد دخلها المغول بقيادة كتبغا بالأمان، ولم يتعرضوا للأهالي بالقتل أو النهب. ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم وقاومت لمدة عدة أسابيع فأقام عليها المغول المجانيق ثم تسلموها بالأمان في جمادي الأولي عام ٦٥٨هـ / إبريل ١٢٦٠ م، رغم ذلك نهب المغول جميع ما فيها وهدموا القلعة وأسوارها وما بها من أدوات للقتال[١].

* * *

(١) الذهبي، دول الإسلام، ٢ / ١٢٥، المقريزي، السلوك، ١ / ٤٢٥، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٧ / ٨٠، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ص ٦٤.

موقعة عين جالوت

الوضع السياسي في مصر قبيل عين جالوت:

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية، كان نجم سيف الدين قطز [١] يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً،

(١) المظفر سيف الدين قطز المعزي، واسمه الحقيقي محمود بن ممدود، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأبوه وابن عمه، أسرا عند غلبة التتار، فبيع بدمشق، ثم (انتقل بالبيع إلى) مصر، كان من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار.

حكى شمس الدين الجزري في تاريخه عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، وحدث أن ضربه أستاذه فبكى قطز بكاءً ولم يأكل يومه شيئاً، ثم ركب أستاذه وأمر الفراش - أحد أتباعه - أن يترضاه ويطعمه، قال الحاج على الفراش: جئته فقلت له: ما هذا البكاء من ضربة؟ فقال: إنما بكائي من لعنته أبي وجدي وهما خير منه، فقلت: ومن أبوك؟ واحد كافر، فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن مودود ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك؛ فترضيته. ولما تملك أحسن إلى الفراش وأعطاه خمسمائة دينار وعمل له راتباً.

وحكى الجزري أيضاً في تاريخه قال: حدثني أبو بكر بن الدريهم الإسعردي والزكي إبراهيم الجبيلي أستاذ الفارس أقطاي قال: كنا عند قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك، وعنده منجم مغربي، فصرف أكثر مماليكه، فأردنا القيام فأمرنا بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل وقال: اضرب لمن يملك بعد أستاذي ومن يكسر التتار؛ فضرب وبقي زماناً يحسب وقال: يا خوند يطلع معي خمس حروف بلا نقط، فقال: لم لا تقول محمود بن مودود؟ فقال؟ يا خوند لا يقع إلى هذا الاسم، فقال: " أنا " هو، وأنا أكسرهم وأخذ بثأر خالي خوارزم شاه، فقلنا: يا خوند إن شاء الله تعالى، فقال: اكتموا هذا، وأعطى

فقد كانت مصر آنذاك تحت حكم الملك المنصور على بن أيبك التركماني، وكان صغير السن ضعيف الشخصية، وكان قطز نائبه هو المشار إليه بديار مصر وله مكانة كبري وبلغ شأوا عظيما، وصار الشخصية البارزة في البلاد، نتيجة لصغر سن السلطان الملك المنصور على من ناحية، ولكثرة أنصار وأتباع قطز من ناحية أخري.

وفي تلك الأثناء حدثت مأساة اجتياح المغول للعراق وسقوط بغداد في أيديهم سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م، ثم الإنذار المرسل من هولاكو إلى الملك الناصر صلاح يوسف، وأخبار عبور التتار نهر الفرات لغزو بلاد الشام، كما أن الملك الناصر يوسف قد أفاق من غفوته وأرسل المؤرخ والفقيه المعروف كمال الدين بن العديم يستنجد بمصر وبعساكرها [١].

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة عقد مجلس بالقلعة حضرة السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين على، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة مثل قاضي القضاة بدر الدين حسن

المنجم ثلاثمائة درهم. وكان مدبر دولة ابن أستاذه المنصور على بن المعز أيبك، فلما دهم التتار الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب، فعزل الصبي وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سنة سبع وخمسين، فلم يبلغ ريقه ولا تهنا بالسلطنة حتى امتلأ الشام تتار، فتجهز للجهاد وأخذ أهبة الغزو، والتف إليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أوائل رمضان وعمل المصاف مع التتار على عين جالوت، وعليهم كتبغا، فنصره الله عليهم وقتل مقدمهم. وكان قطز شاباً أشقر كبير اللحية. المؤلف: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر - بيروت، (ج ١ / ص ١٥٣)، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٨٥/٧ - ٨٦.

(١) المقريزي، السلوك، ٤١٩/١.

السنجاري [١]، والشيخ عز الدين بن عبد السلام [٢]، وكان سيف

(١) بدر الدين حسن السنجاري قاضي القضاة أبو المحاسن يوسف بن الحسن الزرادي، كان صدراً معظما جواداً ممدحاً، ولي قضاء بعلبك وغيرها، ثم ولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، والوجه القبلي، ثم ولي قضاء القضاة بعد شرف الدين ابن عين الدولة، وباشر الوزارة، وكان له من الخيل والمماليك ما ليس لوزير مثله، ولم يزل في الارتفاع إلى أوائل الدولة الظاهرية، فعزل ولزم بيته. اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ٢٠٢/٢.
يقول النويري عنه: مولده بسواد إربل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وكان قاضيا بسنجار، وكان له على السلطان الملك الصالح من الخدمة بسنجار، فلما ملك الملك الصالح دمشق ولاه قضاء بعلبك وأعمالها وقرر له معلوما كثيرا، وكان قد وصل في صحبته، ولما ملك الديار المصرية حضر إليه فأكرمه، وفوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلي، ثم بالقاهرة والوجه البحري. وولي الوزارة في أيام الملك المنصور نور الدين بن الملك المعز، وكان، رحمه الله تعالى، مكينا عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ يكرهه، فكتب إلى السلطان الملك الصالح يذكر عنه أنه يأخذ من نوابه الأموال، ومن يعدله من الشهود، وأشباه ذلك، فأجابه السلطان في طرة كتابه: " يا أخي فخر الدين: للقاضي بدر الدين على حقوق عظيمة لا أقوم بشكرها، والذي وليناه قليل في حقه، وما قمت له بما يجب على من مكافئته "، فلم يعاوده الأمير فخر الدين في أمره، وبقيت هذه الورقة عنده في جملة أوراقه، فلما قتل وخلف بنت صغيرة، احتاط ديوان الأيتام على موجوده فوجدوا هذه الورقة فحملوها إلى القاضي بدر الدين، فأوقف الناس عليها، وكان رحمه الله تعالى، كريما كثير الاحتمال كثير المروءة، حسن العشرة، يقبل الاعتذار، ولا يكافئ على السيئة بمثلها، بل يحسن لمن ظهرت إساءته، ويبره بماله ويستميله بإحسانه، إلا أنه شهر عنه في ولاية القضاء قبول هدايا النواب، حتى قيل إنه ربما كان قرر على كل منهم ما لا يحمله في كل مدة في مقابلة ولايته على قدر الولاية، وكذلك أيضا من يقصد إنشاء عدالته حتى كثر المعدلون في أيامه، ووصل إلى العدالة من ليس من أهلها، ولما ولي قاضي القضاة تاج الدين أسقط كثيرا من عدوله، ولقد جاء بعد ذلك زماننا وأدركت بقايا عدوله فكانوا أميز العدول وأجل الناس، ومنهم من ولي قضاء القضاة وبلغ، رحمه الله تعالى، خمسة وثمانين سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى. نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ /٢٠٧.

(٢) عز الدين بن عبد السلام:عبد العزيز بن عبيد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، شيخ الإسلام وبقية الأعلام، الشيخ عز الدين أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمس مائة وتوفي سنة ستين وست مائة. روى عنه الشيخ تقي

الدين بن دقيق العيد، والدمياطي، وأبو الحسين اليونيني وغيرهم، وتفقه على الإمام فخر الدين ابن عساكر، وقرأ الأصول والعربية ودرس وأفتى وصنف، وبرع في المذهب وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وتخرج به أئمة، وله الفتاوى السديدة. قال الذهبي في العبر: انتهت إليه معرفة المذهب، مع الزهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ ناشرا العلم، آمرا بالمعروف، ناهيا للمنكر، يغلظ على الملوك فمن دونهم. ولما دخل مصر بالغ الشيخ زكي الدين المنذري في الأدب معه، وامتنع من الإفتاء لأجله، وقال: كنا نفتي قبل حضوره، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه.

كان ناسكاً ورعاً أماراً بالمعروف نهاء عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، ولي خطابة دمشق بعد الدولعي، فلما تملك الصالح إسماعيل دمشق وأعطى الفرنج صفد والشقيف، نال ابن عبد السلام منه على المنبر وترك الدعاء له، فعزله وحبسه ثم أطلقه، فنزح إلى مصر، فلما قدمها تلقاه الصالح نجم الدين أيوب وبالغ في احترامه، واتفق موت قاضي القضاة شرف الدين ابن عين الدولة فولي بدر الدين السنجاري قضاء القاهرة. وولي عز الدين قضاء مصر والوجه القبلي مع خطابة جامع مصر. ثم إن بعض غلمان وزير الصالح، وهو معين الدين ابن الشيخ، بنى بنياناً على سطح مسجد بمصر وجعل فيه طبلخاناه معين الدين، فأنكر عز الدين ذلك ومضى بجماعته وهدم البنيان، وعلم أن السلطان والوزير يغضبان، فأشهد عليه بإسقاط عدالة الوزير، وعزل نفسه عن القضاء، فعظم ذلك على السلطان، وقيل له: اعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل في دمشق، فعزله. وأرسل إليه السلطان لما مرض وقال: عين مناصبك لمن تريد من أولادك؟ فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ففوضت إليه بعده. ولما مات شهد الملك الظاهر جنازته والخلائق.

واختصر نهاية المطلب، وله القواعد الكبرى، والقواعد الصغرى، ومقاصد الرعاية، والناس يقولون في المثل: " ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام ". ويقال إنه لما حضر بيعة الملك الظاهر قال له: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن رقه إلى الصلاح وعتقه رحمه الله تعالى ورضي عنه. ولماكان بدمشق سمع من الحنابلة أذى كثيراً، وكان الشيخ عز الدين يكتب خطاً حسناً قوياً، وفيه يقول الشيخ جمال الدين أبو الحسين الجزار: الخفيف.

سار عبـد العزيـز في الحكـم سـيراً ::: لم يسـره سـوى ابـن عبـد العزيـز

عمنا حكمه بعدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز.

ولما وقع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق من الخلاف ما وقع، وعزله وألزمه داره - كما تقدم - فارق دمشق، وقصد البيت المقدس.

الدين قطز من بين الحاضرين، وسألهما الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء أو أنفقتم الحوائض الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم،

فوافاه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالغور، فأكرمه ونقله إلى الكرك. وقال له: تقيم عندي بهذا الحصن وأنا لا أخرج عن أمرك. فأقام عنده مدة يسيرة. ثم استأذنه في الخروج، فسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه. فقيل إنه قال له: هذا بلدٌ صغير، وأنا أحب الانتقال إلى بلدٍ أنشر به ما عندي من العلم.

فأذن له، وتوجه الشيخ إلى القدس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القدس - وصحبته الفرنج - فأرسل إلى الشيخ بعض خواصه بمنديله، وقال له: ادفع إليه منديلي وتلطف به واستنزله، وعده بعوده إلى مناصبه. فإن أجاب، فائتني به. وإن خاشنك فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمتي.

فأتاه الرسول ولاطفه، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وتعود إلى ما كنت عليه وزيادة، أن تقبل يد السلطان. فقال له: والله ما أراضه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده!! فقال: إنه قد رسم أن أعتقلك إذا لم توافق. فقال افعلوا ما بدالكم! فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمة السلطان.

وكان يقرأ القرآن والسلطان يسمعه. فقال يوماً لملوك الفرنج: تسمعون هذا الذي يقرأ؟ قالوا نعم: قال هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره على تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته عن دمشق فجاء إلى القدس. وقد جددت اعتقاله لأجلكم. فقالوا له: لو كان هذا قسيسنا، لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها! ثم فارق الصالح القدس.

وقدم الشيخ إلى الديار المصرية. فأقبل عليه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأكرمه، وفوض إليه الخطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص بمصر، في يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وستمائة، عوضاً عن أبي المجد الإخميمي، من مصنفاته: تفسير القرآن، القواعد الكبرى والصغرى توفي بمصر سنة ٦٦٠ هـ.

الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٨٦/١، السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ١٠١/١، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ /١١٨.

وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلاً إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال: لابد من سلطان ماهر قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبر المملكة. وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور على بن المعز أيبك، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير يوسف الدين قطز في أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعزية لرمي البندق - وكان يوم السبت رابع عشري ذي القعدة - قبض قطز على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم في برج بقلعة الجبل. فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام. جلس على سرير السلطنة بقلعة الجبل يوم السبت، الرابع والعشرين من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة[١].

موقعة عين جالوت:

وشرع قطز في ممارسة مهام عمله وكان عليه سرعة مجابهة الخطر المغولي، وكان أول خطوة في هذا الاتجاه أنه أجاب الملك الناصر يوسف صاحب الشام أنه سيقدم له العون والنجدة ولا يقعد عن مساعدته، حيث عاد ابن العديم يحمل الرسالة بذلك المعني، وبصحبته برهان الدين الخضر حاملا جواب الملك المظفر قطز إلى الملك الناصر، إذ أخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر أيضا - بصفته سليل صلاح الدين - ملكا على جميع الممالك التي خضعت لسلطان

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٧، ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٧/ ٥٥.

الأيوبيين ومنها مصر، ثم يضيف بأنه - أي قطز - ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا إذا أراد القدوم إلى القاهرة، كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة، إذا كان يرتاب في صدق نواياه [(١)].

ثم إن المظفر قطز قد أقال عثرة المماليك البحرية الذين كانوا قد فروا الشام ودخلوا في خدمة الملك الناصر صاحب الشام ثم انفضوا من حوله بعد محاولته التحالف مع التتار ضد المسلمين، حيث توجه الظاهر بيبرس إلى غزة، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من سيف الدين قطز، الذي حلف له... ووعده الوعود الجميلة،... ووصل مصر فعلا، فأنزله الملك المظفر سيف الدين قطز بدار الوزارة وأحسن معاملته، ثم أقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها [(٢)].

وفي وقت كان العالم الإسلامي في حاجة لتضافر الجهود لمواجهة الخطر المغولي نجد أن بعض الأمراء الأيوبيين في الشام يسارعون في الدخول تحت لواء التتار إما حرصا على كيانهم، أو خوفا على أنفسهم، ومن هؤلاء، الملك الأشرف موسى سليل أسد الدين شيركوه الذي لم يكن يملك في ذلك الوقت إلا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها، وكافأه هولاكو على ذلك بأن رد إليه إمارة حمص التي كان الناصر يوسف قد أخذها منه قبل ذلك باثني عشر عاما (٦٤٦ هـ)، وجعله

---

(١) المقريزي، السلوك، ٤١٨/١، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٢٠٨/٣.
(٢) المقريزي، السلوك، ٤١٩/١ - ٤٢٠.

قائده العام في الشام [١].

أما الناصر يوسف فإنه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية، وعدة من المماليك البحرية، وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقداري وخيم عند برزة - إلى الشمال قليلا من دمشق - غير أن تعدد عناصر جيشه - الذي كان يضم جنود من العرب والعجم والتركمان غير أعداد كبيرة من المتطوعين - وقديم التنافر بين هذه العناصر فضلا عن اختلاف قلوب أمرائه وتأمر مماليكه الناصرية على قتله، وخوف الأمراء من هولاكو وجنوده، فقد أخذ الأمير زين الدين الحافظي يعظم شأن هولاكو ويشير بألا يقاتل ويداري بالدخول في طاعته. فصاح به بيبرس وسبه وضربه وقال: أنت سبب هلاك المسلمين، وسرعان ما جعل ذلك الجيش ينفض من حول الملك الناصر [٢] الذي لم يجد بدا من ترك دمشق لتعاني مصيرها السيء وتواجه المغول بمفردها - إذ لم يستطع وزيره زين الدين مصطفي من الحفاظ عليها وسرعان ما سلمها للمغول في مارس سنة ١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ، في حين لم تستطع حاميتها الصمود طويلا أمام ضربات المغول وسلمت لهم في الثالث من يونيو ١٢٦٠ م [٣] - وتوجه بقواته

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٣٢، ٤٢٥، ٤٣٨.
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ٣٩٤.
(٣) وإن كانت دمشق قد نجت من التخريب والتدمير بفضل وساطة أعيانها مما جعل المؤرخ أبو شامة - وكان حاضراً احتلال المغول لدمشق - يقول في نهاية وصفه لهذا الغزو في كتابه " الذيل على الروضتين ": الحمد لله الذي عافانا مما ابتلي به غيرنا.

إلى غزة حيث يكون قريبا من النجدة التي وعده بها المظفر قطز سلطان مصر [(١)].

وفي خضم هذه الأحداث توفي " منكوخان " كبير المغول، فأسرع هولاكو بالعودة إلى بلاده للمشاركة في اختيار الخان الأعظم الجديد وكان هولاكو يأمل في تعيينه خاقانا للمغول نظرا لإنجازاته وفتوحاته المهمة، وفي الطريق وبينما هو في تبريز [(٢)] علم باختيار أخيه " قوبيلاي " (١٢٦٠ - ١٢٩٤ م) خاقانا جديدا وأن الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بوساطة أمراء مغول الشرق الأقصى، الذين أرادوا إجراء الانتخابات قبل مجيء أمراء الغرب، وكان ذلك منافيا لقواعد الحكم التي قررها جنكيزخان، ومع ذلك تقبل هولاكو الأمر ببساطة واحترم سلطة أخيه قوبيلاي، ولكنه لم يرجع إلى قيادة الجيش الذي تركه ببلاد الشام تحت إمرة قائد تتري مسيحي، على المذهب النسطوري، هو كتبغا نوين [(٣)].

أما الناصر يوسف فإنه لما رأي تخاذل جيشه وخوفه من مواجهة المغول وتفرقهم من حوله سار نحو الديار المصرية ونزل العريش ومنها إلى قطيا - قرية بين القنطرة والعريش

أنظر: أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٤.

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤١٩ - ٤٢٠، أبو الفداء، المختصر، ٣ / ٢١٠ - ٢١١.

(٢) حلت تبريز منذئذ محل بغداد في الجاه والثراء، وأصبحت هي قاعدة الحكم للعراق والشام. أنظر، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ١٥٥.

(٣) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ١٥٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٦٠.

في صحراء سيناء - لعله يجد فيها مأوي أو منجاة من المغول من ناحية، ومن المماليك من ناحية أخري، وذلك بعد أن تفرق عنه جنده وسبقوه إلى مصر ومعهم الأثقال، إلا أن الملك الناصرلما وصل قطيا تراجع وعاد خوفا من الملك المظفر قطز صاحب مصر [1]، ونزل بوادي موسي - واد في جنوب بيت المقدس - ثم نزل مكان يسمي بركة زيزاء فأدركه التتار بها وهو في نفر قليل من أصحابه ومماليكه مما اضطره إلى الاستسلام لهم، وحمل إلى هولاكو ولقيه لقاءً طيباً ووعده برده إلى مملكته الأيوبية الممتدة من أطراف الشام إلى النوبة ومن برقة إلى الفرات، كما وعده بأنه سوف يجعل له السيادة الفعلية على كل هذه البلاد بشرط الاعتراف بسلطان المغول وسيادة الخان الأكبر، وأقام الناصر وولده العزيز عند التتار على أمل أن يعيدهم هولاكو إلى ملكهم مرة أخري، إلا أن هزيمة التتار وانكسارهم وقتل كتبغا في موقعة عين جالوت تلك الهزيمة التي قضت على كل أحلام هولاكو دفعته إلى قتل الناصر وأخيه ومن معه ولم ينج من ذلك إلا ابنه وذلك في ذي القعدة عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م [2].

---

(١) هناك رأي يقول أن قطز لم يكن يخشي شيئاً خشيته من وصول أمير أيوبي على رأس قوة حربية إلى حدود مصر، ولذلك أغري الكثير من أتباع وجنود ومماليك الملك الناصر وجذبهم إليه، مما جعل الملك الناصر يجد نفسه وحيدا فريدا توشك أن تتخطفه أيدي التتار.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ١٥٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٦٠.

في تلك الأثناء كان السلطان سيف الدين قطز قد رجع إلى قلعة الجبل ليواصل التصفيات ضد خصومه السياسيين فقبض على الأمير جمال الدين موسي بن يغمور واعتقله بقلعة الجبل، كما أنه صادر ممتلكات كل من وفد على القاهرة من حاشية الملك الناصر يوسف، وألزم زوجة الملك الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر، فأخذ منها جوهراً كثيراً (١).

وتتابعت الأحداث حيث بدأ هولاكو يعد العدة للهجوم على بيت المقدس وغزو البلاد المصرية، ولم يعد قانعا بما استولي عليه في الشام، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور لسلطان مصر المملوكي إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول، جاء فيها:... باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم،وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكي، ولا نرق لمن شكي، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٢٢٧، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٦٠.

الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغي الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا، ولا كافيا ولا حرزا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدي، وخشي عواقب الردى،

وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هلاوون [1] قد أتى ::: بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ::: ويلحق أطفالا لهم بالأكابر [2]

أخذ السلطان يجمع الرجال والأموال والسلاح ويستعد لصد المغول وأدرك أن مهمته على جانب كبير من الخطورة فالشعب الذي سيواجه به المغول قد استولت عليه الرهبة واستبد به الخوف من هول ما سمعه عن فظائع المغول ووحشيتهم وسفكهم للدماء وتخريبهم للديار فضعفت روحه المعنوية عن الجرأة على الوقوف في مهب هذا الإعصار المهلك.

ولم يوهن من عزم قطز أو يضعف من تصميمه على الخروج لمنازلة المغول ما سمعه من أقوال المرجفين ولم يأبه بما احتج به الداعون إلى الانتظار داخل الحدود المصرية حتى يدخل إليها المغول ونادى بالنفير العام للجهاد في سبيل الله ودرب المتطوعين على فنون القتال في وقت قصير جدا ولم يكد ينتهي من مهمته حتى اقترب المغول بقيادة كتبوغا من حدود مصر.

فلما تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة (الإنذار) جمع الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض على الرسل واعتقلوا وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة في لقاء التتر.

---

(١) صيغة لاسم هولاكو تترد كثيرا في كتب المؤرخين المعاصرين.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٢٧ - ٤٢٨، القلقشندى، صبح الأعشى، ٨ /٦٣ - ٦٤.

يقول المقريزي:

فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان: خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر قطز رسل التتر، وكانوا أربعة، فوسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رؤوسهم على باب زويلة، وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبي من الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

ونودي في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ.

وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع. وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير،

فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع.

فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: أنا ألقى التتار بنفسي، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد. فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بقطعة من العسكر، فسار حتى لقي طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو، لما بلغهما مسير

العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها(١).

اتجه السلطان قطز على رأس جيش كثير العدد إلى بلاد الشام في أوائل رمضان سنة ٦٥٨هـ وكانت الخطة التي رسمها هي أن يقابل المغول في أرض الشام وألا ينتظر قدومهم إلى مصر وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين:

الأول: انتهاز فرصة البدء بالقتال التي كان المغول يحرصون على انتهازها أولا ليضعفوا الروح المعنوية في نفوس أعدائهم.

الثاني: لقاء المغول خارج أرض مصر حتى لا تكون ميدانا للحروب وعرضة للتدمير والتخريب.

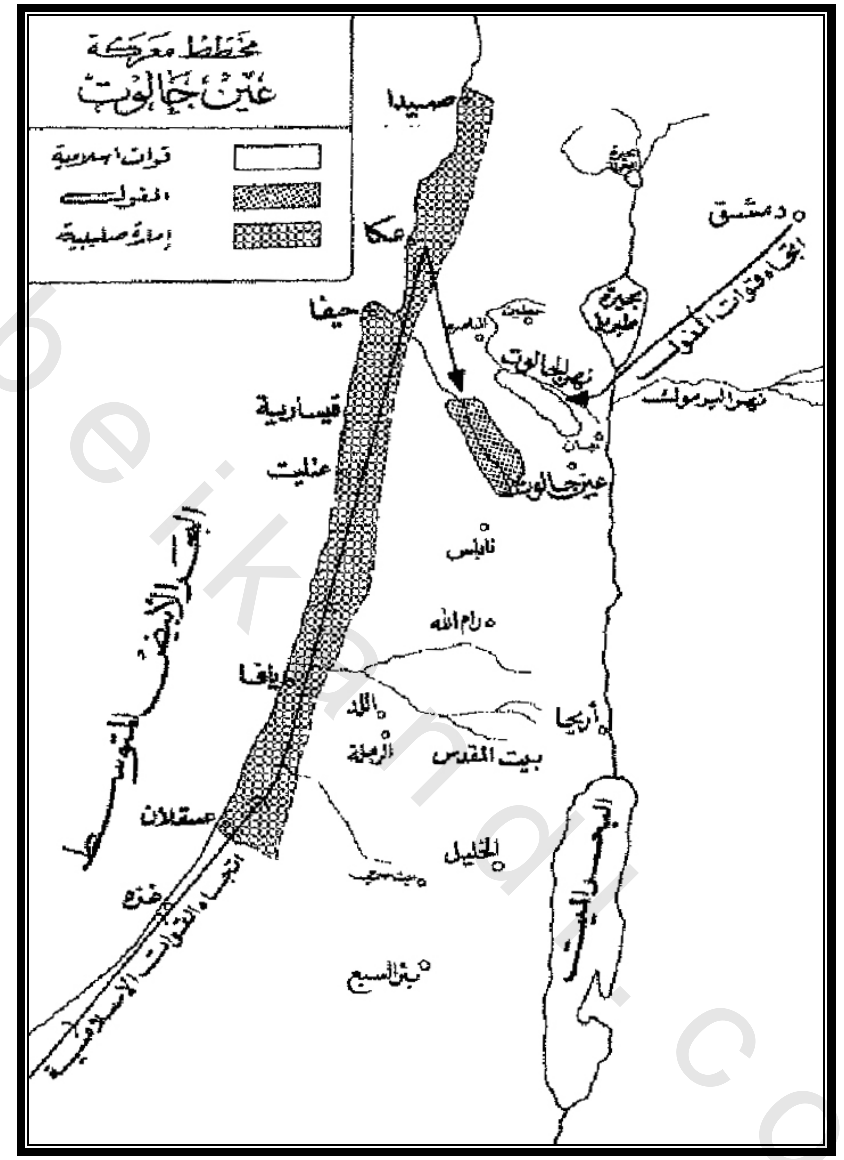
وقد أرسل السلطان أمام قواته طليعة من الفرسان بقيادة ركن الدين بيبرس وعند بلدة الصالحية (٢) انضمت الكتائب الشامية التي كانت قد جاءت إلى مصر فارة من وجه المغول إلى الجيوش المصرية.

وصلت طلائع الجيوش المصرية إلى غزة وأرغمت المغول على التخلي عنها ودخلها الأمير بيبرس على رأس فرسانه، ولم يكن المغول يتوقعون أن يصل المصريون إليهم بهذه السرعة فلما رأوا الجحافل الإسلامية قد ملأت السهول

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٧.
(٢) الصالحية: إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية بالوجه البحري بمصر أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٤هـ.

والأودية اضطروا إلى إخلاء جنوب الشام وأشار بعض ضباطهم على قائدهم كتبغا نوين بطلب النجدة من السلطان هولاكو ولكنه اغتر بقوته وخدع بانتصاراته السابقة ولم يعمل بمشورتهم.

سارت الجيوش الإسلامية من غزة متجهة إلى الشمال ومحاذية ساحل البحر الأبيض ومرت بيافا وقيسارية إلى جبل الكرمل جنوب حيفا وعند قرية (عين جالوت) الواقعة بين بيسان ونابلس دارت المعركة الفاصلة بين الجيش الإسلامي وجيش المغول في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨هـ.



بدأت المعركة بهجوم عنيف من المغول فتراجعت مَيْسَرَة الجيش الإسلامي وإذا بنداء يدوّي في ساحة المعركة (وا إسلاماه وا إسلاماه واإسلاماه) فاتجهت الأنظار إلى مصدر الصوت فإذا المنادي هو السلطان نفسه فالتهب حماس الجيش، وعادت الميسرة إلى مكانها

الأول، وحمل الجيش الإسلامي حملة صادقة على جيش المغول حتى هزمهم هزيمة ساحقة ومزقهم شرّ ممزق وخرّ قائدهم كتبغا نوين صريعا في الميدان واعتصمت طائفة منهم بالتل المجاور لمكان الموقعة فأحدقت بهم العساكر المسلمة وصابروهم على القتال حتى قتلوا معظمهم وفرّ الباقون لا يلوون على شيء، وقتل الأهالي الموتورون من المغول من وقع في أيديهم من هؤلاء الفارين [١].

وبعد انتهاء الموقعة اتجه السلطان قطز إلى دمشق فقوبل بحفاوة بالغة من أهلها لأنه صدّ هذه الموجة العاتية التي اجتاحت بلادهم وأنزلت بهم صنوف البلايا وقد أمر السلطان بشنق الذين تعاونوا مع المغول وعيّن حاكما على دمشق من قبله [٢] يقول العيني:

ولما فرغ السلطان، وصفا باله، واستقام حاله، عاد إلى دمشق، والأسرى تساق قدامه في الكبول، وقد حمل ما نهب لهم من القسيّ والسناجق والطبول، وكان دخوله دمشق يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخلها ونزل في القلعة مؤيدّا، منصورا، وكان أعظم الأيام قدرا، وأطرها عند الأنام نشرا، وأظهرها في وجه الزمان بشرا، بهذه النصرة العظيمة، والنظرة الوسيمة، والكسرة التي لم يرى مثلها في الأزمان القديمة، فإن جيش التتار لم يجز هذه الديار بمثل هذا الإكثار، ولا قصدها قبل هذه المدة في بعض هذه العدّة [٣].

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٧ ص٧٩، ٨٠.
(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٢٠٦ - ٢٠٧.
(٣) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١٨٢/١.

وأمرالسلطان المظفر قطز بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهي قلعة دمشق، وقلعة الصلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد، وقلعة بصرى وقلعة شيزر، وقلعة الصبيبة، وقلعة شميميش وقلعة حمص. فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد، وخزنت بها الغلات والأزواد وحملت كثيرة إلى دمشق، وفرقت في البلاد لتصير تقاوي الفلاحين. ورتب السلطان بدمشق بعدل، وبنى مشهداً في عين جالوت عرف بمشهد النصر.

ورتب السلطان البريد في سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام ويعود في مثلها. فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرتين، ويتحكم في سائر المماليك من العزل وهو مقيم بقلعة الجبل، وأنفق في ذلك مالاً عظيماً حتى تم ترتيبه. ونظر في أمر الشواني الحربية، وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله واستعملوهم في الحراريق وغيرها، فأعادهم إلى ما كانوا عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأنشأ عدة شواني بثغري دمياط والإسكندرية، ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه، وتكامل عنده ببر مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها [١].

أما بيبرس فإنه تعقب المنهزمين من المغول حتى كاد أن يلحق بهم على مقربة من مدينة حلب ولكنهم أطلقوا من كان في أيديهم من

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٧.

الأسرى وتركوا أولادهم وأسرعوا خفافا حتى لا يلحق بهم فتخطف الناس أولادهم ودانت حلب بالطاعة لسلطان مصر.

ورغم أن هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو نفسه، فإن تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها جيشه وقتل فيها قائده العظيم كيتوبوقا، تعد صدمة عنيفة هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث، فتأثر لذلك وحاول أن يمحو ذلك العار الذي لحق بجيوشه بإرسال حملة جديدة إلى الشام، في محاولة يائسة للانتقام من المسلمين، غير أن الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك، إذ لم يستطع التقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت لانشغاله في حروبه مع منافسيه من أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الأعظم في قراقورم أخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الأعظم إلا أن أصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصدًا بذلك - على ما يبدو - رفع معنويات هولاكو وجيوشه وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله في سنة 663هـ 1265/م فتوفي دون أن يحقق حلمه بضم مصر والشام إلى ممتلكاته.

إن التاريخ الإسلامي يُذكرنا إنه حين انعقدت آصرة العقيدة في نفوس المسلمين تحطمت الهجمات الصليبية عليهم، فالقادة الذين نسوا الانتماءات العرقية ووشائج الدم والأرض والقوم قادوا المسلمين إلى النصر، ومن أولئك صلاح الدين الأيوبي الكردي، وتوران شاه،

وسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس، وغيرهم كثير.

إن هذه القيادات نسيت القوم والأرض وتمسكت بالعقيدة فانتصرت تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولآصرة التجمع الأساسية في المجتمع الإسلامي حكمة ربانية بالغة ومن ثم فهي عقلية وعلمية يقول الأستاذ/سيد قطب: (حين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع ما هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة فإنه يكون ذلك ممثلاً لأعلى ما في إنسانية الإنسان من خصائص، أما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع ما هي الجنس واللون والقوم والأرض وما إلى ذلك من روابط فإنها كلها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان.

والخلاصة: أن المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي الموافق لما شرعه مولاهم المتحضر والمجتمع الذي يجتمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو المجتمع المتخلف وفي المصطلح الإسلامي يطلق عليه المجتمع الجاهلي).

لقد مرت على المسلمين فترات مظلمة - كهذه الفترة أو أشد - مستهم فيها البأساء والضراء وزلزلوا، فحينما اجتاح التتار العالم الإسلامي، ضج السهل والجبل من كثرة ما أريق من دماء المسلمين، وأشفق المؤرخون من هول ذكره، وبلغ الذل بالناس إلى الحد الذي جعل الجندي الأعزل، من المغول، يأمر الرجل، فيضع خده وعنقه على الأرض، ثم يأمره أن يظل على هذه الحال، بلا حراك، ومن

غير ما حارس يحرسه، حتى يذهب هذا ويحضر سلاحاً يحتز به رقبته!!.

وفي كل مرة زحف - ويزحف - فيها التتار والمغول وأشباههم؛ يعملون على قذف الرعب، واستلال روح المقاومة من النفوس، ولم يوقف زحف المغول الأصفر إلا هتاف: " وا إسلاماه "، الذي تردد مرة في بطاح عين جالوت.

ولن يوقف المغول والتتار والصليبيين الجدد واليهود، ومن في حكمهم، إلا مثل هذا الهتاف: " واإسلاماه ".

لو قدر للمغول أن ينتصروا في موقعة (عين جالوت) لانسابوا في مصر كالسيل الجارف ولامتدت موجتهم إلى السودان وبلاد المغرب وعبرت إلى الأندلس واجتاحت أوروبا وقضت على الحضارة الإسلامية والمسيحية على السواء لذلك تعتبر هذه الموقعة من أهم المواقع الفاصلة في التاريخ لأنها أنقذت العالم الإسلامي من شر مستطير وأطفأت هذه الصاعقة المهلكة التي كادت أن تقضي على حضارة العالم ومدنيته.

آثار " عين جالوت "..

وسبحان الله.. مع أن موقعة عين جالوت هذه كانت موقعة واحدة، وتمت في يوم واحد إلا أن آثارها كانت من القوة بحيث لا تتخيل، وكانت من الكثرة بحيث لا تحصى.. آثار عين جالوت كانت في غاية الأهمية، ولا نستطيع في هذه العجالة أن نمرّ عليها كلها، ولكن سنمرّ على طرفٍ منها.. وعلى الدارسين والمحللين أن يبحثوا

في هذه الآثار بمزيد من التفصيل والدراسة..

الأثر الأول:

عاد المسلمون إلى الله عز وجل أثناء التحضير وأثناء الإعداد لهذا اللقاء، وأثناء المعركة ذاتها، وبعد المعركة، ولمدة طويلة من الزمان.. لقد وضحت المعادلة جدًّا في أذهان الناس؛ فالمسلمون عندما ابتعدوا عن الله عز وجل تمكن المغول من رقابهم، ولما عادوا إلى الله حدث النصر الذي اعتبره كثير من المحللين معجزة.. وواقع الأمر أنه ليس بمستغرب، فالنتيجة الطبيعية لعودة المسلمين إلى الله عز وجل أن يتم نصرُهم على أعدائهم..

وتبين المسلمون أيضاً بوضوح أن الحرب دينية في المقام الأول؛ فقد تحالف كثير من النصارى مع المغول، مع أن مصالحهم على المستوى البعيد كانت مع المسلمين وليست مع المغول؛ فالمغول لا عهد لهم بينما يحترم المسلمون العهود جدًّا.. هذا في أصل دينهم، وهذا هو واقعهم في معظم فترات التاريخ، والمخالفات الإسلامية من ناحية إخلاف الوعود والعهود قليلة جداً، ويكون لها عادة مبررات قوية.. ولذلك فقد استقرّ في نفس المسلمين بعد انتصار عين جالوت أن الحروب التي دارت بينهم وبين المغول والنصارى لم تكن حروب مصالح فقط كما يحب كثير من الغربيين والعلمانيين أن يصوروا، وكما يحب الماديون أن يصوروا؛ فيجعلون الاقتصاد هو المحرك الرئيسي للحروب.. أو يجعلون الأغراض العسكرية والإستراتيجية هي الهدف الأساسي.. بينما رأينا في هذه القصة التي مرت بنا أن الدين كان له أثر كبير في تحريك النصارى، وكان له

أثر أكبر في تحريك المسلمين.. والله عز وجل نبهنا إلى ذلك في كتابه حيث قال مثلاً: " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ".. فجعل الرضا عندهم مقرونا باتباع ملتهم وليس ببقاء مصالحهم..

وكذلك قال:

" ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا "..

فوضح أن القتال سيستمر حتماً إلى أن يترك المسلمون دينهم، أما قبل ذلك فالحرب لن تتوقف، ولن تكفي سيطرة اليهود والنصارى والمغول والمشركين والهندوس على الأرض والديار والأموال والبترول والناس وغير ذلك.. لن يكفي كلُّ ذلك.. بل سيظل الهدف الأسمى لهؤلاء هو السيطرة على الدين الإسلامى.. أو قل " محو الدين الإسلامى "، وما نراه من متابعة لكل الحركات الإسلامية والتوجهات الدينية، وما نراه من محاولات تغيير لمناهج المسلمين الدراسية، وما نراه من حرب في وسائل الإعلام المختلفة.. كل هذا ما هو إلا صور للتعبير عن شدة الكراهية " لوجود " الدين وليس لوجود القوة أو الحدود..

أي أن المعركة في أصلها هى معركة " وجود " أساساً، هم لا يقبلون " بوجود " الدين الإسلامي على وجه الأرض.. لذلك فالحرب لن تنتهي أبداً.. لأن دين الإسلام لن ينتهي أبداً بإذن الله.. وهكذا لا يصلح أن يكون السلام اختياراً إستراتيجيًّا مهما تغيرت الظروف.. فأنت إن تنازلت عن كل شيء في مقابل السلام فهم لن يقبلوا.. إلا أن

تتنازل عن " الدين "..

لقد فقه المسلمون بعد موقعة " عين جالوت " أن الصراع ديني في المقام الأول، ومن ثَمَّ إذا أردت أن تنتصر في هذا الصراع الديني، فلابد أن تكون دينيًّا.. بمعنى أن تكون متمسكاً تماماً بهذا الدين..

كان هذا هو الأثر الأول لموقعة عين جالوت الخالدة..

الأثر الثاني:

قتل المسلمون في عين جالوت الهزيمة النفسية البشعة التي كانوا يعانون منها.. والتي فصلنا في ذكرها في أول هذا الكتاب..

خرج المسلمون من حالة الإحباط الشديد التي كانت تسيطر عليهم، وعلموا أن الأمل في الله عز وجل لا ينقطع أبداً، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين فإنها ولا شك إلى زوال..{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾} [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

ظهر للمسلمين بوضوح بعد عين جالوت أن الله عز وجل قادر على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهم وإن كانوا يعلمون ذلك علمًا نظريًّا قبل عين جالوت، فإن موقعة عين جالوت جاءت كالدرس العملي التطبيقي الذي لا يُبقي شكاً في قلب أحد..

{وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾} [يونس: ١٠٧].

الأثر الثالث:

عادت الهيبة للأمة الإسلامية بعد غياب دام أكثر من ستين سنة، فبعد أن كانت الأمة الإسلامية في أواخر القرن السادس الهجري في درجة عظيمة جداً من درجات النصر والفخر والسيادة، وذلك بعد انتصارَيْ حطين في المشرق (في فلسطين)، والأرك في المغرب)في الأندلس(حدث انكسار شديد في حالة الأمة الإسلامية، ضاعت هيبتها، حتى بدأت الكلاب تنهش جسدها، والأفاعي تجول بأرضها..

لكن عين جالوت ألقت الجلال والمهابة على الأمة الإسلامية، حتى إن هولاكو الذي كان يستقر في تبريز في فارس، ومعه عدد ضخم من القوات المغولية لم يفكر في إعادة احتلال بلاد الشام مرة ثانية، وأقصى ما استطاع فعله هو إرسال حملة انتقامية أغارت على حلب، وسفكت دماء بعض أهلها كنوع من إثبات الوجود، لكن هيبة الأمة الإسلامية وقرت في صدره، فلم يشأ أن يلقي بجيشه في مهلكة جديدة..

وهيبة الأمة لا تعود إلا بأيام كعين جالوت..

" إن الله ليزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن ".

الأثر الرابع:

فنيت قوة المغول العسكرية في منطقة الشام وتركيا وفلسطين.. لم يُسمع عن المغول في هذه المنطقة لعشرات السنين بعد ذلك، اختفى القهر والظلم، واختفى البطش والتشريد، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم.. ولم يروع الناسَ أحدٌ في

هذه المناطق إلا بعد عين جالوت بأكثر من مائةٍ وأربعين عاماً، عندما دخل المغولي السفاح تيمورلنك بلاد الشام، فاجتاح حلب ودمشق سنة ٨٠٤ هجرية بعد أن اجتاح بلاد العالم الإسلامي الشرقية..

أحداث تيمورلنك سنتعرض لها إن شاء الله عند الحديث عن دولة المماليك، وأيضاً سنتناولها عند الحديث عن الخلافة العثمانية.. لكن ما يهمنا في هذا المجال هو أن هذه الموقعة " عين جالوت " قد أمَّنت المسلمين مائة وست وأربعين سنة كاملة..

الأثر الخامس:

تعتبر موقعة عين جالوت شهادة الميلاد الحقيقية لدولة المماليك العظيمة، التي حملت راية الإسلام لمدة تقترب من ثلاثة قرون) مائتين وسبعين سنة... نعم، كانت بداية حكم المماليك منذ سنة ٦٤٨ هجرية عند ولاية شجرة الدرّ ثم زوجها الملك المعز عزّ الدين أيبك المملوكي، لكن " عين جالوت " هي التي أعطت الشرعية أمام جميع المسلمين لدولة المماليك.. فقد حقق المماليك في غضون عشر سنوات انتصارين هائلين على أعداء الإسلام.. أما الانتصار الأول فكان في المنصورة وفارسكور على جيوش فرنسا بقيادة الملك لويس التاسع، والانتصار الثانى هو عين جالوت، ولئن كانت القيادة العامة لجيش المسلمين في موقعة المنصورة ثم فارسكور قيادة أيوبية فإن الجيش كان معتمداً في الأساس على المماليك، أما في عين جالوت فالانتصار كان مملوكياً خالصاً، وبذلك شعر الجميع أن هؤلاء المماليك هم أقدر الناس على قيادة الأمة..

وهكذا نشأت الدولة المملوكية التي حملت على عاتقها صدّ هجمات أعداء الله عز وجل من مغول أو صليبيين، وكانت دولة جهادية في معظم فتراتها..

ومع أن دولة المماليك حاولت أن تضفي شرعية على وجودها بصورة أكبر حيث استضافت أبناء خلفاء بنى العباس في القاهرة ابتداءً من سنة ٦٥٩ هجرية بعد عين جالوت مباشرة وفي عهد الظاهر بيبرس، إلا أن دولة المماليك لم تكن تمثل الخلافة الحقيقية للمسلمين لأنها لم تكن في أقصى اتساعها تسيطر إلا على أجزاء محدودة من العالم الإسلامي، فكانت تسيطر على مصر والشام والحجاز واليمن وأجزاء من العراق وأجزاء من ليبيا، أما بقية العالم الإسلامى فكان موزعاً بين طوائف شتى، ولم يجد المسلمون معنى الخلافة الحقيقية الجامعة لكل المسلمين تقريباً إلا بعد قيام الخلافة العثمانية العظيمة الذي أعادت جمع المسلمين بعد سنوات من التفرق.

لكن على العموم.. كانت دولة المماليك أقوى دول المسلمين في فترة وجودها، وأكثرها جدية، وأعظمها هيبة، ولذلك يطلق المؤرخون كثيرًا على العهد الذي عاش فيه المماليك " العهد المملوكي " متجاهلين بذلك كثيراً من الدول الصغيرة التي عاشت في تلك الفترة..

الأثر السادس:

عادت الوحدة العظيمة بين مصر والشام، وكونا معًا التحالف الإستراتيجي الصُلب الذي يمثل حاجز صدّ رائع ضد الهجمات

الأجنبية.. فمصر والشام - بما فيها فلسطين - يمثلان قلب العالم الإسلامي إستراتيجيا وسياسيًا وجغرافيًا وثقافيًا وتاريخيًا.. واتحاد مصر مع الشام يمثل عامل أمان كبير لكل المنطقة، كما أنه يقلل كثيراً من أطماع الطامعين في العالم الإسلامي، وخاصة أن معظم أعداء الإسلام كثيراً ما يركزون تفكيرهم على منطقة مصر والشام، وذلك لأسباب دينية واقتصادية وعسكرية.. وبذلك يتضح أنه لا نجاة لهذه المنطقة إلا بوحدة شاملة بين كل الشام بما فيها سوريا وفلسطين والأردن ولبنان.. وبين مصر.. وهذا ما فعلته دولة المماليك الناشئة.. إنها الوحدة نفسها التي سهر عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود على إقامتها، وجاء الناصر صلاح الدين من بعدهما لكي يبني عليها انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين الغزاة ويحرر القدس.. وها هي معركة عين جالوت تشد الآصرة مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم ودفعهم إلى إحدى اثنتين: الإذعان لكلمة الإسلام أو العودة من حيث جاؤوا.. لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت السلاجقة من قبل، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة أن تعوض عالم الإسلام عما فقدَ هناك..

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا ::: فإذا افترقن تكسرت آحادا

الأثر السابع:

اختفى من على الساحة الإسلامية كل الأمراء الأيوبيين الذين كانوا أقزاماً في ذلك الزمن الذي لا يعيش فيه إلا العمالقة.. لقد فرّط

معظم هؤلاء الأمراء في الأمانة الثقيلة التي خلَّفها لهم جدُّهم العظيم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وما كان لهم من همٍّ إلا الصراع على السلطة، وجمع المال، وتوريث الأبناء.. عاشوا حياتهم في مؤامرات ومكائد، وداسوا على كل الفضائل والمكارم في صراعاتهم، حتى انتشرت بينهم موالاة النصارى والاستعانة بهم في حرب إخوانهم من المسلمين، وأحيانا في حرب إخوانهم الأشقاء**!!**.. وظلّ هؤلاء الأقزام يُذيقون شعوبهم الألم والظلم والقهر والخيانة، وظلوا يقاومون أيّ مشروع للوحدة تحت راية واحدة؛ لأنهم يختلفون فيمن يصعد إلى كرسي الحكم إذا حدثت الوحدة، وظلوا يقاومون الحكم المملوكي في مصر، ويتعاونون مع الصليبيين لإسقاطه إلى أن حدثت موقعة عين جالوت الخالدة.. فكان من آثارها المباشرة سقوط هذه الزعامات الوهمية، وعرف كل منهم قدره، ورضي بما يناسب حجمه، وبذلك وَقَتْ موقعة عين جالوت الأمةَ شر أبنائها.. كما وَقَتْهَا شر أعدائها..

الأثر الثامن:

نتيجة الوحدة بين مصر والشام، ونتيجة اختفاء الأمراء الأقزام من على الساحة، ونتيجة ظهور دولة المماليك، ونتيجة الطبيعة الجهادية لدولة المماليك، ونتيجة النشأة الإسلامية والحميّة الدينية والفقه العالي الرفيع لهذه الدولة.. نتيجة لكل هذا حدث أمر هائل عظيم..

لقد أخذ المماليك على عاتقهم مهمة تحرير بلاد الشام وفلسطين من الإمارات الصليبية التي ظلّت تحكم هذه البلاد منذ سنة ٤٩١

هجرية.. أي منذ أكثر من مائة وستين عاماً قبل عين جالوت.. ومع أن عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي رحمهم الله جميعاً قد بذلوا جهوداً مضنية لتحرير هذه المناطق إلا أنهم لم يفلحوا في تحرير كثير منها، إلى جانب تفريط أبنائهم في بعض الولايات المُحرَّرة حين تنازلوا عنها من جديد للصليبيين، ولذلك فبعد " عين جالوت "، وبعد استقرار المماليك في الحكم بدؤوا يوجهون جيوشهم الواحد تلو الآخر لتحرير هذه البلاد الإسلامية العظيمة فلسطين وسوريا والأردن ولبنان وتركيا.. نسأل الله لهم جميعًا دوام التحرر..

فبدأ الظاهر بيبرس حملاته على هذه الإمارات ابتداءً من سنة ٦٥٩ هجرية بعد عين جالوت بشهور قليلة، وبعد جهاد مُضْنٍ بدأت الإمارات الصليبية في التساقط في أيدي المسلمين المجاهدين، فحرّر المسلمون في سنة ٦٦٤ هجرية قيسارية وحيفا وحصن أرسوف جنوب قيسارية، وكل هذه المدن في فلسطين، ثم في سنة ٦٦٥ هجرية حررت صفد في الشمال الشرقي لفلسطين، وبينما كان بيبرس يحرر هذه البلاد في فلسطين كان قائده سيف الدين قلاوون يحرر قليقية في تركيا وانتصر هناك على قوات الأرمن النصرانية بقيادة الملك هيثوم، وجمع غنائم لا تحصى، وأسر من الصليبيين ونصارى الأرمن أربعين ألفاً، وفي سنة ٦٦٦ هجرية حرّر الظاهر بيبرس يافا، وفي سنة ٦٦٧ هجرية حُررت أنطاكية إمارة الأمير بوهمند الذي كان متحالفاً مع المغول، وهي أول مملكة صليبية في بلاد المسلمين حيث احتلت في سنة ٤٩١هجرية، وكانت أغنى

الإمارات حتى إن غنائمها من الذهب والفضة كانت توزع على الفاتحين بالمكيال وليس بالعدد!!..

ولم يبق عند وفاة الظاهر بيبرس - رحمه الله - من المدن الإسلامية المحتلة إلا عكا وكانت أقوى المدن المحتلة، إلى جانب صور وصيدا وطرابلس وبيروت وهي جميعاً في لبنان، وأيضاً طرطوس واللاذقية وهما من المدن السورية..

وقد حُرّرت طرابلس في سنة ٦٨٤ هجرية بعد عين جالوت بستة وعشرين عاماً على يد السلطان المملوكي المنصور قلاوون، ثم خلفه بعد ذلك ابنه السلطان العظيم الأشرف خليل بن قلاوون الذي أخذ على عاتقه تحرير كل المدن الإسلامية المحتلة من الصليبيين، فحُررت عكا الحصينة في سنة ٦٩٠ هجرية بعد قرابة قرنين من الاحتلال الصليبي، وبعد فشل كل أمراء المسلمين السابقين على مدى قرنين كاملين في فتحها، وبفتح عكا سقطت أعظم معاقل الصليبيين في الشام، وبعدها بقليل حررت صيدا وصور وبيروت وجبيل وطرطوس واللاذقية، وبذلك انتهى الوجود الصليبي تماماً من الشام وذلك بعد اثنتين وثلاثين سنة فقط من عين جالوت، مما يجعل هذا التحرير من النتائج المباشرة لهذه الموقعة العملاقة..

الأثر التاسع:

ارتفعت قيمة مدينة القاهرة المصرية ارتفاعًا بالغًا، بعد انتصار عين جالوت وقيام دولة المماليك، وخاصة بعد التدمير الذي لحق ببغداد سنة ٦٥٦هجرية على أيدي المغول، وبعد سقوط قرطبة

سنة٦٣٦ هجرية في أيدي الصليبيين الأسبان..

أصبحت القاهرة قبلة العلماء والأدباء، ونشطت الحركة العلمية جدًّا، وعظم دور الأزهر، وأصبح - ولا يزال - من أعظم جامعات العالم الإسلامي، وحمل لواء الدفاع عن الدين، ونشر الدعوة، والجهر بالحق عند السلاطين، والمطالبة بالحقوق، وتزعم الحركات الجهادية ضد أعداء الأمة..

احفظوهـــا إن مصـــر إن تضـــع ::: ضاع في الدنيا تـــراث المســـلمين.

وبذلك توارثت الأجيال في هذه المدينة العريقة " القاهرة " الدعوة إلى الله، والصحوة الإسلامية، وحمل هَمّ المسلمين، ليس في مصر وحدها بل في العالم أجمع..

الأثر العاشر:

وهو من أعجب الآثار، وأعظم الآثار**!!**

فقد رأى كثير من المغول دين الإسلام عن قرب، وقرؤوا عن أصوله وقواعده وقوانينه، وعلموا آدابه وفضائله، ورأوا أخلاقه ومبادئه.. فأعجبوا به إعجاباً شديداً، وخاصة أنهم - كعامة البشر - يعانون من فراغ ديني هائل.. فليس هناك تشريع يقترب أو يحاول الاقتراب من دين الإسلام.. ومن اقترب منه وبحث فيه لابد أن يرتبط به، إن كان صادقاً في بحثه، وطالبًا للحقيقة فعلاً..

لقد بدأ بعض المغول يؤمنون بدين الإسلام.. ثم شاء الله عز وجل أن يدخل الإيمان في قلب أحد زعماء القبيلة الذهبية - أحد الفروع الكبيرة جدًّا في قبائل المغول -، وهذا الزعيم هو ابن عم هولاكو

مباشرة، وهو أخو " باتو " القائد التتري المشهور، وتلقب هذا الزعيم باسم " بركة "، وكان إسلامه في سنة٦٥٠ هجرية، ثم تولى " بركة " زعامة القبيلة الذهبية سنة ٦٥٢ هجرية، وأصبح اسمه " بركة خان "، وكانت هذه القبيلة شبه مستقلة عن دولة المغول، وتحكم المنطقة التي تقع شمال بحر قزوين، والمعروفة في الكتب الإسلامية القديمة باسم " بلاد القبجاق " وهى تقع الآن في روسيا، وبإسلام هذا الزعيم دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام، وهذا أمر عجيب حقاً؛ لأن دخول كل هؤلاء في الإسلام كان قبل عين جالوت، وكان المغول يتحكمون في رقاب المسلمين، والمسلمون مهزومون في كل مواقعهم، وهى من المرات القليلة جدًّا في التاريخ التي يدخل فيها الغازي في دين من يغزو بلادهم، ويدخل القوي في الدين الضعيف، ولكنه دين الإسلام الذي يخاطب الفطرة البشرية، وهذا يضع مسؤولية كبيرة على عاتق الدعاة المسلمين، في أن يصلوا بهذا الدين إلى أهل الأرض جميعاً، فإن من وصل إليه الدين صحيحاً نقياً فإنه يُرجى إسلامه مهما كان معادياً للإسلام في بَدء حياته..

ومن آثار موقعة عين جالوت العظيمة أن تزايد عدد المسلمين جدًا في القبيلة الذهبية حتى أصبح كل أهلها تقريباً من المسلمين، وتحالفوا مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو، ولهم مع هولاكو حروب متكررة نعرض إليها إن شاء الله عند الحديث عن تاريخ دولة المماليك..

والجدير بالذكر أن بقايا القبيلة الذهبية ما زالت موجودة، ومكونة لبعض الإمارات الإسلامية مثل إمارة قازان وإمارة القرم وامارة

استراخان وإمارة النوغاي وإمارة خوارزم وغيرها، وكل هذه الإمارات ما زالت محتلة إلى يومنا هذا من روسيا، وما استطاعت أن تتحرر بعد حتى بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، ونسأل الله لها ولسائر بلاد المسلمين التحرر الكامل والسيادة المطلقة على أراضيها..

أسباب النصر في عين جالوت

1 - القيادة الحكيمة: أكرم الله الأمة في تلك الفترة التاريخية الحرجة، بالسلطان سيف الدين قطز وكان رجلاً صالحاً، كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى الشرب ولا شيئاً مما يتعاطاه الملوك، وكان شجاعاً وبطلاً، كثير الخير، ممالئًا للإسلام وأهله وهم يحبونه، وكان مقداماً حازماً حسن التدبير، وكانت الأمة في أشد الحاجة لقيادة حكيمة، تتصف بصفات فذة، فقد جاءت مواهبه موافقة لحاجات الأمة، شهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتيح له خبرة في الحروب وكان مهيأ نفسيًّا منذ نعومة أظفاره في أن يكون قائداً فذاً، يشار إليه بالبنان، ويكون صاحب شأن في مجريات الأحداث في مصر والشام، وكان يعتز بعقيدته الإسلامية ويفاخر بها وكان يحمل الضغينة والحقد على المغول الذين أذاقوا خوارزم شاه ومن معه شراً ووطؤوا بلادهم وساموهم سوء العذاب، وكان له من الصفات الجسمية ما يؤهله لأن يكون قائداً، فهو قوي البنية، مستدير الوجه، عريض الكفين، ممتلئ الجسم، أشقر، كث اللحية، وكان من البارزين في الفروسية والحاذقين في إستخدام الرمح، فإذا أتاه الخصم من الخلف رمى الرمح أمامه بقدر ثلث حتى إذا كان الرمح بين كتفي

قطز أبطله وغرز رمحه في صدره لا محال، ولما داهم الخطر الأرض الشامية والمصرية وتحرك المغول بجيوشهم لكي يقضوا على المماليك اتخذ قطز حينذاك عدة إجراءات دفاعية منها: الترحيب بالهاربين من المماليك، وتناسيه الضغائن والأحقاد والخلافات التي كانت بينه وبينهم، وعزل الملك المنصور على لصغر سنه وعدم قدرته على ترتيب الأوضاع التي تحتاج إلى حزم ووحدة، وقيادة قادرة على محاربة المغول وذلك سنة 657هـ/1259م، وتحضير الإمكانيات وحشد الطاقات البشرية والاقتصادية ومحاولة التحالف مع الملك الناصر صاحب الشام، وتوحيد القوتين ليكون الجيش أقوى في مواجهة أعدائه، لقد كان سياسياً إستراتيجياً مخططاً أكثر منه مقاتلاً إذ استطاع في مدة بسيطة أن يسوس بلاد الشام، وأن يحسن إلى الشعب، ويقدم له الأمن والسلامة والاستقرار، وأن يهيء له سبل العيش الكريم، وأن ينظم الأمور الإدارية، ويعين الحكام الإداريين للمدن التي احتلها واستردها التتار.

إنما يتميز به هذا السلطان هو الإيمان بالله عز وجل، الذي لا يرقى إليه ريب ولا شك، والفطرة السليمة التي جبل عليها وتربى في ظلالها والعيش الصعب الذي أهله للصبر والوقوف أمام الشدائد، وتقلبه في البلاد، والحرمان الذي قاساه في صغره، والتربية التي خضع لها، وتمت عقيدته ورسخ إيمانه، وهذب نفسه، وأصلح باله، وقوى من عزيمة الجهاد، ومن الاستهانة بالموت، ومن الإقدام والعزيمة على قتال المغول، ومن الوثوق الكامل في الله بالنصر عليهم، وقد دلت حروب قطز التي خاضها مع الأيوبيين وضد

الأمراء الهاربين إلى الكرك، وضد الأمراء الذين حاولوا اغتصاب السلطة، وفي معركة عين جالوت، على أنه قائد حرب إستراتيجي من الطراز الأول، فهو خفيف الحركة على حصانه، وهو الذي أجاد في القتال بالأسلحة المستخدمة آنذاك، وكان صاحب قرار تميز بالوضوح والدقة، والنظر الثاقب، وجلاء الهدف، وبيان الحقيقة خاصة فيما يتعلق بمعركته هذه مع المغول، وهو حازم وقت الشدة ومصمم على بلوغ النصر مهما كانت العقبات أمامه، ومتفهم لقدرة عدوه ومقدر لقوة الصديق، وكان لكل شيء حسابه، ويدقق المعلومات ويحافظ على مرؤوسيه ويستميلهم بأسلوبه الجذاب، ويتعاون مع أركانه ويعطيهم الثقة، ويمنحهم المساعدة والعطاء، وكان منظمًا قاد الكتلة الرئيسية من الجيش في معركة عين جالوت، فنظم الميمنة والميسرة والقلب، وأناط لكل جناح قائداً شجاعاً ونسق الصفوف إلى عدة تراتيب، وجعل الميمنة تتقدم بالإحاطة والميسرة بالالتفاف والقلب بالتقدم البطيء الزاحف، كما بث الحرس المتحرك على الأجناب والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو، مما جعله يتمكن من عدوه، ويقضي عليه بعد أن استدرجه للوقوع في النقطة الميتة التي وقع فيها عدد كبير من قتلى المغول، ولقد حدد قطز قواعد وأسس الشؤون الإدارية في الجيش المملوكي، إذ استطاع أن ينظمها ويحدد خطوطها العريضة وبخاصة فيما يتعلق بحركتيها وخفتها، وقد ظهر ذلك جليًّا عندما حدد لصاحب حماة كيفية ونوع الإمداد، وعندما أكد على أن الجندي يجب أن يكون خفيف الحركة لا يثقله الطعام الكثير المتنوع فأمر بوضع قطعة من اللحم في مخلاة

عسكرية ومما يشار إليه أن قطز كان متدينًا عفيفًا، صاحب تقوى وورع، وهذه الصفة أكسبته الشجاعة والإقدام في الحروب، وجعلته يستبسل ويقدم روحه رخيصة، ويستهين بالموت، وبخاصة عندما قتل حصانه، واستمر في القتال دون جواد، وكان في مقدمة الجيش يقاتل عن حمية وعقيدة، وكانت له مواقف إيمانية متميزة منها:

أ - وضوح الرؤية ونقاء الهوية: كان على اعتقاد جازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى، ولذلك اهتم قطز بالناحية الإيمانية عند الجيش وعند الأمة وعظم دور العلماء وحفز شعبه لحرب التتار من منطلق إسلامي وليس من منطلق قومي أو عنصري، ولخص ذلك في عين جالوت في كلمته العظيمة: (وا إسلاماه) ولم يقل: (وا مصراه)، أو: (وا ملكاه)، أو(وا عروبتاه)، لقد كانت الغاية واضحة والهوية إسلامية تماماً، ووضوح الرؤية ونقاء الهوية كان سبباً من أسباب النصر، بل هو أعظمها على الإطلاق.

ب - الدعاء سلاح فتاك: حرص سيف الدين قطز قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في مواجهة الأعداء كما قال: حتى تدور الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم، وكان هذا العمل تأسيًا برسول الله ﷺ والصحابة من بعده حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال، وقد نشبت المعركة وكان القتال شديداً على المسلمين، حتى أن الأعداء كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، وكان السلطان قطز يثبت الناس وينحاز إلى بعض نواح الجيش حينما يحس ضعفاً منهم حتى يقوي من عزيمته ويشجعهم، وكان له عدة مواقف شجاعة أثناء المعركة.

جـ - الحرص على الشهادة: في معركة عين جـالوت، قتل جواده ولم يجد أحداً فـي السـاعة الراهنـة من الوشـاقية الذين معهم الجنائب فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً والقتال على أشده فـي المعركـة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه أحد الأمراء ترجل عن فرسه وحلف علـى السلطان ليركبنها، فـامتنع وقـال لذلك الأمير: مـا كنـت لأحـرم المسلمين نفعك ولـم يـزل كـذلك حتـى جاءتـه الوشـاقية بالخيـل فركـب، فلامـه بعـض الأمـراء وقـال: يـا خونـت لـم لا ركبـت فرس فلان فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة وأمـا الإسلام فلـه رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان، حتـى عدَّ خلقاً من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضـع الإسلام. فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دلَّ على تواضعه وعدم اهتمامه بحفظ نفسه فـي سبيل مصـلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام، والهدف العـالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة.

س - رؤيا صادقة: كان من أهم الحوافز للأمير سيف الدين قطز على الإقدام على حرب التتـار رؤيـا صـالحة رآهـا فـي صـغره، وكـان يحدث بها أصحابه، حيث قـال: رأيـت النبـي ﷺ فـي المنـام وقـال لـي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبـي ﷺ حق لا شك فيه. فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يقدم على قتال التتـار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثيـر من الأمـراء أو قـاتلوهم بضـعف وخـوف، لقـد دخـل مظفـر الـدين تلـك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعـالى لـه ولجنـده،

كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي صلى الله عليه وسبم بالتمكين في الأرض، وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت، فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر، فكان ذلك دافعًا قويًّا له إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى، وذلك من أسباب النصر على أعدائهم.

ش - القدوة: كان سيف الدين قطز متواضعاً وضرب أفضل الأمثلة لجنوده ولأمته في كل الأعمال، وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات، كان سيف الدين قدوة في أخلاقه وفي نظافة يده وفي جهاده وفي إيمانه، وفي عفوه، ولم يشعر الجنود أبداً بأنهم غرباء عن قطز، لقد نزل - رحمه الله - بنفسه إلى خندق الجنود وقاتل معهم فكان حتماً أن يقاتلوا معه.

ع - عدم موالاة أعداء الأمة: لم يوال سيف الدين قطز التتار أبداً مع فارق القوة والإعداد بينهما، كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع احتياجه لذلك، لقد سقط الكثير من الزعماء قبل قطز في مستنقع الموالاة للكفار، وكان منطلقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساساً، ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك - كما يدعون - ولاية الحروب، فارتكبوا خطأً شرعيًّا شنيعًا، بل إرتكبوا أخطاء مركبة، فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، وموالاة العدو وإعتباره صديقاً خطأ ثالث، لكن قطز كان واضح الرؤية بفضل الله ثم تمسكه بشرعه سبحانه وتعالى، قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن

يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾} [المائدة: ٥١].

لقد كان سيف الدين قطز من القيادات الحكيمة التي استطاعت أن تأخذ بعوامل النصر وتتعامل مع أسبابه، وجمع بين الأسباب المادية والمعنوية، وبعد المعركة قرر المظفر قطز مواصلة الجهاد فجمع جيشه وأمراءه ونزل إلى الأرض، ومرغ وجهه بالتراب، وصلى ركعتين شكراً لله على هذا النصر، ووقف فيهم خطيباً، وقال: لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله أنه ذو القوة المتين، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، ويمومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

2 - توسيد الأمر إلى أهله: قام سيف الدين قطز بتوسيد الأمور إلى أهلها، واهتم بالكفاءة والأمانة، قال تعالى:{قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾}[القصص: ٢٦]، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيًّا سأل رسول الله ﷺ متى الساعة؟ فقال ﷺ:«**إذا ضُيعت الامانة فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتها؟ قال:«**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة**». فإذا تولى الأمور رجال لا يمتلكون كفاءة ولا يتصفون بأمانة، ولم يصلوا إلى مكانهم إلا بواسطة أو قرابة أو رشوة إذا حدث ذلك فاعلم أن النصر بعيد، أما سيف الدين قطز، فقد أسند الأمور إلى أهلها، واختار قادة جيشه وأركانه وكان لهم الفضل بعد الله تعالى في الانتصار على المغول على المستوى التكتيكي والاستراتيجي، ومن أشهر هؤلاء

القادة الذين ساهموا في النصر:

أ - الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري: كان في معركة عين جالوت رئيس أركان الجيش المملوكي وقائد الطليعة، طارد بيدرا قائد طليعة الجيش المغولي إلى أرض فامية، ظهرت عليه النجابة والفطنة في سن مبكرة من حياته التي كان فيها مملوكاً وقربه وقدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على الجمدارية الذين كانوا عنده وحضر معه معركة دمياط وأبلى فيها بلاء حسناً ظهرت عبقريته العسكرية وشجاعته الفائقة، لا يزال الكره يملأ قلبه والحقد الكبير على المغول الذين أهانوه وأسروه وعندما كان عمره أربعة عشر عاماً، وباعوه فشروه إلى أن وصل إلى البند قداري الذي سمي الظاهر باسمه، ثم انتقل إلى الملك الصالح وكان من أبطال معركة المنصورة التي كانت من المعارك الحاسمة بين الصليبيين والأيوبيين والتي انتصر فيها الجيش الأيوبي الذي كان في أكثره من المماليك ورأى بنفسه أنه يمكن الانتصار على هؤلاء وغيرهم وأنه بإمكان المماليك، لو نظموا ودربوا، أن ينتصروا على كل طامع وغاصب وقد تميز، بثقافته العسكرية التي كان يتمتع بها، إذ كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك والحروب وكان يشجع ويحث العسكريين التركيز على هذه الدراسة وبنفس الوقت كان يحب الأساتذة وخبراء الحرب ويميل إليهم ويكرمهم ويهيء لهم الجو الملائم للتدريس وإعطاء مزيد من المعلومات التاريخية العسكرية وكان يقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وحافظ على التدريب العسكري المتواصل، والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من الأمور المتعلقة

بالسياسة والحرب، وقد تمتع بصفات قيادية فذة، وكان يأخذ بالحذر والحيطة لكل الأمور، واتخاذ المناسب حيال كل حدث أو اعتداء، والخبرة الطويلة والمدة الزمنية الكبيرة التي قضاها في الحروب الحقيقية، كان من الشخصيات القيادية التي ساهمت في تحقيق النصر في عين جالوت.

ب - الأمير فارس أقطاي: المستعرب: أتابك الجيش والذي تولى تجهيزه وإعداده والإشراف على كل أموره، وفوق كل ذلك، فقد كان هو بنفسه من الرجال الموثوق بدينهم، وأخلاقهم وشجاعتهم وكفاءتهم في الأعداد والتنظيم والتعبئة، كان مقداما شجاعاً وذا معرفة بالحروب وكان قطز يعول عليه كثيراً، وكان هادئاً ورعاً، محباً للخير، مقرباً إلى الملك قطز ومحبوباً من قبل مرؤوسيه.

ج - سنجر الحلبي: كان أتابك العسكر في زمن الملك المنصور على ابن آيبك سنة 655هـ/1257م، وكان نائب المظفر قطز في دمشق في أعقاب معركة عين جالوت، ولما جاءه خبر مقتل قطز واستلام الملك الظاهر ومبايعته هرب إلى بعلبك وضيق عليه ثم ألقى القبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه وكان على درجة كبيرة من البطولة والشجاعة وقد أبلى بلاءً حسناً في المعركة الفاصلة.

د - آقوسي الشمس الأمير جمال الدين: كان جنديًّا قويًّا، وأميرًا موصوفاً بالشجاعة والإقدام والجرأة في التنفيذ، وقد كان خشداشيا عند الأمير بدر الدين البيسري، كما خدم عند غيره، وقد ظهرت عليه تطلعات الارتقاء إلى المناصب العالية، حتى إذا كانت معركة عين جالوت، شكل من وحدته العسكرية، وقصد مقر قيادة المغول،

حتى إذا كان قاب قوسين أو أدنى من القائد العام للجيش المغولي انقض عليه وأصابه وطرحه أرضاً وأسر كتبغا، ولما رأى الجيش المغولي وقد أسر قائده خارت قواه وضعفت معنوياته، وبهذا فقد حقق آقوشي نصراً لجيشه، بل كان منعطفاً تاريخياً ثم ولي فيما بعد نيابة حلب وبقي فيها حتى توفي.

هـ - هؤلاء كانوا من أهم قادة جيش المماليك الذين حققوا النصر الكبير في عين جالوت، فكانوا من أسباب النصر، لقد اهتم سيف الدين قطز بالكفاءات والقادة الآخرين فتعاطفوا معه والتفوا حوله وتولدت الثقة التي كانت المفتاح الرئيس لتحقيق التمكين في عين جالوت، وكان سيف الدين قطز يملك مقومات الحصول على الثقة من الأمراء والعلماء، وعامة الناس والتي من أهمها:

- التعاطف ويتحقق ذلك من خلال الاهتمام بالآخرين والوقوف إلى صفهم فيما يحدث لهم من خير وشر ومشاركتهم همومهم ومشاكلهم ومن خلال ذلك تم كسب ثقة القادة والعلماء وعموم الشعب.

- الصدق والصراحة، والكفاءة والعمل الجماعي المنظم والانتماء للإسلام والقدرة على الاتصال بالآخرين، وكل هذه المقومات ساهمت في كسب الثقة في سيف الدين قطز.

3 - الجيش القوي: يعتبر الجيش المملوكي في ذلك الوقت من أقوى الجيوش الإسلامية والفضل لله ثم للملك الصالح أيوب، الذي قام بإصلاح عسكري في الدولة الأيوبية ووضع سياسة جديدة تقوم

على استخدام الأتراك المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل أسلافه الأيوبيين مكنته من متابعة حروبه الخارجية مع مملكة بيت المقدس والتصدي للحملة الصليبية السابعة، ورافق ذلك التطوير العسكري الاهتمام الديني به من حيث التربية والتعليم حتى أصبحت كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ومنتظم ومدرب أحسن تدريب صنعته الحرب والقتال وأيدي من المهارة والبسالة في قتال القوات الصليبية برغم هزيمتهم في بداية الأمر، وتميز القواد المسلمون بوضع الخطط الحربية الممزوجة بالمكر والخدع الحربية، وتسلم المماليك المؤسسة العسكرية الأيوبية بعد وصولهم للحكم وحافظوا عليها وقاموا بتطويرها، لقد اشترك الجيش المملوكي في معركة عين جالوت بقياداته العسكرية والتشكيلات المقاتلة النظامية، والجيش المركزي، والجيوش الإقليمية، والجيوش الاحتياطية بما فيها القبائل العربية والتركمان والأكراد، وقدر المؤرخون في ذلك العصر أن حجم الجيش المملوكي بالكامل كان في حدود 40 ألف مقاتل، وكان عدد الفرسان في حدود عشرة آلاف فارس وأغلبهم من المماليك وقسم قليل من غيرهم من المشتركين في المعركة، وكان عدد الجيش المغولي في عين جالوت 15 ألف مقاتل، وذلك أن القوة الرئيسية من هذا الجيش تحركت باتجاه فارس مع هولاكو وتوزعت بعض القوى الأخرى في المناطق التي احتلها مروراً ببغداد وانتهاء بالشام وكان في اعتقاد القادة المغول إن هذا العدد قادر على تحطيم وتدمير الجيش المملوكي بكل سهولة طالما أن له الخبرة في الحروب وسبق

أن انتصر على كل الجيوش التي اشتبك معها، وقد أكد على هذا العدد مجموعة من المصادر التاريخية من أهمها، جامع التواريخ، وتاريخ مختصر الدول، وتاريخ الشهابي، وتاريخ الصليبيين، وتاريخ الزمان.

4 - إحياء روح الجهاد: كانت الغاية من التوجيه المعنوي في الجيش المملوكي التذكير بالجهاد والحث عليه والترغيب وشحن النفوس بمقارعة ومحاربة العدو، وصون الديار، والحرمة الإسلامية، القوة المعنوية يركز عليها في كل الجيوش فلا ينتصر جيش بدون معنويات، ولهذا فإن القيادة تسعى دائماً إلى زيادة هذه القوة ورفعها، فهي تحاول أن يكون السلاح حديثاً موثوقاً به والشؤون الإدارية بحالة جيدة كالطعام واللباس والحاجيات الأخرى، ولقد أكثر المماليك من الوسائل التي ترفع هذه القوة كالمكافآت والترقيات، وإغداق الأموال، ولكن هذه الوسائل كانت موقتة للسكن الذي لا يلبث أن يعود الجندي إلى حالته الطبيعية ولكن هناك وسيلة كبيرة هي العقيدة التي كانت تأمر بالقتال وأن النتيجة مع المقاتلين في النصر أو الاستشهاد، وقد أشعل هذه الناحية المشايخ في الجيش المملوكي فأججوها، ورفعوا بها إلى المكان الذي يمكن أن يأخذوا من الجندي كامل طاقته وقدرته، وإذا أردنا أن تحمل بواعث المعنويات عند الجيش المملوكي في معركة عين جالوت لخصناها كما يلي:

- زيادة حجم الجيش المملوكي وتفوقه على خصمه.

- الثقة في الله في تحقيق النصر.

- الانتقام من المغول الذين طغوا وبغوا في البلاد التي احتلوها والثأر لكل المظلومين والمقهورين.

- العقيدة التي أججت في المقاتلين روح التضحية والفداء وجعلتهم يقدمون على الموت وهو أحب إليهم من الحياة.

- الاستعداد الكامل والتحضير لهذه المعركة، وحشد كل الطاقات والإمكانات لنجاحها.

- تراخي العدو وعدم اكتراثه وعدم تطبيقه الأسس والمبادئ الحربية وعدم أخذ الحيطة والحذر.

إن الذي يلفت النظر في موضوع المعنويات هو العقيدة، فيها اجتمعوا وتوحدوا على مستوى واحد، وأرضية واحدة، فالمملوكي مهما كانت طبقته وقوميته فهو عقائدي وبهذا الانتماء قدم الجهاد، وبهذه المزية اندفع بمعنوية لا تقابلها معنوية في الجيش المغولي، فذاك قطز نادي بأعلى صوته: (وا إسلاماه) فاجتمع له الجيش بفئاته المختلفة بمعنويات عالية، ذلك لأن هذا النداء العقائدي أجج في نفوس القادة والجنود كل إمكانيات المقاتل القتالية، وجعله يقدم الإرادة حباً وتضحية وفداء واستبسالاً، على هذا النداء قاتل الجيش المملوكي قتال رجل واحد، فانتصروا على أكبر قوة في تلك الحقبة.

5 - الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب: إن انتصار المسلمين في معركة عين جالوت؛ لأنهم عرفوا كيف يتعاملوا مع سنة الأخذ بالأسباب، وكان سلاطين المماليك أصحاب فقه عميق بسنة الأخذ بالأسباب، ويظهر ذلك من خلال حرصهم على العمل، وقوله

تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ } [الأنفال: ٦٠]، لقد فهم قادة المماليك أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها وتنوعها، ولقد قاموا بشرح هذه الآية عملياً من خلال التدريب والتعليم والتخطيط والتنظيم...الخ.

لقد اهتم قادة المسلمين في مصر بتأهيل الفارس لكي يدخل الحرب وهو على أتم الاستعداد لها، وكان أغلب الملوك والسلاطين والأمراء من الفرسان المعدودين ومن الأبطال الشجعان الذين على علم بالرماية ولعب الرمح وضرب السيف وخفة الحركة في ساحة الميدان وبفنون القتال وباستخدام الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، ولم تقتصر الفروسية على الوجهاء، بل كان أغلب الجنود أو قل جميعهم من الفوارس ومن المدربين على تلك الأعمال التي في نظرهم في مقدمة كل أمر، ومن أبرز الصفات عند الجيش المملوكي، والتي كان يركز عليها عند القادة في وقت الإعداد والتدريب والأخذ بالأسباب:

أ - العمومية والشمولية: إن التدريب كان يشمل المؤخرة، كما يشمل المقدمة، والتشكيلات كما في القطعات والوحدات، والفرد كما في المجموعات، والجندي كالقائد، والبحرية كالقوات البرية، ولا يستثنى أحد، وكانت هذه التدريبات تتناول جميع أنواع التدريب وأشكاله وطرائقه، كما تتناول جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال، والتدريبات التي تحافظ على اللياقة البدنية، وترفع من قدرة الجندي القتالية، كألعاب السباق والمصارعة، وبهذه العمومية والشمولية توصل الجيش المملوكي إلى توازن قتالي بين صفوف

قواته واختصاصاتها المختلفة، وإلى وحدة الجيش الحربية، وإلى ثقل الضغط والخرق، فإن ركز جهوده الرئيسية إلى قطاع من دفاعات العدو تراه يجمع كل الجهود لهذا القطاع، كما حدث تماماً في معركة عين جالوت عندما خرق الدفاع واستطاع أن ينفذ من اليمين والشمال وأن يصل خلف القوات المغولية بالرغم من الصمود وثبات الدفاع.

ب - ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي: كان المماليك يدربون على أصول العقيدة وأحكامها ونظرتها إلى الجهاد تحت إشراف مدربين اشتهروا بالتربية والتعليم، وكان يعلمونهم القرآن الكريم حتى أن بعض المدربين كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، وكذلك كانت علوم شرعية متنوعة في التفسير والحديث والسلوك واللغة، وبعد نجاحه في أمور العقيدة وإتمامه هذه المرحلة، وبعد أن يكبر، يسلم إلى مدربين في أمور الحرب والقتال، فيتدربون على ركوب الخيل ويتدرجون من السهولة إلى الصعوبة،فيقاتل على ظهرها بسلاح واحد ثم يصل إلى جميع الأسلحة ويتدرب في حالة الركض والوثوب عنها، ثم ينتقل إلى الرمي والدقة في الإصابة على القبق والضرب بالسيف والطعن بالرمح واستخدام الدبوس ولعب الصولجان، ثم يتدرب على طرق القتال في الميدان وهذه هي أصعب مرحلة في التدريب يخرج من بعدها مقاتلاً قويًّا في عقيدته قويًّا في قتاله وهو بهذا لا ينقطع عن التدريب العقائدي أو القتالي بل يظل ينمي تدريباته، حتى يصل إلى أعلى مستوى من التدريب المتلازم.

ج - التدريب بشكل متواصل: إن المقاتل المملوكي بعد أن ينهي هذه المراحل جميعها لا يتوقف عن التدريب أبدًا، وإنما هناك

الميادين المتعددة التي يلتقي فيها المقاتلون ليقوموا بتدريباتهم المعتادة ويوصل العسكري المملوكي تدريبه على جميع أنواع القتال وعلى اختلاف الأسلحة في جميع الظروف والأحوال الصعبة، ويبقى من الصباح حتى المساء حتى ولو كان الجو ماطراً أو بارداً أو حاراً، فالمهم عنده تنفيذ البرنامج التدريبي المقرر وكذلك كان التدريب العقائدي فقد كان الموجهون المشايخ كثيرين، وكذلك فإن دور العلم والتدريب كانت كثيرة وهي لا تخلو من المقاتلين الذين يلازمون هذه الأماكن التي كانت منتشرة بشكل واسع.

س - التخصص في التدريب: لقد شاع التخصص في الوظائف العسكرية في الجيش المملوكي فكل مادة لها مدربون خاصون بها، فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به، فهم يقومون بتدريبه وتعليمه للفوارس المبتدئين، كما كانوا يؤلفون الكتب العديدة التي تبحث في هذا السلاح وقواعده رميه وأصوله وأجزائه التي يتألف منها وعمل كل جزء واستخدامه في الميادين وفي ساحات القتال التي تفرض عليه أن يتخذ أوضاعاً مناسبة لكل سلاح، على أن هذا التخصص زاد من المعارف، وأكسب المدربين والمتدربين الدقة والسرعة وأداء الحركات بكل إتقان وفنية عالية، وكان المدرب يتدرج حسب خبرته وتحصيله للعلوم إلى ثلاث درجات الأولى يكون فيها معلماً والثانية أستاذاً. والثالثة رئيساً، ولا يرقى من درجة إلى درجة أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الفحص وقدم شيئاً من مؤلفاته وخبرته في العلوم العسكرية.

لقد دخل المماليك المعركة بعد إعداد وأخذ بالأسباب وحققوا

نصـراً سـاحقاً علـى المغـول، لقـد اتخـذ قـادة المماليـك مجموعـة مـن الإجراءات والأعمال كـان الهـدف منهـا التـأثير علـى القـوات المغوليـة في عين جالوت وكان من أهم هذه الإجراءات:

- الرد الفوري على الإنذار: درج المغـول خـلال حـروبهم السـابقة علـى توجيـه إنـذار قتـالي إلـى زعـيم الـبلاد أو قادتهـا يحملـه مراسـلون يتضمن الأعمال المجيدة التي قام بهـا الجـيش المغـولي والـبطش الـذي استخدمه، والشدة التي عامل بها تلك الجيوش التي تصدت له، مـذكراً مـا حـل بالمعانـدين مـن دمـار وخـراب ثـم يـدعوهم إلـى الاستسـلام والطاعة، فإن أبى الخصم ذلك ابتدأت المعركة علـى أشـدها لا تبقـي ولا تـذر، أمـا المماليـك فقـد كـانوا يخشـون لقـاء المغـول، ويتوجسـون شـرًّا مـن الاقتتـال معهـم، وقبـل عـين جـالوت وصـل رسـل هولاكـو وسلموا الإنذار إلى السلطان قطز زعيم البلاد، وفـي هذا الإنـذار من الوعد والوعيد وأهم ما يتضمنه الاستسلام، أو القتـال، أو الجـلاء عن الـبلاد، إلا أن القيـادة المملوكيـة ردت علـى هـذا الإنـذار بقتـل الرسـل وإعلان الحرب والاستعداد للمجابهة.

- مجلـس الحـرب: انعقـد مجلـس الحـرب فـي القـوات المسـلحة المملوكيـة مباشـرة بعـد الإنـذار، ويتـألف مـن السـلطان القائـد الأعلـى رئيسـاً، وعضـوية كـل مـن أتابـك العسـاكر وشـيخ الإسـلام وقضـاة الإسلام وأمراء المئين، أي قادة التشكيلات المقاتلة وأعيـان المشـايخ، ومـن مهمتـه النظـر فـي مشـروعية الحـرب، وتعبئـة الجنـود، وإعـلان النفير العام والتدريب، وتأمين الأسلحة والذخائر، وتحضير الأمـوال اللازمة وتعيين أمير التجريد العام والأمراء الـذين بصـحبته والـذين

يشكلون أركان الجيش وقادة التشكيلات، ودارت المناقشة التي كان يرأسها قطز، وكان كل عضو يعبر عن رأيه بكل صراحة ووضوح، وكانت المناقشة جادة ومسؤولة، وانفض المجلس على قرار تاريخي، وتحضير قتالي، واستعداد مع هذا اللقاء الحاسم.

ومن الإجراءات التي تم العمل بها، التحضير والإعداد للحرب، تحشيد الناس، والتوجيهات العملياتية، وتقسيم المحاور القتالية والاهتمام بالطليعة والتحييد والحرص على التفوق الكمي والكيفي والاعتناء والإخفاء والتمويه، واختيار مكان المعركة وزمانها، ومنطقة التمركز، ومخادعة العدو ونصب الكمائن والمطاردة، والتضليل الإستراتيجي والمحافظة على المقاتل والتقليل من الخسائر، والترتيب القتالي، والتشكيلات القتالية، والقتال الإستراتيجي بالجيوش المتلاقية والبريد الحربي ووسائط الاتصال، ومراعاة ميزان القوى، والتصميم للوصول للهدف، وتحقيق النصر السياسي الذي بدوره يقود إلى النصر العسكري، وغير ذلك من الخطوات المهمة التي ساهمت في تحقيق النصر.

6 - عبقرية التخطيط: اشتهر قادة المماليك بالقدرة على التخطيط والتنفيذ، ومعرفة قوانين الحرب والمبادئ التي تلعب دوراً هاماً لبلوغ النصر وإذا أمعنا النظر في معركة عين جالوت بصورة خاصة والمعارك التي تلت بصورة عامة لأدركنا تماماً أن قادة الجيش المملوكي كانوا يطبقون هذه المبادئ إلى أبعد الحدود ولا سيما الظاهر بيبرس الذي اشترك في هذه المعركة بالذات وفي المعارك التي شهدها بنفسه فيما بعد:

أ - الاقتصاد في القوى: لم يشأ قطز القائد الأعلى للجيش أن يشرك القوى جميعها في معركة عين جالوت، ولكنه كان يقود القوى الرئيسية للجيش، وبيبرس كان يقود الطليعة، وقد اشتبكت الطليعة - وهي جزء من الجيش - مع حامية غزة، كما اشتبكت القوة الرئيسية هذه مع الجيش المغولي، كما اشتبكت الميمنة مع ما يقابلها وكذلك الميسرة بأعداد تناسب القوة التي كانت تجاهها، وكان قطز حريصاً كل الحرص على أن يوزع قواته بصورة تتناسب مع القوات التي تقاتل ضده من الجيش المغولي، فقد أفرز قوة للمجنبات وأخرى للالتفاف القريب، وثالثة للبعيد، ورابعة للكمين، وخامسة لإعاقة وجذب قوى العدو، وأما بيبرس فقد أظهر براعة حربية في الاقتصاد في القوى في هذه المعركة عندما قاد الطليعة وقاتل وهو في طريقه إلى عين جالوت، ثم في الكمين الذي نصبه للعدو، ثم في المطاردة التي كان فيها هذا المبدأ واضحاً كل الوضوح، إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور وعلى كل اتجاه سلكته القوات المهزومة من الجيش المغولي.

ب - تجميع وحشد الجيوش على الاتجاهات الرئيسية: لما أراد الجيش المملوكي مقابلة الجيش المغولي في معركة عين جالوت جمع سيف الدين قطز الجيش المصري وأرسل إلى الجيش الشامي وحشد الإمكانات المتاحة، وأرسل في القرى والمدن والبادية يحث الميليشيات الشعبية والتفت هذه التشكيلات جميعاً في أمر المعركة وركزت الجهود الرئيسية نحو تجميع الجيش المملوكي الذي كان يتحرك باتجاه مرج بن عامر، وسار باتجاه الساحل بكتلة واحدة،

فوحدة الجيش وقتاله ككتلة واحدة متماسكة يساعد الجيش على تحقيق النصر وهو ما قد تم في عين جالوت.

جـ - الضغط على الأعداء: كان ذلك واضحاً في معركة عين جالوت عندما تصدى قادة الجيش لقادة الجيش المغولي وثبتوا ثبوت الرواسي أمامه، وأمام كل عنجهيتهم وإنذارهم، ولما تقابلا لم يصمد الجيش المغولي وخرقت جبهته، وتعقبه الجيش المملوكي، ولم ينفصل عنه أبداً حتى إذا أدركه وضع فيه السيف ولحقه إلى أطراف الشام والبادية، وبدأ الضغط واضحاً في عدة أمور، أهمها رفض الإنذار وقتل الرسل، والتفوق العددي الذي أوجس منه خيفة قائد الجيش المغولي وتردد كثيراً في طلب المدد ليكون هناك توازن بين الجيشين، وإجبار الجيش المغولي أن يفتح وأن يقاتل في مكان غير مناسب والسرعة في التحرك وحسم الأعمال القتالية، والصمود القوي أثناء القتال، فما كانت تفتح ثغرة حتى يبادر قطز إلى صدها، وأهم المواقف الصمودية هو الموقف الذي صمدت فيه الجبهة وبخاصة الميسرة الذي كاد أن يتداعى، والهجوم الصاعق الذي أدى إلى قائد الجيش المغولي وقتله، والمطاردة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس وضغط على الجيش المغولي الذي هرب وظن بهروبه النجاة، ولكنه كان ملاحقاً كيف اتجه ومطارداً أينما سار.

ح - تحقيق المفاجأة: أن المفاجأة قد تمت في هذه المعركة بالإخفاء والتمويه وبظهور أعداد قليلة من الجيش أمام القوات المغولية في الأراضي السهلية، إنما قوة الجيش الرئيسية فقد بقيت إلى الخلف وراء التلال والمساتر في مرج ابن عامر، وبصمود

الجيش المملوكي وقتاله الذي وضع كتبغا في حيرة وتشكيلة القتال الجديدة، وبنصب الكمائن، وبث الدوريات أمام تقدم القوات المغولية، وبالتطويق الكامل، وبالصمود أمام هجمات المغوليين المتتالية، بقيت المطاردة التي لم تنته إلا بقتل وتشريد المنهزمين وإبادتهم، وبالشدة والتنكيل والقسوة والحزم والبطش الذي لم يكن يتوقعه المغول أبداً، هذه المفاجأة مكنت الجيش المملوكي من تحقيق النصر.

س - وضوح الهدف: كان قطز القائد الأعلى للجيش واضح الهدف، إذ أعلن القضاء على الجيش المغولي وتدميره والانتصار عليه منذ أن أعلن الحرب وقتل الرسل، هذا هو الهدف النهائي الذي سبقه أهداف مرحلية كالتخطيط لهذا القتال، واستخدام الرجال والأسلحة التي تستطيع أن تقضي على العدو وجمع الأموال والاتفاق مع الصليبيين في عكا على الالتزام جانب الحياد.

ش - المناورة بالقوى والوسائط: وزع قائد الجيش المملوكي القوي الوسائط قبل بدء القتال، وأثناؤه ظهرت ضعف الميسرة، فنقل القوى والوسائط إليها وقواها، وهنا ظهرت عبقرية هذا القائد عندما نقل بعض المجموعات القتالية وسد الثغرة التي أحدثها الجيش المغولي، كما استطاع أن يقود الاحتياطي الموضوع تحت تصرفه ويناور به ليصل إلى قبالة هذا الخرق فيتصدى للقوات المغولية فيوقفها، كما قام بدور مهم عند نقل بعض القطعات من المجنبات لتقوم مع النسق الثاني بالهجوم المعاكس، وفعلاً كانت السرعة مذهلة في المناورة عندما تحرك هؤلاء الجنود وقاموا جميعاً بهجوم مضاد وقضى على الوحدات والقطعات المغولية التي تسربت خارقة دفاع

الجيش المملوكي، وقد ظهرت هذه البراعة أيضاً عندما تلقى قائد الجيش المملوكي معلومات عن قوة العدو وضعفه وأماكن تمركز قوته، فناور بقواته وأعاد تشكيلها، بما يتلاءم مع هذه المعلومات الجديدة.

ع - السرعة في الأعمال القتالية: تجاوب القائد الأعلى للجيش المملوكي بمجرد سماعه التهديد المغولي وأعلن التعبئة وعقد مجلس الحرب واتخذ إجراءات تحضيرية سريعة، فتحركت القوات مستجيبة لهذا النداء الجهادي لملاقاة العدو وسبقه إلى أرض المعركة المناسبة قبل أن يتحرك الجيش المغولي فيهاجم الديار المصرية، ويغزو المماليك في عقر دارهم، ومن الأهمية بمكان أن نذكر دور قائد الطليعة وسرعته، والتفويت على قائد: (الجيش المغولي بيدرا) كل مبادرة مما أتاح لبيبرس أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة قرب غزة من جراء السرعة التي قام بها رئيس أركان الجيش المملوكي.

ص - المخابرات العسكرية: بث قطز العيون واعتمد على الأهالي الذين كانوا يتجاوبون مع طلبات الجيش على حقد من المغول وتصرفاتهم، ولهذا فإن المعلومات كانت تصل تباعاً إلى هيئة أركان الجيش المملوكي، في حين أن الجيش المغولي لم يعتمد كثيراً على الاستطلاع، بل اعتمد على قواته وشدته في الحروب ولم يأبه لما يجري حوله، ولم يقم بإجراءات كشف العملاء والجواسيس الذين كانوا يدخلون معسكراته، ويأخذون منها الأخبار ويوصلونها إلى المماليك، وبالإضافة إلى ذلك فإن بيبرس عندما اصطدم بحامية غزة المغولية استطاع أن يتلقى أخباراً صحيحة عن قوة الجيش المغولي

وتحركاته وأسلحته وقادته، وكذلك فإن قادة الجيش المملوكي أرسلوا حراسات متقدمة عبارة عن مخافر، تصنت وإنذار من مهامها نقل المعلومات عن الانساق وعن تحركات الجيش المغولي، وكان من مصادر الاستخبارات المملوكية، عمال البريد الذين كانوا يكلفون بمهام مخابراتية بالإضافة إلى نقل البريد الحربي، إن هذا الجهاز كان يتحرى أحوال العدو وإمكاناته ومعرفة البؤر والجهات الخطرة من الداخل والتحري من الأعمال الهدامة، أو الأشخاص الذين يقومون بدور العمالة والتجسس على القوات الصديقة وكان يطلق على رئيس هذا الجهاز: (صاحب الخبر والتحري) الذي كان له خبرة واختصاص، إن للاستخبارات دوراً كبيراً في الحروب الماضية والحاضرة في إحراز النصر، ولقد كانت الأسباب الصحيحة التي تلقاها قادة الجيش المملوكي وبنوا قرارهم على هذه معلومات صحيحة فكان القرار سليماً والنصر محققاً.

7 - بعد نظر سيف الدين قطز وسياسته الحكيمة: شعر قطز قبل أن يستلم السلطنة بالخطر على دولة المماليك وبخاصة من قبل المغول الذين دخلوا البلاد وأكثروا فيها القتل والعذاب، ولابد له إزاء هذا الخطر أن يتخذ عدة إجراءات سياسية تضمن له النصر على أعدائه الذين لم يلبثوا إلا أياماً معدودات أو شهور حتى يتوجه الجيش المغولي إلى أراضي الشام ومصر، وبدأ التفكك الداخلي واضحاً عند استلام المماليك الأتراك، إذ حكمت امرأة ولم يوافق الخليفة في بغداد على سلطنتها، وتزوجت فيما بعد من عز الدين أيبك لتحصل على الاعتراف الخليفتي، واحتدم الصراع بينها وبين زوجها الذي أدى

إلى قتلهما، واستلم الحكم علي بن أيبك وهو غير قادر على إدارة الحكم لصغر سنه، ولما كان قطز هو نائب السلطان والوصي على الصبي وهو يعلم أنه قادم على معركة فاصلة، أراد لكي تتاح الحرية السياسية والتصرف بالأمور العسكرية والسياسية، أن يتخلص من السلطان الصغير، فاستلم الحكم وهذا إجراء سياسي داخلي، اتخذه هذا السلطان بعد أن استلم البلاد وهو مهم بالنسبة للمعركة القادمة، فقد هرب بعض أمراء المماليك البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك لما رأو أنهم لا يستطيعون أن يؤثروا على المسيرة التي انتهجها قطز لإصلاح البلاد وتحضيرها، هربوا لكي يجدوا الحليف ضد هذا القائد، وحاولوا القتال وزحفوا نحو مصر في سنة 655هـ /1257م، لكن قطز تصدى لهذه المؤامرة وتغلب على الأمراء وأوقع فيهم القتل وردهم على أعقابهم، ولم يمكنهم أبداً من العبث بأمن الدولة وقدرتها وتصديها للعدو المرتقب، المغولي، وظل صامداً يتابع توجيه السياسة وإصلاح البلاد وتخليصها من الفتن والاضطرابات وتوحيد جبهتها الداخلية، حتى إذا اقتربت معركة عين جالوت وازداد الخطر رأى أنه من المناسب إعادة الصف بينه وبين الأمراء الهاربين الذين حاربوه لتجتمع الكلمة وليستفيد من خبرتهم في الحروب وفي قيادة الجيوش، وهكذا كان الإجماع الداخلي على التصدي للعدو المغولي وتوج هذا الإجماع بقرار مجلس الحرب وبحضور جميع الساسة في البلاد، وتحققت الوحدة الداخلية، وبعد ذلك اهتم بالوضع السياسي الخارجي وعمل على تحييد الصليبيين وعقد معاقدة صلح معهم واستفاد من المرور بأراضيهم، ولم يقاتل

علـى جبهتـين، وقابـل المغـول فـي عـين جـالوت وانتصـر علـيهم، واستمرت الأعمال السياسية والإدارية بعد المعركة، فقد أرسل قطز رسلاً إلى بعض الدول يخبرهم فيها عن انتصاره، كما أعلن ذلك على الشعب في مصر والشام وبذلك ثبت دعائم الأمن والاستقرار السياسي، كما نظم البلاد من الناحية الإدارية، وعين النواب وبسط نفوذه على كل البلاد التي كان يحتلها المغول في الشام. وهذا دليل على بعد نظره وحنكته السياسية.

8 - توفر صفات الطائفة المنصورة: لم يظهر سيف الدين قطز من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في معركتي عين جالوت تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة.

أ - أنها على الحق: وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما استحقت الذكر والنصح وتمسكها بالحق، حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي إستمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

- الاستقامة في الاعتقاد وملازمة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه مجانبة البدع وأهلها فهم أصحاب السنة.

- الاستقامة في الهدي والسلوك الظاهر والباطن والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة،

- الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال والأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

ب - أنها قائمة بأمر الله: وهذه الخصيصة بارزة جدًّا في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، وقد قامت دولة سيف الدين قطز بأمر الله، من الإعداد، والتخطيط، والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

جـ - أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله: والطائفة المنصورة وجاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنهم: (يقاتلون على الحق)، أو يقاتلون على أمر الله، وكان سيف الدين قطز وجيشه قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله وقتال أعداء الله من الكفار وغيرهم، وتحقق نصر الله لهم في معركة عين جالوت.

د - أنها صابرة: فقد خص الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت كيف تسلح سيف الدين قطز وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم:«**لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالون من خالفهم**»، وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين، وعوائق المخزلين، ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين، وهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة، قد انطبقت على جيش سيف الدين قطز والمماليك الذين حققوا النصر في معركة عين جالوت، إن الانتساب إلى الطائفة المنصورة ليس شعاراً ولا هو دعوة وإنما هو تحقيق وعمل وتحقيق للصفات الشرعية لهم، وعمل

بالواجبات الشرعية عليهم، فمن حقق الصفات وقام بالواجبات كان من الطائفة المنصورة ولو كان وحده، قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾} [الصف: ٢ - ٤].

9 - سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم: قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد - ربما رأى الكثيرون في ذلك الوقت - استحالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدوي التحرري والذي حقق إبنه نور الدين جزئه الأول، وحقق صلاح الدين قسماً مهما من جزئه الثاني، ولذلك نرى انتصار صلاح الدين في حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرري، فلولا الله ثم متابعة نور الدين لخطا والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر، الذي تم بفضل الله ثم جهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون، أو طائفة، وإنما جمعتهم الأخوة في الله والتي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، قال الشاعر:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً ::: لشام فيه ووادي النيل سيان
وإنما ذكر إسم الله في بلد عددت ::: أرجاءه من لب أوطاني

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت، وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في

معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس، وأصبح المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الغزاة من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين، ولكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم، وظل المسلم محباً لأخيه المسلم، ولسان حال كل منهم يقول:

أبا سليمان قلبي لا يطاوعني ::: على تجاهل أحبابي وإخواني
إذا اشتكى مسلم في الهند أرقنيو ::: إن بكى مسلم في الصين أبكاني
ومصر ريحانتي والشام نرجستي ::: وفي الجزيرة تاريخي وعنواني
أرى بخارى بلادى وهي نائية ::: وأستريح إلى ذكرى خراسان
فأينما ذكر اسم الله في بلد ::: عددت ذاك الحمى من صلب أوطان
شريعة الله لمت شملنا وبنت ::: لنا معالم إحسان وإيمان

إن سلاطين المماليك ساروا على نهج عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأخلصوا النية لله وحده وجددوا دعوة الجهاد معاً، فهذا سيف الدين قطز بأقواله وأفعاله يبرهن على ذلك، فبعد معركة عين جالوت وقف خطيباً وقال: لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم، إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله إنه ذو القوة المتين، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه، وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

والواقع أننا إذا تتبعنا أعمال سلاطين دولة المماليك في هذا

المجال ندرك أن الدافع الأساسي لهم كان الجهاد في سبيل الله للذود عن ممتلكات المسلمين، ولما كان ذلك لا يتأتى إلا بتوحيد كلمة المسلمين، فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك، فبدأوا جهودهم بتجميع الفلول الإسلامية التي فرت من وجه العدوان المغولي وحشدها داخل الأراضي المصرية، وخرج السلطان قطز على رأس تلك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها وأشعل الحماسة في صفوفها إلى بلاد الشام وتمكن من كسر المغول في عين جالوت التي تعتبر بحق بداية النهاية للوجود المغولي في بلاد الشام، ترتب عليها إعادة الوحدة مرة أخرى بين مصر والشام، ليمهد الطريق لمن أتى بعده من السلاطين لمواصلة الجهاد ضد المغول والصليبيين، ذلك الجهاد الذي كان يعد في نظرهم فرض عين على كل مسلم لا يقل عن كونه ركناً من أركان الإسلام، وخلاصة القول أن سلاطين المماليك استفادوا من الجهود التراكمية التي سبقتهم وبنوا عليها وجددوا الدعوة للجهاد وتحرير أراضي المسلمين من المشاريع الغازية المغولية والصليبية.

10 - الاستعانة بالعلماء واستشارتهم:كانت من القيم الراسخة في دولة المماليك، قيمة العلوم الشرعية وعلماء الدين، فطول أيام الأيوبيين في مصر، ومنذ أن رسخ صلاح الدين المذهب السني في مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية، وقيمة العلماء مرتفعة في أعين الناس والحكام على السواء، حتى أنه لما صعدت شجرة الدر إلى كرسي الحكم، وقام العلماء بإنكار ذلك وكتابة الرسائل المعادية للملكة وتحفيز الناس على رفض هذا الأمر، ما استطاعت شجرة

الدر ولا أحد من أعوانها أن يوقفوا هذه الحركة الجريئة من العلماء، وكان من طبيعة العلماء في ذلك العصر النزول في ساحات القتال وتحريض الناس على الجهاد، كما حدث في الحملة الصليبية السابعة عام 648هـ، وكان من أشهر هؤلاء العلماء العز بن عبد السلام، وكان مقرباً ومحبباً لسيف الدين قطز، وأخذ بترشيده وفتاويه ونفذ ذلك وخصوصاً تلك الفتوى الشهيرة المتعلقة بوجود المال اللازم للإعداد ما يلزم الحرب، فعقد سيف الدين قطز مجلساً للمشورة في قلعة الجبل وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان السؤال حول أموال العامة ونفقتها في العساكر، فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الحوائص الذهبية ونحوها من الزينة وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم، وانقضى الاجتماع.

ويفهم مما تقدم أن المسلمين لم يكونوا يوافقون على فعل شيء أو دفع ضريبة إلا إذا أقرها علماء الإسلام، وأصدروا الفتاوى بجوازها، وهذا يعني الخضوع للشريعة، ومن جهة أخرى فإن السلطان ملتزم بما صدر عن إفتاء العلماء، بل راح الأمراء ورجال الدولة يقدمون ما يملكون وأحضروا ما في بيوتهم من حلي نسائهم وأموالهم، وأقسموا لم يتركوا شيئاً، وذلك طواعية دون إرغام أو تهديد وإنما استجابة لرأي الشريعة، ولما كانت هذه الأموال لا تقوم

بالمطالب استعان السلطان قطز بالرعية بعد أن تساووا جميعاً، وفرض إجراءات من أجل توفير المال اللازم للحرب، ومن ثم كانت الأموال التي أنفقها المسلمون في حرب التتار في موقعة عين جالوت أموالاً طيبة ساهمت في تحقيق الانتصار، وكان السلطان سيف الدين قطز يحترم ويقدر وينفذ فتاوى العلماء وكان يستعين بهم ويطلب مشورتهم في النوازل وكان العلماء والفقهاء يقومون بدورهم الكبير في توعية الشعب بالأخطار المحيطة به ويحرضون الناس على طلب الشهادة، والاستجابة لنداء الجهاد، فقد حدث تكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار، فكان ذلك الانسجام والتعاون المستمر من أسباب النصر في عين جالوت، فبين العلماء أحكام الله تعالى في الجهاد، كيف يتعامل مع أموال العامة، حتى تصبح حلالاً لا ظلم ولا عدوان فيها، مع الاستعداد النفسي لدى السلطان قطز في تنفيذ حكم الله وأثر ذلك على شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب تحت قيادة قطز.

11 - الزهد في الدنيا: لقد رأينا، محمد بن خوارزم، وجلال الدين ابن خوارزم والناصر لدين الله، والخليفة العباسي المستعصم بالله، وبدر الدين لؤلؤ، والناصر الأيوبي، كيف كانت نهايتهم أما قطز وشعبه، فقد فطنوا لهذا المرض، وزهدوا في الدنيا وكان سيف الدين قطز قدوة ومثلاً حياً بين الناس، فقد باع ما يمتلكه ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار، ولم يطمع في كرسي الحكم، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبي على قلة شأنه، إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام، ولم يطمع في استقرار عائلي أو اجتماعي

أو أمن أو أمان، فكرس حياته للجهاد والقتال، على صعوبته وخطورته، ولم يطمع في أن يمتد به العمر، فخرج على رأس الجيوش بنفسه ليحارب التتار في حرب مهلكة، ولا شك أنه يعلم أنه سيكون أول المطلوبين للقتل، ولا شك أنه يدرك كذلك أنه إذا لم يخرج بنفسه، وأخرج من ينوب عنه فإن أحداً لن يلومه؛ لأنه الملك الذي يجب أن يحافظ على نفسه لأجل مصلحة الأمة لكنه اشتاق بصدق إلى الجهاد وتمنى الموت بين صليل السيوف وأسنة الرماح فزهد في هذه الدنيا الفانية وكانت حياته تطبيقًا عمليًّا كاملاً لكلماته، فكانت تلك الكلمات قد سرت روحها في أركان حربه وجنوده وشعبه وتحركوا لأحد الحسنين فكان النصر الكبير في معركة عين جالوت. وأسأل الله أن ينصر الإسلام والمسلمين.

إن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالنجاح السياسي، ويؤثر في الجانب الاقتصادي، ويتأثر به وهكذا وما ذكرنا من الأسباب لا يمكننا أن نقول هذه فقط لا مزيد عليها فقد يأتي غيرنا ويزيد عليها، ومطلوب منا التفكر والتأمل والتدبر لنستخرج الدروس والعبر والسنن والقوانين في قيام الدول وسقوطها، وانتصار الشعوب وهزيمتها، ومعرفة صفات قيادة التمكين، وفقهاء النهوض وعوامل صناعة التاريخ لنستخدمها لنصرة الله عز وجل، ودينه القويم قال تعالى:{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾} [يوسف: ١١١][1].

---

(١) على محمد الصلابي، قطز، ص ١٥٠ - ١٥٤، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٣١٢ - ٣٢٩.

دروس من عين جالوت:

سقط الجيش التتري في مستنقع أعماله..

لقد أفسد جيش التتار في الأرض إفسادًا عظيمًا، والله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين.. وبرغم أن جيش التتار جيش مُفسد إلا أنه سُلط على المسلمين فترة من الزمان (أربعين سنة تقريباً)، وهُزم أمامهم المسلمون في مئات المواقع الحربية.. ثم دارت الأيام وتمت المعركة الهائلة عين جالوت، وانتصر المسلمون انتصاراً مبهراً..

{وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠].

وهناك سؤالان قد يخطران على بال المحلل للأحداث، والمتدبر في مجريات الأمور..

وللسؤالين إجابة واحدة..

- السؤال الأول هو: كيف سُلّط جيش التتار الفاسد المفسد على أمة الإسلام وهي خير منه مهما خالفت المنهج، ومهما قصّرت في واجباتها؟!

- السؤال الثاني هو: جيش التتار الذي انتصر على المسلمين في كل المواقع السابقة هو نفس جيش التتار الذي هُزم في عين جالوت.. لماذا انتصر في السابق؟ وما الذي حدث حتى يهلك الجيش بكامله بهذه الصورة العجيبة؟!

والإجابة على السؤالين نجدها في جزء من خطاب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الصحابي العظيم الملهم، وكان قد أرسل خطاباً إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي كان يقود

الجيوش الإسلامية المتجهة لحرب الفرس في موقعة القادسية..

يقول الصحابي الحكيم عمر رضي الله عنه يخاطب سعداً رضي الله عنه:

" فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.. فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدّونا شر منا، فلن يُسلَّط علينا، فرب قوم سُلِّط عليهم مَن هو شر منهم، كما سُلّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً.. "

هذا جزء من رسالة الفاروق عمر رضي الله عنه، والتي تُعد من أنفس ما قال، ومن أعظم الرسائل على وجه الأرض.. والرسالة طويلة.. ودراستها في غاية الأهمية لبناء الأمة..

في هذا الجزء الذي ذكرناه يتضح لنا أن الله عز وجل أحياناً يسلط الكفار والمفسدين على المسلمين إذا عمل المسلمون بمعاصي الله، فإذا التزم المسلمون بتقوى الله عز وجل وساروا على منهج

ربهم ومنهج رسوله ﷺ انتصروا على الجيوش التي طالما انتصرت عليهم..

لم ينتصروا عليها لقوة جسد أو لكثرة عَدد أو لكفاءة عُدد، وإنما ينتصرون لارتباطهم بربهم، وبُعد أعدائهم عنه سبحانه..

من هنا نفهم لماذا سُلّط التتار أربعين سنة على المسلمين في الأرض..

ومن هنا نفهم لماذا انتصر المسلمون في عين جالوت على الجيش الذي دوّخ بلاد المسلمين عشرات الأعوام..

ومن هنا أيضاً نفهم أحداثاً كثيرة في التاريخ، وأحداثاً كثيرة في الواقع..

فإذا رأيتم يا إخواني ضعفاً وخوراً وجبناً واستكانة في جيوش المسلمين..

وإذا رأيتم تبعية لغرب أحياناً، ولشرق أحياناً أخرى..

وإذا رأيتم هواناً في الرأي، وسقوطاً للهيبة، وذلة في كل الأحوال..

وإذا رأيتم موالاة لمن سفك دماء المسلمين، وتحالفاً مع من دمّر ديار المسلمين، وصداقة مع من شرّد ملايين المسلمين، واستعانةً بمن خرّب اقتصاد المسلمين..

إذا رأيتم أن الأمة العظيمة الكبيرة الكثيرة قد أصبحت لا تساوي شيئاً في عيون أعدائها.. فيتطاول عليها أخس أهل الأرض، من

إخوان القردة والخنازير، ومن عبّاد البقر، ومن عبّاد البشر، ومن الملحدين..

إذا رأيتم كل ذلك.. فاعلموا أن الأمة تعمل بمعاصي الله، وأن الأمة لا تتبع شرع الله.. وأن الأمة سقطت من عين الله.. وأن الله عز وجل - بنفسه - هو الذي يُسلّط عليها الفاسدين من اليهود والصليبيين والهندوس والشيوعيين وغيرهم..

أهذا شيء يدعو إلى الإحباط واليأس؟!

أبداً.. إنه يدعو إلى التفكر والتدبر والاستفادة من التاريخ والعمل..

وعين جالوت بين أيدينا.. وإلا فلماذا ندرس هذه الأحداث التاريخية التي مرّ عليها قرون وقرون؟!

العودة إلى الله عز وجل ليست صعبة!

مهما غرقت الأمة في معاصيها، ومهما ابتعدت عن كتاب ربها، ومهما ضلت طريقها، فإنها تعود إلى الله عز وجل في لحظة واحدة..

هذا إذا أرادت أن تعود..

هذا إذا أرادت أن تعيش..

بل هذا إذا أرادت أن تسود وتقود وترفع رأسها وتُعزّ شأنها..

مهما ابتعدنا عن الله يا إخواني فإنه يقبلنا إذا عدنا إليه.. بل يفرح بنا - سبحانه وتعالى - إذا عدنا إليه..

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ».

فقط علينا أن نعود إلى الله.. وسنرى عين جالوت.. وألف عين جالوت..

هذا وحده إذن هو التفسير الشرعي للانتصار والهزيمة في الإسلام.. ينتصر المسلمون بارتباطهم بربهم، ويُهزمون ببُعدهم عن الشرع.. والله عز وجل لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.. [1].

وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزي المعاصر ستيفن رنسيمان في كتابه الحروب الصليبية يقول: (تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ.. ومن المحقق لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسر تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في عين جالوت من قرار. فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له. فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم، فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم. ولو انتصر كتبغا النصراني، لازداد عطف المغول على النصارى ولأصبح

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص٣٠٤ - ٣٠٦.

للنصارى السلطة لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام. على أنه من العبث أن نفكر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ، فليس للمؤرخ إلا أن يروي ما حدث فعلاً إذ أن معركة عين جالوت جعلت سلطة المماليك بمصر القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين، إلى أن قامت الدولة العثمانية.. فما حدث من ازدياد قوة العنصر الإسلامي وإضعاف العنصر النصراني لم يلبث أن أغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام. وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية؛ لأن المسلمين المظفرين، حسبما تنبأ مقدم طائفة فرسان التيوتون، أضحوا حريصين على أن يتخلصوا نهائياً من أعداء الدين).

ولم يشأ رنسيمان أن يشير إلى أن انتماء مغول غربي آسيا إلى الإسلام لم يكن بسبب وجودهم في قلب أكثرية إسلامية فحسب، بل وهذا هو الأهم، لما يمتلكه الإسلام نفسه من قدرة ذاتية على الجذب والتأثير، وفاعلية دائمة في التغلب على العناصر المناوئة الغريبة واحتوائها.

العبر والعظات من عين جالوت

أولاً: إن العبرة في الجيوش ليست بالكم لكن بالكيف، وفي مدى التربية الإيمانية لهذا الجيش، وإقباله على الله تعالى، واستعداده للتضحية والفداء.

ثانياً: إن للعلماء أثرًا عظيمًا في تثبيت المجاهدين والشعوب في أوقات الأزمات، بل في تثبيت الحكام، وإن من السعادة والإقبال أن

يتفق الحكام والعلماء على ما يرضي الله تعالى، وقد رأينا كيف كان للعز بن عبد السلام الأثر العظيم في إنجاح تلك المعركة.

ثالثاً: إن هذه الأمة لا يمكن أن تُستأصل، فقد سأل النبي ﷺ ربه - عز وجل - ألا يسلط عليهم عدواً من غيرهم يستبيح بيضتهم فاستجاب الله تعالى له، ولقد رأينا كيف انتفضت هذه الأمة على الصليبيين وطردوهم من الشام، وكيف انتصروا على التتار، وسينتصرون في هذا الزمان على اليهود وأعوانهم إن شاء الله تعالى.

رابعاً: إن هذا الدين دين عظيم جليل يجذب إليه القلوب والعقول، فهؤلاء التتار الذين كانوا أعداء وقتلوا من المسلمين الملايين، ثم هزمهم المسلمون، حصل لهم تحول تاريخي مدهش جدًا ولافت للأنظار ألا وهو إسلامهم بعد هزيمتهم، فقد دخلت القبيلة الذهبية في دين الله تعالى وتبعها من تبعها من التتار، وصاروا من جند الله تعالى، وهذا لنعلم أن هذا الدين العظيم لم ينتشر بالسيف كما يدعي المبغضون والشانئون لهذا الدين، وكما يتخرص المستشرقون والكنسيون، إنما هو دين الله تعالى يلج القلوب والعقول بدون استئذان، ويضيء الدرب للملايين بعد طول ظلم وظلام.

خامساً: إن أعداء الإسلام لا بد أن يواجهوا بزعامة قوية؛ فقد كان الأيوبيون يحكمون مصر، وآل أمر مصر إلى طفل يدعى علي بن أيبك، فرأى المماليك أنه لا يمكن مواجهة التتار وعلى رأس الهرم في مصر حاكم ضعيف غر فأزاحوه وأنهوا دولة الأيوبيين، وأقاموا المظفر قطز سلطاناً على مصر، وابتدأت دولة المماليك القوية التي هزمت التتار، وأخرجت الصليبيين من آخر معاقلهم في

عكا على يد الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ.

وفي هذه الأيام أعداء الإسلام يتداعون على هذه الأمة، ولا نجاة لنا إلا بطاعة الله تعالى ثم بحكومات قوية مخلصة أمينة إسلامية تقف في وجه أعداء الإسلام بصلابة وقوة وإيمان وثبات.

آن الأوان لكي نتعلم من التاريخ:

لقد شهد تاريخ الإسلام سلسلة متطاولة من المعارك الفاصلة، منذ وقعة بدر التي فرق الله بها بين الحق والباطل، ومكّن لدعوته الناشئة في الأرض.. وإلى أن يشاء الله.. ولكن يبقى لمعركة عين جالوت ثقلها وأهميتها وخصوصيتها.. ذلك أنها جاءت وظلام الإعصار الوثني المتحالف مع الصليبية يكاد يطبق على نور التوحيد ويطمس على ألقه.. فردّت على القوة بالقوة، وقارعت سيف الشيطان بسيف الله، وعلمت الناس عموماً والناس خاصة، بالانتصار الباهر الذي حققته، كيف يكون الإيمان الجاد المعزز بالرؤية الواعية والتخطيط المدروس، قديراً على تحقيق المعجزات..

واليوم وقوى الضلال، المادية والصهيونية والاستعمارية الجديدة، تتجمع مرة أخرى في محاولة شرسة للإطباق على الإسلام عقيدة وشريعة وأمة وحضارة ودولاً..

فإن لم نتعلم من (عين جالوت) سوى حقيقة أنه بالإيمان والثقة والعزم والتصميم، يمكن أن نجابه المحنة ونتفوق عليها.. فكفى بذلك من كسب تمنحنا إياه مطالعاتنا الجادة في التاريخ.. وإنه قد آن الأوان لكي نتعلم من التاريخ..

وعين جالوت هل أبصرت ساحتها ::: وقطز يغرسها غارا ونسرينا
لكننا في زمان القحط نحصده ::: لما نسيناه أشواكا وغسلينا

مقتل المظفر قطز:

بالرغم من أن الخطر المغولي قد وحد صفوف المسلمين لمواجهته حينا من الدهر، إلا أن زوال هذا الخطر قد أعاد الخلافات إلى صفوف المسلمين إلى سابق عهدها، وعلى ما يبدو أن المماليك البحرية لم يغفروا للمظفر قطز قتله أستاذهم أقطاي فبدؤوا - بعد زوال خطر المغول - يفكرون جديًا في الأخذ بالثأر من المظفر قطز يقول ابن خلدون: " إن البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاى الجامدار يتحينون لأخذ ثاره وكان قطز هو الذي تولى قتله، فكان مستريبا بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله نأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ بيبرس البندقدارى وأنز الأصبهاني وبليان الرشيدى وبكتون الجوكندارى وبندوغار التركي فلما انهزم التتر من الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاى... "[1].

وكان بيبرس البندقداري قد أبدي شجاعة نادرة في قتال التتار في عين جالوت، لاتقل عن شجاعة السلطان المظفر قطز نفسه،وكان

(١) تاريخ ابن خلدون، ٥ / ٣٨٠.

يطمع في نيابة حلب، وطلبها بالفعل من المظفر قطز، الذي وعده بها، ولكنه عاد وحنث بوعده وضن عليه بها يقول الذهبي: " ودخل السلطان الملك المظفّر القلعة مؤيدًا منصورًا، وأحبّه الخلْق غاية المحبَّة. وعبر قبله البُنْدُقْداري على دمشق، وسار وراء التّتر إلى بلاد حلب، وطردهم عن البلاد. ووعده السّلطان بحلب، ثمّ رجع عن ذلك فتأثّر رُكْن الدّين البُنْدُقْداريّ من ذلك. وكان مبدأ الوحشة [١].

هذا الأمر جعل بيبرس يتنكر له، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه، ثم وافته الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية.

وبالرغم من أن قطز قد شعر بما يحاك ضده إلا أن سيف القدر كان أسرع من أن يأخذ حذره، يقول الذهبي: ونقل الصّاحب عزّ الدّين بن شدّاد أنّ المظفَّر لمّا ملك دمشق عَزَم على التَّوجُّه إلى حلب لينظّف آثار التّتار من البلاد، فوشى إليه واشٍ أنّ رُكْن الدّين البندُقْداري قد تنكّر له وتغيّر عليه: وأنّه عاملٌ عليك. فصرف وجهه عن قصْده، وعَزَم على التَّوجُّه إلى مصر وقد أضمر الشّرّ للبُنْدُقْداريّ. وأسرَّ ذلك إلى بعض خواصه، فاطَّلع على ذلك البندُقْداري... ثم ساروا والحُقُود ظاهرة في العيون والخُدود، وكلّ منهما متحِّرس من الآخر. إلى أن أجمع ركن الدّين البُنْدُقْداريّ على قتل المظفَّر.. [٢].

قال أبو المحاسن:

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١/٤٧٠.
(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١/٤٧١ - ٤٧٣.

ثم إن الملك المظفر قطز رتب أمور الشام واستناب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير. ثم خرج المظفر من دمشق عائدا إلى مصر إلى أن وصل إلى القصير، وبقي بينه وبين الصالحية مرحلة واحدة، ورحلت العساكر إلى جهة الصالحية وضرب الدهليز السلطاني بها وبقي المظفر مع بعض خواصه وأمرائه، وكان جماعة قد اتفقوا مع الأمير بيبرس البندقداري على قتل الملك المظفر: منهم الأمير سيف الدين أنص من مماليك نجم الدين الرومي الصالحي، وعلم الدين سنجر، وسيف الدين بلبان، الهاروني وغيرهم، كل ذلك لكمين كان في نفس بيبرس، لأجل نيابة حلب. واتفق عند القصير بعد توجه العساكر إلى الصالحية أن ثارت أرنب فساق الملك المظفر قطز عليها، وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبق معه غيرهم، تقدم إليه الأمير بيبرس البندقداري وشفع عنده شفاعة في إنسان فأجابه، فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها، وحمل أنص عليه، وقد أشغل بيبرس يده، وضربه بالسيف، ثم حمل الباقون عليه ورموه عن فرسه، ورشقوه بالنشاب فقتلوه، ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، فنزلوا ودخلوا والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا، فقال: من قتله منكم، فقال بيبرس: أنا، فقال: يا خوند، اجلس على مرتبة السلطان.

أما قطز فإنه دفن في موضع قتله - رحمه الله تعالى - وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخه - رحمه الله تعالى - بعد ما سماه ونعته قال: وكان

المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه [١].

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير، وتم تتويج قاتله خلفا له في مكان الاغتيال، وعلى ما يبدو أن سيف الدين قطز قد كانت له مهمة محددة في التاريخ، فما أن أنجزها حتى تواري عن الأعين والأحداث، بعد أن أتم دوره على أكمل وجه، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وتقبله الله في الشهداء.

* * *

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢ / ص ٢٧٣.

معركة الأبلستين

[١٢٧٧ م / ٦٧٥ هـ]

معركة الأبـلستين

لـم تكـن معركـة عـين جـالوت هـي أولـي معـارك المغـول مـع المسلمين ولـن تكـن آخرهـا، فقـد شـهد التـاريخ الإسـلامي بعـد عـين جالوت معارك فاصلة بين المغول والعـالم الإسـلامي،فبعد مقتل قطز وتـولي الظـاهر بيبـرس مقاليد الأمورالسياسـية والعسكرية فـي مصـر والشام، دخل في صراع محموم مـع المغول، ولـم يعد الأمر قاصـرا على المغول وحدهم، بل دخل الصليبيون على خط الصراع محـاولين استقطاب المغول إلى جانبهم في الصراع مع العالم الإسلامي.

والحقيقة أنه لم تكن قوة المغول العسكرية فقط هي التـي يخشـاها الظاهر بيبرس، بل إن القوة العسكرية تلاشـي تأثيرها بعد هزيمتهم فـي عـين جـالوت، ولكـن الخطـر الأكبـر الـذي كـان يتهـدد العـالم الإسـلامي ولـيس المماليـك وحـدهم هـو إمكانيـة حـدوث تحـالف بـين المغول والصليبيين، ولعل الباعث على ذلك تلك المحاولات المتكررة مـن جانـب كـلا الطـرفين لإحـداث هـذا التحـالف ضـد المسـلمين، فقـد أرسل أبغا بن هولاكـو (١٢٦٥ ـ ١٢٨٢م) سفراء إلـى البابـا كليمنـت الرابع سنة ١٢٦٧ م، وإلـي الملك جيمس الأول ملك أراجـون بعدها بسنتين، وإلي مجمع ليون سنة ١٢٧٤م يقترح القيام بحملات مشتركة ضـد دولـة المماليك عدوهم المشـترك. كمـا أن البابـا نيكـولاس الرابـع

التقط الفكرة وخاطب المغول في شأن التحالف، بيد أن الأمر لم يتعد حدود تبادل السفارات والمفاوضات [١].

ولمجابهة هذا الخطر الماثل، تحالف بيبرس مع مغول القفجاق

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٨. بعد أن جرَّبت أوروبا الحروب العسكرية ضد المسلمين، وبعد أن أدركت إخفاقها في تحقيق أهدافها الماكرة إذ لقيت من المسلمين جهاداً ومقاومة واستبسالاً، فكَّرت أوروبا في استخدام طرق أخرى ووسائل جديدة، لكي تحقق أهدافها، وكان أمام البابا سلسلتين الخامس أحد طريقين:.
الأولى: الأخذ بخطة المبشر الصليبي الأسباني رامون لول، التي تتلخص في غزو المسلمين تبشيرياً فكرياً عن طريق وسائل العلم والتعليم، وإذا ما فشلت أوروبا في ذلك تعود لأسلوب القوة المادية في تنصير المسلمين.
الثانية: تنصير المغول الوثنيين واستخدامهم من جديد في حروب مدمرة ضد المسلمين.
اعتمد البابا الطريقة الثانية لأنها في نظره أفضل وأسرع في تحقيق الأهداف الصليبية خاصة وأن صلات مودة كانت موجودة مع المغول أثناء زحفهم على بلاد الشرق الإسلامي، ولكون المغول وثنيين يمكن أن يستجيبوا للتنصير أسرع من المسلمين.
... لكن جهود الكنيسة في تنصير المغول لم تفلح إذ أبطل الله تعالى كيدهم، حيث أراد الله بالمغول خيراً، لقد دخل معظمهم الإسلام بإرادتهم، طواعية واختياراً.
... بعد فشل الغرب في الأخذ بالطريقة الثانية عاود الأخذ بخطة المبشر رامون لول التي عرضها على البابوية سنة ١٢٢٩م، ومما شجعهم على ذلك صلات المودة التي كانت سائدة بينهم وبين نصارى الشام، وهؤلاء النصارى العرب وسيلة جيدة يمكن الاعتماد عليها في تنصير المسلمين. في الماضي القريب.
لقد أدرك الأوروبيون وساد الاعتقاد بينهم أنّ الصراع العسكري مع الإسلام لا يجدي نفعاً، ولا يكفي وحده لإسقاطه ودحره، وأنّه لابدّ من التفكير بعمق في تنظيم برنامج عمل كامل يقوم بدراسة وفهم مضامين الفكر الإسلامي ومعرفة مواضع القوة والضعف فيه كمرحلة أولى، ثم محاولة نقضه وإحداث الشرخ في جدرانه، لغرض اختراقه وتحطيمه من الداخل، وبالتالي ضرب إرادة المقاومة عند هذا الخصم العنيد ثم استئصاله نهائياً. ذلك لأنّ قوة المسلمين إنما هي بالإسلام، فهو سبب قوة المسلمين وصمودهم في وجه جحافل الصليبية القادمة من أوروبا. ومن هنا دخلت المواجهة بين الإسلام والغرب المسيحي مرحلة جديدة تعتمد الأسلوب الثقافي الفكري سلاحاً لها لضرب - الإسلام - الخطر الدائم على وجوده. الدكتور صالح الرقب، واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص ١٢.

وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام وصار حرباً على بني جنسه مغول فارس. ويظهر ذلك بوضوح في الرسالة التي بعث بها إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٣ م يقول فيها: " فليعلم السلطان أنني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام "[١].

وقد رد بيبرس على رسالة بركة خان بسفارة تحمل خطابات الود والهدايا الثمينة، وقد نقل من كانوا في سفارة بيبرس إلى بركة خان أنهم شاهدوا في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً لكل أمير، أو أميرة، في بلاط بركة خان، وأنهم شاهدوا الأطفال يحفظون القرآن ببلاد القفجاق[٢].

وكان هذا التحالف مع بركة خان أحد الخطوات الهامة التي اتخذها بيبرس لتقوية حدود دولته ضد المد المغولي الفارسي، وشملت هذه الخطوات تقوية حدود دولته على طول خط المواجهة مع المغول وبالقرب من نهر الفرات، كما عمل على إفساد الطرق والوديان المؤدية إلى الشام والتي يمكن أن يسلكها المغول في هجماتهم على الشام، وحتى لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يقتاتون به أو ما يصلح كعلف لدوابهم[٣].

كانت هذه التدابير الاحترازية التي اتخذها الظاهر بيبرس سببًا

---

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٥.
(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٧٠ ـ ١٧١، العيني، عقد الجمان، ١ / ٣٣٦٠ ـ ٣٦٣، النويري، نهاية الأرب، ٣ /١٠٥ ـ ١٠٦.
(٣) قد تناولنا هذه التدابير الأمنية في العلاقة مع المغول في سابق الصفحات فليراجع.

مباشراً في تضاؤل خطورة هجمات مغول فارس عما كانت عليه في السابق، كما أنها اتسمت بالرعونة والتسرع، وافتقدت إلى الشمول والعنف الذي ميز الهجمات المغولية التي سبقت معركة عين جالوت.

وعن العلاقة العسكرية بين المغول والعالم الإسلامي في فترة حكم الظاهر بيبرس نجد أنها قد بدأت مبكراً، منذ اغتيال المظفر قطز، إذ ظن مغول فارس أن اغتيال قطز سوف ينتج عنه اضطراب في أركان الدولة المملوكية الوليدة، لذا نجد أنه لم يمر وقت طويل على تولي الظاهر بيبرس السلطنة، حتى أغار المغول على أطراف مملكته في الشام، ففي العام ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م أغار مغول فارس على قلعة البيرة الهامة الواقعة على ضفاف نهر الفرات، وحاصرت القوات المغولية حاميتها العسكرية بغية الاستيلاء عليها، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إذ أنهم بمجرد رؤيتهم للقوات التي أرسل بها الظاهر بيبرس - نجدة لتلك المدينة - إلا سارعوا بالفرار، ومع ذلك فإن الظاهر بيبرس قد عمل على تحصين مدينة البيرة وزودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عشر سنوات كي تظل شوكة في جنب المغول في الجبهة الشرقية(١).

وفي عام ١٢٦٥م / ٦٦٣ هـ مات هولاكو زعيم مغول فارس، غير أن وفاة الأشخاص في دولة فتية مثل الدولة المغولية، لم يؤثر مطلقاً في عزم التتار على تحقيق ما بدأه هولاكو من التقدم نحو غزو العالم الإسلامي وخاصة دولة المماليك في مصر والشام،التي أصبحت غصة في حلق المغول ولم توقف وفاة هولاكو تيار العداء

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٥٢٣ ـ ٥٢٥.

المتبادل بين العالم الإسلامي وبين مغول فارس، بل إن الخان الجديد لدولة مغول فارس واسمه أباقا أو أبغا (١٢٦٥ م - ١٢٨٢ م / ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ) كان حريصا على دعم علاقاته بالقوي المسيحية والصليبية المعادية ليس لدولة المماليك فحسب بل للمسلمين جميعاً، بقصد تطويق العالم الإسلامي عامة، فكان يعطف على المسيحيين ويتبادل السفارات والهدايا مع الباباوات وملوك أوروبا. وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هي تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والاستيلاء على بيت المقدس، وقد ظهر أثر هذا التحالف واضحا عندما انتهز أباقا خان فرصة انشغال بيبرس بمحاربة الصليبيين للإغارة على الحدود الإسلامية. مثال ذلك ما حدث سنة ١٢٦٦ م عندما أغارت الجيوش المغولية على مدينة الرحبة على الحدود الفراتية، في الوقت الذي كانت فيه جيوش بيبرس تهاجم مدينة صفد الصليبية [١].

ولكن على الرغم من هذا الجو العدائي، فإنه يبدو أن أباقا خان حاول أن يجرب الصلح مع بيبرس على شروط تلاءم المغول فقط، أو بمعني أخر حاول أن أم يستخدم الأساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل إلى الظاهر بيبرس رسالة سنة ١٢٦٨ م يعرض عليه فيها الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ مثل قوله: " فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا " [٢]. غير أن هذه

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٦.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٧٤، نقلا عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص

اللهجة المغولية الآمرة في طلب الصلح لم تعجب بيبرس فرد على الرسول المغولي بقوله: " اعلم أن وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض " (١).

وعلى ما يبدو أن فشل المحاولات الدبلوماسية قد ترتب عليه سياسة عدوانية من جانب الغول تجاه دولة المماليك، ففي سنة ١٢٦٩ م اتفق المغول مع الصليبيين وشنت قوات أبغا هجوما على المناطق القريبة من حلب، وحين أسرعت القوات المصرية تحت قيادة السلطان إلى بلاد الشام انهزم المغول وارتدوا عن هذه المناطق. وفي سنة ١٢٧١ م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين في بلاد الشام ولكن كانت الهزيمة من نصيب المغول في المنطقة القريبة من حران، بالرغم من إن الصليبيين حاولوا التخفيف من عبء هجوم المسلمين على المغول بالهجوم على بعض الحصون العربية في بلاد الشام، فكانت الهزيمة من نصيبهم هم أيضاً (٢) .

وفي سنة ١٢٧٢ م توجه بيبرس لملاقاة المغول على أرضهم، فحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع بيبرس وجنوده من عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة ١٢٧٣ م. ويبدو أن نجاح بيبرس في هذه الحملة مكنه

.٢٣٦

(١) العيني، عقد الجمان، ١ / ٥٤٩، نقلا عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٨٤ ـ ٥٨٥، النويري، نهاية الأرب ٣ / ١٨٧ ـ ١٨٩.

من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه، إذ يروي مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا خان نكب أسرة الجوينيين الذين كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس، والاتفاق معه على تسليم العراق له، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا ملك الجويني حاكم العراق، وأخوه الخواجة شمس الدين محمد وزيره، وأبناؤهما، وكلهم أهل فضل وأدب، وأرباب جود وكرم، وكانت مجالسهم محط رجال الأدب والكتاب والشعراء ومناط آمالهم. وبذلوا مافي وسعهم لتعمير ما خربه المغول، ولم يتأخروا على تنفيذ كل ما هو نافع وصالح [١].

على أن الصراع بين المغول والمماليك لم يقف عند هذا الحد، إذ سرعان ما انتقل إلى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى في الشمال، والسبب في هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدود بلاده الشرقية، أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها إلى هولاكو، وكانت مقاليد الحكم فيها بيد الوزير معين الدين سليمان البرواناه - البرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب -.

وكان هذا البرواناه يعمل إلى جانب أصحاب السيادة في بلاده وهم المغول، فلما تغلب بيبرس على المغول، مال البرواناه إلى جانب المنتصر وأخذ يراسل بيبرس معلناً انضمامه إليه، فتقدم بيبرس بجيوشه إلى آسيات الصغرى، وانتصر على الجيوش

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

المغولية انتصاراً ساحقاً عند بلدة أبلستين أو أبلستان[١] سنة ١٢٧٧ م / ٦٧٥ هـ، إذ فقد من المغول في تلك المعركة من ٧٠٠٠ نفس. ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الأهالي استقبالاً رائعا، ثم عاد بيبرس إلى الشام.

ولما علم أباقا خان بما حل بجيشه في الأناضول، سارع إلى ميدان المعركة في أبلستين، ويقال أنه بكي عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، ثم صب جام غضبه على أهالي البلاد فقتل منهم عددا كبيراً لترحيبهم بسلطان مصر، كما أمر بقتل البرواناه أيضا بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه لأنه كان السبب في هذه الكارثة [٢].

ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسميًّا، ولكن ربما كان السبب في ذلك أن بيبرس في ذلك الوقت تولاه التعب والمرض بدليل أنه مات في نفس تلك السنة [٣]، بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ١٢٧٧ م/ ٦٧٦ هـ [٤].

* * *

(١) مدينة تركية في قضاء مرعش، تقع في سهل أحرز فيه السلطان الظاهر بيبرس نصرا عظيما على جيوش المغول سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م. وتدعى اليوم (آل بستان). تعريف بالأعلام الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، ١/ ٣.

(٢) تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٨٤ ـ ٨٥، نقلا عن، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٨.

(٣) تاريخ ابن الفرات، ٧ / ٨٥ ـ ٨٧.

(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

معركة حمص

[رجب ٦٨٠هـ / أكتوبر ١٢٨١م]

معركة حمص
[رجب ٦٨٠ هـ / أكتوبر ١٢٨١ م]

وفي العام ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م، تجددت الحرب مع المغول ولعل السبب في تجددها هو قيام البعض من أهل الشام بمهاجمة حدود بلاد الروم وديار بكر التابعة لسيطرة المغول آنذاك، أضف إلى ذلك مراسلات سنقر الأشقر الذي كان يستحثهم فيها على مهاجمة بلاد الشام، والخلافات الحادة التي كانت بين صفوف المماليك وتفرق كلمتهم، وكان أن جمع أبغا بن هولاكو مايزيد على ثمانين ألف جندي وجعلهم تحت إمرة أخيه منكوتمر، فتقدم ذلك الجيش حيث دخل بلاد الروم ونزل بين قيسارية وأبلستين وأخذت هذه الجموع تستعد لاجتياح بلاد الشام.

وفي تلك الأثناء كان السلطان في مصر والشام هو قلاوون وقد غادر مصر إلى الشام حيث علم بأخبار تلك الحشود فأخذ يعمل على الاستعداد لمواجهتها، فاستدعي العساكر من جميع أنحاء مملكته، فحضر إليه الأمير أحمد بن حجي من العراق ومعه أربعة آلاف فارس بأسلحتهم، وحضرت النجدات من الملك مسعود خضر صاحب الشوبك، ونجدات سائر العربان والتركمان، وسار السلطان المنصور بقواته التي بلغت نحوا من خمسين ألف فارس، إلى المرج،

ومنها إلى حمص ومعه الجيش حيث وصل إليها في الحادي عشر من رجب ٦٨٠ هـ / أكتوبر ١٢٨١ م، ثم انضم إليه سنقر الأشقر من حصن صهيون بقواته على أن يعود إلى حصن بعد مقاتلة المغول وردهم عن بلاد المسلمين.

وبينما كانت قوات المماليك تجمع نفسها وتنسق عملها بدأت القوات المغولية في التحرك نحو بلاد الشام حيث هاجم أبغا بن هولاكو بقواته قلعة الرحبة وبدأ في حصارها مستغلا انشغال المماليك بالاستعداد لمواجهة أخيه منكوتمر الذي سار بقواته حتي وصل إلى حماة وخرب المناطق المجاورة لها، ثم تقدم الجموع المغولية نحو معسكر المسلمين في حمص حيث التقي بهم بالقرب من مشهد خالد بن الوليد في يوم الخميس الرابع عشر من رجب ٦٨٠ هـ / أكتوبر ١٢٨١م حيث بدأ المغول بهجوم عنيف اضطر المسلمين معه للتراجع أمام شدة الهجوم المغولي، ثم حدث أن انشغل المغول بجمع الغنائم التي خلفها المماليك في انسحابهم، فاستغلها المماليك وكروا راجعين وأعملوا القتل والأسر في صفوف المغول وحملوا عليهم حملة صادقة " وكان الله معهم فيها فانتصروا على التتار " [١].

وفي الوقت الذي كان فيه أبغا بن هولاكو محاصراً للرحبة، وصلت بشائر السلطان إلى نائبها تبشر بهزيمة التتار في حمص، فدقت البشائر في القلعة، فعلم العدو بذلك ومن ثم قرر الرحيل فورا إلى بغداد، فأمر السلطان قلاوون القوات المملوكية بتتبع فلول

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٥، ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٧ / ٣٠٤.

المغول الفارين حيث قتل منهم عدد كبير يفوق ما قتل على أرض المعركة أضعاف مضاعفة، وبعد هذه المعركة بفترة وجيزة مات أبغا كمدا وحزنا، إذ لم تكن هذه الهجمة على ديار المسلمين إلا تنفيذا لرغبة منكوتمر وبناء على تشجيع من سنقر الأشقر الذي انقلب على المغول لاحقا، والغالب أنه توفي في أواخر ٦٨٠ هـ / مارس ١٢٨٣ م، وبعده بقليل توفي منكوتمر في المحرم ٦٨١ هـ / إبريل ١٢٨٣ م، وتولي الحكم بعد أبغا أخوه تكودار بن هولاكو، أما سنقر الأشقر، فإن السلطان أرسل إليه جيشا حاصره في حصن صهيون إلى أن استسلم حيث سيق في الأصفاد إلى مصر حيث بقي في الأسر إلى أن توفي السلطان سيف الدين قلاوون وتولي ابنه الأشرف خليل [١].

* * *

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٦٩٠ ـ ٦٩٩، أبو الفدا، المختصر، ٤ / ٢٢ ـ ٢٧.

معركة عكا وسقوط آخر المعاقل الصليبية

[٦٩٠ هـ / مارس ١٢٩١ م]

سلطنة الأشراف خليل بن قلاوون ومقتله

ترك المنصور قلاوون ثلاثة أولاد وهم الملك الأشرف خليل [١] والملك الناصر محمد، والأمير أحمد الذي مات في حياة أبيه، واستقر الرأي على أن يكون الأشرف خليل هو السلطان على البلاد فجلس

(١) هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي رحمهما الله، أحد أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية المملوكية البحرية التي حكمت دولة المماليك العظمى أكثر من مئة قرن من الزمان.
ولد سنة ٦٦٦هـ في مصر، ونشأ في كنف والده الأمير ثم السلطان قلاوون، حيث أجواء الحرب والجهاد والقتال. عينه والده السلطان قلاوون ولياً لعهده، بعد وفاة أخيه الأكبر علاء الدين على سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، وقد ناب عن والده أكثر من مرة في غيابه، وخاصة عندما حاصر قلاوون مدينة طرابلس عام ٦٨٨هـ.
ثم تولى السلطان الأشرف خليل السلطنة في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، بعد وفاة أبيه قلاوون خلفاً لوالده، وذكر المؤرخون أنه في هذه السنة تصدق بصدقات كثيرة. فجدد له الأمراء والجند البيعة، وأخذ في ترتيب أمور مصر، فأبقى الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري نائباً للسلطنة في مصر، وخلع فيها بالوزارة على الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس الدمشقي، وكان الأمير حسام الدين لاجين نائبه في دمشق ومن بعده علم الدين سنجر الشجاعي ثم عز الدين أيبك الحموي شمس الدين ابن السلعوس، كما أطلق الأمير زين الدين كتبغا - السلطان فيما بعد - ورد عليه أقطاعه.
وقد سعى الأشرف خليل منذ توليه السلطة إلى فرض هيمنته الكاملة على شؤون الحكم والحد من تسلط أمراء المماليك، وتركت مساعيه هذه بصمات قوية على عهده القصير، فلم تكد قدم الأشرف خليل ترسخ في الملك حتى راح كبار الأمراء، الذين كان لهم باع طويل في عهد أبيه، يتآمرون عليه، فصادر أكثرهم وأقصاهم عن أعمالهم، وقتل بعضهم مثل حسام الدين طرنطاي، وسجن عدداً آخر منهم مثل شمس الدين سنقر الأشقر، وسيف الدين بن جرمك الناصري، وحسام الدين لاجين، وبدر الدين بَيْسَرى، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوري وغيرهم، وأطلق جماعة منهم بعد أن سجنهم.

على تخت الملك بقلعة الجبل يوم الأحد السابع من ذي القعدة ٦٨٩ هـ / نوفمبر ١٢٩٠ م [١].

كاد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن ينجز المهمة التي بدأها أبوه، وعزم السلطان الأشرف على تطهير الساحل المتوسطي الشامي من الصليبيين وتحرير بقية المدن التي يحتلونها امتداداً لرحلة جهاد مقدسة طويلة قادها قبله عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، وأبوه المنصور قلاوون.

وسعي منذ اليوم الأول لتوليته الحكم إلى القضاء على بقايا الصليبيين الموجودين في عكا، وبعد تجهيزات دقيقة تحرك الجيش الإسلامي من مصر في ربيع الأول سنة ٦٩٠ هـ / مارس ١٢٩١ م، ووصل عند أسوار عكا بعد مسير شهر تقريبا، وهناك وصلت معدات الحصار من دمشق، وكان عددها اثنين وتسعين منجنيقا استغرق نصبها أربعة أيام، وفي الوقت نفسه جاءت جموع الصليبيين إلى عكا عن طريق البحر للمساعدة في مقاومة الحصار، وفي داخل المدينة المحاصرة أيقن الفرنج أن نهايتهم قد حانت، وأخذت المنظمات الرهبانية العسكرية تستدعي كل ما يمكن من فرسانها في أوروبا، كما أرسل إدوارد الأول مجموعة من الفرسان الإنجليز، وجاءت قوات من قبرص،... بيد أن هذا كله لم يجد نفعا أمام قوة جيش الأشرف خليل بن قلاوون الذي اقتحم المدينة في يوم الجمعة ١٧ جمادي الأولي سنة ٦٩٠ هـ. وقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ ٧٥٦ - ٧٥٧، ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ٣ - ٤، أبو الفداء، المختصر، ٤ / ٢٤.

كانت الأعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار عكا... وهرب الفرنج في البحر، وهلك منهم خلق كثير من شدة الازدحام والتدافع للنجاة والهرب، [١] وكانت مدة حصار عكا أربعة وأربعين يوما، ثم سقطت بعد أن ظلت في أسر الفرنج الصليبيين على مدي تاريخ الوجود الصليبي تقريبا، باستثناء سنوات قليلة أثناء الحملة الصليبية الثالثة[٢].

وقد امتدح الشعراء الملك الأشرف خليل بن قلاوون على فتوحاته وإخارج الصليبيين من أرض الإسلام الطاهرة، وكان منها قصيدة الشهاب محمود:

لك الراية الصفراء يقدمها النصر ::: فن كيقباذٌ إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت في الأرض هدب بنودها ::: هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وإن نشرت مثل الأصائل في وغىً ::: جلا النقع من لألاء طلعتها البدر
وإن يممت زرق العدا سار تحتها ::: كتائب خضر تحتها البيض والسمر
كأنّ مثار النّقع ليلٌ، وخفقها ::: بروق، وأنت البدر، والفلك البحر
لها كلّ يوم أين سار لواؤها ::: هديّة تأييدٍ يقدّمها الدهر
وفتح أتى في إثر فتح كأنّما ::: سماءٌ بدت تترى كواكبها الزهر
فكم وطئت طوعاً وكرهاً معاقلٌ ::: مضى الدّهر عنها وهي عانسة بكر
فإن رمت حصناً سابقتك كتائبٌ ::: من الرعب أو جيشٌ يقدمه النصر
ففي كلّ قطر للعدى وحصونهم ::: من الخوف أسياف تجرد أو حصر
فلا حصن إلاّ وهو سجنٌ لأهله ::: ولا جسدٌ إلاّ لأرواحهم قبر
وما قلعة الروم التي حزت فتحها ::: وإن عظمت إلاّ إلى غيرها جسر

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٧٦٢ - ٧٦٥، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ٨/ ٣٠٨ - ٣١٠، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١ / ١٣٧ - ١٣٨، العيني، عقد الجمان، ٣ / ٥٦ - ٦٥، النويري، نهاية الأرب، ١٣/ ١٩٧ - ١٩٩.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٢٢.

محجّبــــةٌ بــــين الجبـــــال كأنهــــا	:::	إذا ما تبدّت في ضــمائرها ســـر
تفاوت وصفاها فللحوت فيهمـــا	:::	مجالٌ وللنّســـرين بينـــهما وكـــر
فبعضٌ رسا حتى جرى الماء فوقــه	:::	وبعضٌ سما حتى همى دونه القطـــر
يحيط بهـــا نهـــران تـــبرز فيهمـــا	:::	كما لاح يوماً في قلائـــده النحـــر
تخاض متون السّحب فيها كأنهـــا	:::	إذا ما استدارت حول أبراجها نهر
على هضب صمٍّ يكلّم صخرها ال	:::	حديد وفيها عـــن إجابتـــه وقـــر
لها طرق كالوهم أعيـــا ســـلوكه	:::	على الفكر حتى ما يخيّلـــه الفكـــر
إذا خطرت فيها الريـــاح تعثّـــرت	:::	أو الذرّ يوماً زلّ عن متنـــه الـــذر
يضلّ القطا فيه ويخشى عقابهـــا ال	:::	عقاب ويهفو في مراقبـــها النســـر
فصبّحتها بالجيش كالرّوض بهجـــةً	:::	صوارمه أنهـــاره والقنـــا الزهـــر
وأبدعت بل كالبحر والبيض موجه	:::	وجرد المذاكي السفن والخوذ الدر
وأغربت بل كالليل، عوج ســـيوفه	:::	أهلتـــه، والنّبـــل أنجمـــه الزهـــر
وأخطأت لا بل كالنّهار فشمســـه	:::	جيوشك، والآصال راياتك الصفر
ليوثٌ من الأتراك آجامهـــا القنـــا	:::	لها كلّ يومٍ في ذرى ظفـــر ظُفـــر
فلا الريح تسري بينهم لاشتباكها	:::	عليهم ولا ينهلّ من فوقهم قطـــر
يرى الموت معقوداً بهدب نبـــاهم	:::	إذا ما رماها القوس والنظر الشزر
ففي كلّ سرجٍ غصن بانٍ مهفهف	:::	وفي كلّ قوس مدّ ســـاعده بـــدر
إذا صدموا صمّ الجبـــال تزلزلـــت	:::	وأصبح سهلاً تحت خيلهم الـــوعر
ولو وردت ماء الفرات خيـــولهم	:::	لقيل هنا قد كان فيما مضى نهـــر
أداروا بها سوراً فأضحت كخنصرٍ	:::	لدى خاتم أو تحت منطقةٍ خصـــر
وأجروا إليها مـــن بحـــار أكفّهـــم	:::	سحاب ردىً لم يخل من قطره قطر
كأنّ المجانيق الـــتي قمـــن حولهـــا	:::	رواعد سخطٍ وبلها النار والصخر
فأحرزتها بالسيف قهراً، وهكـــذا	:::	فتوحك فيما قد مضى كلّه قســـر
غدت بشعار الأشرف الملك الذي	:::	له الأرض دار وهي من حسنها قصر
وأضحت بحمد اللّه ثغـــراً ممنّعـــاً	:::	تبيد اللّيالي والعـــدا وهـــو مفتـــرّ
وكانت قذىً في ناظر الدين فانجلى	:::	وذخراً لأهل الشرك فانعكس الأمر

وبعد عكا، سقطت بقية المعاقل والمدن الصليبية بالشام تباعا، وبذلك عادت بلاد الشام للسيادة العربية الإسلامية مرة أخري. وزالت دولة الفرنج بعد أن استمرت في الوجود مائتي سنة تقريبا.

بيد أن القضاء على بقايا المستوطنات الصليبية في المنطقة العربية سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م، لم يكن يمثل النهاية الحقيقية لقصة " الحركة الصليبية " فقد لجأت فلول الهاربين إلى قبرص ورودس لمحاولة إعادة بث الحياة في الجسد الصليبي الميت على طوال القرنين التاليين، كما أن البابوية وأنصارها لم يكفوا عن صياغة مشروعات صليبية جديدة بهدف السيطرة على المنطقة العربية، والتحكم في طرق التجارة العالمية ومحطاتها، ومن ناحية أخري استمرت دولة سلاطين المماليك تؤدي دورها التاريخي في المواجهة الطويلة والمضنية، على الرغم من أن المواجهة لم تعد تتطلب حشد الموارد كلها في صالح الجهد الحربي، كما كان طوال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية [١].

* * *

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٢٢.

موقعة شقحب وهزيمة المغول

[٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م]

موقعة شقحب وهزيمة المغول
[٧٠٢هـ / ١٣٠٣م]

على أن العداء لم ينته بين المغول والمماليك، فقد ذاع في المحرم سنة ٧٠٠ هـ بدمشق نبأ مسير غازان الخاقان المغولي إلى بلاد الشام، فلما وصل الناصر محمد بن قلاوون نبأ مسير غازان على بلا د الشام أخذ الأمر على محمل الجد، وأخذ يعد العدة لملاقاة المغول مرة ثانية والدفاع عن بلاد الشام، ولما أتم الاستعدادات تحرك بالجيش إلى غزة في وقت جاءت إليه الأخبار بعبور غازان بقواته نهر الفرات باتجاه بلاد الشام، ولكن الناصر محمد لم يواصل المسير مع الجيش من غزة باتجاه المغول وذلك بسبب الشدائد الكثيرة التي واجهت الجيش بسبب الأمطار والثلوج التي توالت لمدة أربعين يوما مما أدي إلى هلك كثير من دواب الجيش وتلف المهمات العسكرية وارتفعت الأسعار إلى الضعف، فأصيب الناصر محمد بالوهن والإرهاق وآثر العودة إلى مصر في نهاية ربيع الأول ٧٠٠هـ / يناير ١٣٠١م [١].

أما فيما يتعلق بموقف غازان فإنه بعد أن عبر الفرات سار متجها إلى أنطاكية، غير أن شدة البرد حملته على عدم مواصلة الزحف،

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٠٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ / ١٥ ـ ١٦.

فرجع أدراجه بعد هجومه على أنطاكية وجبل السماق حلب ونهبه الأموال وأسره العدد الوفير من الرجال، حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم، وحالت الأمطار الغزيرة والثلوج المتكاثفة دون دخول المغول دمشق، أضف إلى ذلك أن معظم خيول وإبل جيش غازان قد نفقت، وأمام هذا لم يجد بدا من العودة إلى بلاده بعساكره وخذلهم الله وردهم خائبين{وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ} [الأحزاب: ٢٥]، وعاد أهل الشام إلى منازلهم بعد أن كانوا قد هجروها خوفا من بطش المغول، وعاد الجيش المصر بقيادة نائب السلطنة من معسكره عند المرج بعد أن قضي هناك أربعة أشهر بعد أن اطمأن على عودة غازان إلى بلاده [١].

وكان غازان يأمل أن تساعده الدول الأوروبية في انتزاع سورية من قبضة المماليك، فأرسل إلى ملكي إنجلترا وفرنسا عدة سفارات تطلب العون ضد المماليك، فلم يلق طلبه قبولا [٢].

ولما يئس غازان من مناصرة ملوك أوروبا له، اتجه إلى مهادنة سلاطين المماليك فأرسل في رمضان سنة ٧٠٠ هـ / مايو ١٣٠١ م رسالة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومع وفد مكون من الفقيه كمال الدين موسي بن يونس قاضي الموصل [٣]، والأمير

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٠٩، أبوالمحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٣٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ / ١٦، ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٤٦.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ١٩٠.

(٣) الشيخ العلامة كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك الفقيه الشافعي، كان إمام وقته في مذهب الشافعي وغيره، وكان يشتغل الحنفيون عليه في مذهب أبي حنيفة، ويحل الجامع الكبير في مذهب أبي حنيفة وكان متقنا علم المنطق والطبيعي والإلهي، وكان

ناصر الدين على خواجا، وقد عاب غازان في هذه الرسالةعلي المماليك الهجوم على أملاكه من غير سبب، وتوعده الانتقام إذا وصل لعلمه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم ومقاتلتهم بنواحي حلب والفرات، وناشده الله والدين أن يعمل على تلافي ما قد يقع ببلاد المماليك من الخراب، وطلب منه أخيرا أن يعد له الهدايا والتحف [1]، وقد نصت الرسالة على: " بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمدية، فرمان السلطان محمود غازان، ليعلم السلطان

إماماً مبرزاً في العلم الرياضي، وأتقن المجسطي وأقليدس والموسيقى والحساب بأنواعه، وكان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، وشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضح لهم مثله، وكان إماماً في العربية والتصريف، وكان يقرئ كتاب سيبويه والمفصل وغيرهما، وكذلك كان إماماً في التفسير والحديث، وقدم الشيخ أثير الدين الأبهري واسمه المفضل بن عمر بن المفضل إلى الموصل، واشتغل على الشيخ كمال الدين المذكور، وكان الشيخ أثير الدين الأبهري المذكور حينئذ إماماً مبرزاً في العلوم، ومع ذلك يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه.

قال القاضي شمس الدين بن خلكان: ولقد شاهدت بعيني أثير الدين الأبهري وهو يقرأ المجسطي على الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور، واستمر سنين عديدة يشتغل عليه، وكان الأثير إذ ذاك صاحب تصانيف، يشتغل فيها الناس، وقصد تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن، المعروف بابن الصلاح، الفقيه الشافعي، الشيخ كمال الدين المذكور، وسأله في أن يقرئه المنطق سراً، وتردد ابن الصلاح إلى الشيخ كمال الدين مدة يقرأ عليه المنطق ولا يفهمه، فقال له ابن يونس المذكور: يا فقيه، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن. فقال له ابن الصلاح: ولم ذلك؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك، ولا يصح لك من هذا الفن شيء، فقبل ابن الصلاح إشارته، وترك قراءته، وكان الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور يتهم في دينه، لكون العلوم العقلية غالبة عليه، وكانت تعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه، فعمل فيه بعضهم.

جدك إن قد جاد بعد التعبس ::: غزال بوصل لي وأصبح مؤنسي.

وعاطيته صهباء من فيه مزجها كرقة شعري أو كدين ابن يونس.

أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ١ / ٤٢٦ - ٤٢٧.

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ١٨٩.

المعظم الملك الناصر أنه في العام الماضي بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا وأفسدوا فيها، لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة وأحوال شنيعة من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة، فأنفنا من تهجمهم، وغرنا من تقحمهم، وأخذتنا الحمية الإسلامية، فحدتنا على دخول بلادهم ومقابلتهم على إفسادهم، فركبنا بمن كان لدينا من العساكر، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر، وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا، سلكنا سنن المرسلين، واقتفينا آثار المتقدمين، واقتدينا بقول الله تبارك وتعالى:{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥] وأنفذنا صحبة يعقوب الكرجي جماعة من القضاة والأئمة الثقات، وقلنا: {هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨} [النجم: ٥٦ - ٥٨].

فقابلتم ذلك بالإصرار، وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالأضرار، وأهنتموهم وسجنتموهم، وخالفتم سُنن الملوك في حسن السلوك، فصبرنا على تماديكم في غيكم وإخلادكم إلى بغيكم إلى أن نصرنا الله وأراكم في أنفسكم قضاة،{أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ} [الأعراف: ٩٩]، وظننا أنهم حيث تحققوا كُنه الحال، وآل بهم إلى ما آل، أنهم ربما تداركوا الفارط من أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، وأوجه إلينا وجه عذرهم، وأنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية رُسلاً لإصلاح تلك القضية، فبقينا بدمشق غير متحثحثين، وتثبطنا تثبط المتملكين المتمكنين، فصدّهم عن السعي في صلاح حالهم التواني، وعللوا نفوسهم بالأماني.

ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا، أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلتقونا على حلب أو الفرات، وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقياهم، ووصلنا الفرات مُرتقبين ثبوت دعواهم، وقلنا لعلهم وعساهم، فما لمع لهم بارق، ولا ذرّ لهم شارق، فتقدّمنا إلى أطراف حلب، وتعجبنا من بطائهم غاية العجب، فبلغنا رجوعهم بالعساكر، وتحققنا نكوصهم عن الحرب، وفكرنا أنه متى تقدّمنا بعساكرنا الزاخرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، وعم ضرر العباد، وخراب البلاد، فعدنا بفتياً عليها، ونظرة لطف من الله إليها.

وها نحن أيضاً الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة، ومُستعملون المجانيق وآلات الحرب، وعازمون بعد الإنذار،{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

وقد سيّرنا حاملي هذا الفرمان الأمير الكبير ناصر الدين بن على خواجا، والإمام العالم ملك القضاة كمال الدين موسى بن يونس، وقد حملناها كلاماً يُشافهانهم بهن، فليثقوا بما تقدمنا به إليهما، فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما، لنكون كما قال الله تعالى:{قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾} [الأنعام: ١٤٩]، فتُعدّون لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تداركوا الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلوبة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم.

فليُمعن السلطان لرعيته النظر في أمره، فقد قال ﷺ :«**من ولاّه الله أمراً من أمور هذه الأمة واحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله**

دون حاجته وخلّته وفقره». وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر، " والسلام على من اتبع الهدى ".

كتب في العشر الأول من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد، والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله الطاهرين [١].

ولما وصل هذا الوفد برسالة غازان إلى القاهرة استقبل بالحفاوة والتكريم، ثم دعي إلى قلعة الجبل حيث اجتمع الأمراء والعسكر وكبار رجال الدولة، وبدأ القاضي كمال الدين موسي بن يونس قاضي الموصل - أحد سفراء غازان - في الحديث حيث خطب خطبة بليغة تحدث فيها عن أهمية الصلح والسلام بين الدولتين المملوكية والمغولية، وقد تحقق الملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ورجال دولته من نوايا غازان عن طريق سؤال القاضي كمال الدين وقالوا له: " أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء، فنحن نحلف لك أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى، ورغبوه غاية الرغبة؛ فحلف لهم بما يعتقده أنه ما يعلم من قازان وخواصه غير الصلح وحقن الدماء ورواج التجار ومجيئهم وإصلاح الرعية. ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإن كان هذا

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٣٨٧ - ٣٨٨.

الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحاً فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم [١].

وبعد أن تأكد الناصر محمد بن قلاوون ورجال دولته من نوايا غازان السلمية وأحسوا بالصدق من كلام القاضي كمال الدين موسي ابن يونس قاضي الموصل بعث الناصر محمد رسالة إلى غازان فند له فيها ماورد في رسالته وأكد له فيها أن المغول هم الذين يبدؤون دائما بالعدوان، كما ذكر له أنه لن يهاديه حتي يبدأ هو بإرسال الهدايا إليه، وعاب على غازان إذلال المسلمين في دمشق وما جاورها من بلاد وتخريبه المساجد والآثار مما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وختم الناصر كتابه لغازان مؤكدا له استعداده لمصادقته إذا جنح للسلم، وأبعد الكفار الذين لايحل له أن يتخذهم بطانه له [٢] وفيما يلي نص الكتاب: " فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام، ورعينا له حق القصد فتلقيناه منا بسلام، وتأملناه تأمل المتفهم لدقائقه، المستكشف عن حقائقه، فألفيناه قد تضمن مؤاخذة بأمور، هم بالمؤاخذة عليها أحرى، معتذراً في التعدي بما جعله ذنوباً لبعض طالب بها الكل، والله يقول:{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [الإسراء: ١٥].

أما حديث من أغار على ماردين فمن رجّالة بلادنا المتطرفة، وما نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة، والأحوال الشنيعة. وقولهم إنهم أنفوا من تهجّمهم، وغاروا من تقحمهم، واقتضت الحمية

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٨ / ١٤١ - ١٤٢.
(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ١٩١.

ركوبهم في مقابلة ذلك، فقد تلمّحنا هذه الصورة التي أقاموها عذراً في العدوان، وجعلوها سبباً إلى ما ارتكبوه من طغيان فالجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين، لم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكف يدها الممتدة ولا يغير هممها مستعدة، وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والنفاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق، ولم يزل ملك ماردين ورعاياه منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد، عنهم متوليّين، كبر مكرهم، والله تعالى يقول:{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١].

ومن حيث جعلتم هذا جنباً موجباً للحمية الجاهلية، وحاملاً على الانتصار الذي زعمتم أن هممكم به مليّة، فقد كان هذا القصد الذي ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التي أوجب ذلك فعلها والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار، اتباعاً لقوله تعالى:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى: ٤٠] لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان، وتطأوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهك حرمة البيت المقدس الذي هو ثاني بيت الله الحرام، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإن احتججتم بأن زمام تلك الغارة بيدنا، وسبب تعدّيهم من سببنا، فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأن عدم الصلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك.

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين، واقتفاء آثار المتقدمين في إنفاذ الرسل أولاً، فقد تلمحنا هذه الصورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة، والجواب عن ذلك أنهم ما وصلوا إلاّ وقد دنت الخيام من الخيام، وناضلت السهام عن السهام، وشارف القوم القوم،

ولم يبق للقاء إلاّ يوم أو بعض يوم، وأشرعت الأسنة على الجانبين، ورأى كلّ خصمه رأي العين،ولا نحن ممن لاحت له رغبة راغب، فتشاغل عنها ولها، ولا ممن يسالم فيقابل ذلك بجفوة النفار والله تعالى يقول:{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا} [الأنفال: ٦١]. كيف والكتاب بعنوانه، وأمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أضمر الإنسان شيئاً إلاّ أظهره الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه. ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعة في أغمادها، والأسنة مستكنةٌ في أعوادها، والسهام غير مفوقة، والأعنة غير مطلقة، لسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم.

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم، وأبدوه من غليظ كلمهم في قولهم: فصبرنا على تماديكم في غيّكم، وإخلادكم إلى بغيكم، فأيّ صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحة، قبل إرسال رسل المصالحة، وجاس خلال الديار، قبل ما زعمه من الإنذار والإعذار، وإذا فكروا في هذه الأسباب، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب، علموا الغدر في تأخير الجواب، وما يتذكر إلاّ أولوا الألباب.

وأما ما يتحججوا به مما اعتقدوه من نصرة، وظنوا من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب في كل كرة الكرّة، فلو تأملوا ما ظنّوه ربحاً لوجدوه هو الخسران المبين ولو أمعنوا النظر في ذلك لما كانوا به مفتخرين، ولتحققوا أن الذي اتفق لهم كان غرماً لا غنماً، وتدبّروا معنى قوله تعالى:{إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا} [آل عمران: ١٧٨].

ولم يخف عنهم ما أبلته السيوف الإسلامية منهم، وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء لما ظهر

خبر عنهم، فإنا كنا في مفتتح ملكنا، ومبتدي أمرنا حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد، فلما تحققنا خبركم، وقفونا أثركم، بادرنا نقدّ أديم الأرض سيراً وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً ونؤدي من الجهاد السنة والفرض، ونعمل بقوله تعالى:{وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ} [آل عمران: ١٣٣].

فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة، وثوقاً بقوله تعالى:{كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ} [البقرة: ٢٤٩]، وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطئت موطئاً يغيظ الكفار، فكتب لها به عمل صالح، وسارت في سبيل الله يفتح الله عليها أبواب المناجح، وتعدّدت أيام نصرتها التي لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس، ولما قدرتم أن تنكروها، وفي تعب من يجحد ضوء الشمس، وما زال الله لها نعم المولى ونعم النصير، وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ النصرة:{وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ} [فاطر: ١٤].

وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب، وكم من ملك أُستظهر عليه ثم نُصر، وعاوده التأييد فجبره بعدما كُسر، خصوصاً ملوك هذا الدين، فإن الله تكفّل لهم بحسن العقبى فقال سبحانه:{وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨].

وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا، كوننا لم نسّير إليهم رسولاً عند حلولنا بدمشق، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نُزد على أن اعتددنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان،

وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان، وأنفقنا جزيل الأموال في جمع العساكر والجحافل، ووثقنا بحسن الحلف لقوله تعالى:{مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ} [البقرة: ٢٦١].

ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد، فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رغبة عن حث الركاب، وتلبثنا تلبث الراسيات،{وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ} [النمل: ٨٨] وبعثنا طائفة من العساكر لمقابلة من أقام بالبلاد، فما لاح لهم منهم بارق ولا ظهر، وتقدمت فلحقت من حمله على التأخير الغرر، ووصلت الفرات فما وقعت للقوم على أثر.

وأما قولهم: إنا ألفينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يلتقوننا على حلب أو الفرات. وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقبين وصولنا، فالجواب على ذلك أنه حين بلغنا حركتهم جزمنا، وعلى لقائهم عزمنا، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله ﷺ، الواجب الطاعة على كل مسلم، المفترض المبايعة والمتابعة على كل معترض ومسلِّم، طائعين لله ولرسوله في أداء فرض الجهاد، باذلين في القتال بما أمرنا الله غاية الاجتهاد، لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمتابعته، ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله، فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل، وتبلغ بقوة الله في النصر الرجاء والأمل، ووصلت أوائلها إلى أطراف بلاد حماة وتلك النواحي، فلم يقدم أحد عليها، ولا جسر أن يمد حتى ولا الطرف إليها، فلم نزل مقيمين حتى

بلغنا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء، والله لا يخلف الميعاد، فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تندفع في طاعة الله تعالى اندفاع السيل، عاملين بقول الله تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ } [الأنفال: ٦٠].

وأما ما جعلوه عذراً في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أفسد البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، فقد فهم هذا المقصود، ومتى ألفت البلاد والعباد منهم هذا الإشفاق؟، ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟، وها آثارهم موجودة، ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة، وهل هذا اعتماد من رمق شخص الإسلام بإنسانه؟، كيف ورسول الله عليه السلام يقول: ((المسلم من سلم الناس من يده ولسانه))، وأسارى المسلمين عندهم في أشدّ وثاق، في يد الأرمن والتكفور منهم يخالف ما ادعوه من الإشفاق.

وقد كان المسلمون غزوا عسكر أبغا وقتلوا من قتلوا من التتار، وحصل لهم التمكن في البلاد والاستظهار. واستولوا على ملك آل سلجوق ولا تعرضوا لدار ولا جار، ولا عفوا أثراً من الآثار، ولا حصل لمسلم منهم ضرر، ولا أوذي في ورد ولا صدر، وكان أحدهم يشتري قوته بدرهمه وديناره، ويأبى أن يمتد إلى أحد المسلمين يد أضراره، هذه سنة أهل الإسلام، وفعل من يريد لملكه الدوام.

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا، وما أبدوه من الاهتمام بجمع العساكر، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل، فالله تعالى يقول:{ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣} [آل عمران: ١٧٣].

وأما قولهم: وإلا فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بأن لا يصدر عن ذلك جواب، ومن قصده الصلح والإصلاح، كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله وجهة رسوله أي جناح؟ وكيف يضمر هذه النية، وينجح بهذه الطوية، ولم يخف مواقع هذا القول وخلله؟ والنبي ﷺ يقول: «**نية المرء أبلغ من عمله**». وبأي طريق تهدر دماء المسلمين التي من تعرض إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مُطالباً وغريماً، ومؤاخذاً بقوله تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾} [النساء: ٩٣].

وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد وجمع العساكر التي يكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الإمداد، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد، المتكاثرة المدد، المدعوة بالنصر الذي يحفها في الظعن والإقامة، الواثقة بقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة**»، المبلغة في دين الله آمالاً، المستعدة لإجابة داعي الله إذ قال: {ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا} [التوبة: ٤١].

وأما رسلهم وهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا، فأكرمنا وفادتهم، وعززنا لأجل مُرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم، هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم، وأنهم ما دُفعوا لأفواه الخطوب، إلا لما ارتكبوه من ذنوب، وما كان ينبغي أن يُرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا يُندب لهذا المهم إلا من يُجمع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها، ولو أتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها، وقد كان عمه الملك أحمد راسل والدنا السلطان الشهيد، وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب.

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت الانفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلاً ما أمر الله به مجتنباً ما عنه نهى، وانضم في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنّان، وتجنب التشبه بمن قال الله في حقهم:{قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ} [الحجرات: ١٧]، وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولاً من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلاً، ويروق جوابه وخطابه حتى يتلو كل أحد: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. صارت حجتنا وحجة المركبة على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك، ومظافرتنا له تكسب الكافرين هواناً، والمُشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى:{وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا} [آل عمران: ١٠٣].

وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمُصافاة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يُرضي الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام [1].

---

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٧.

موقعة عرض ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م:

ومن الواضح أن غازان لم يكن راغبا في الصلح كما ادعي، إنما كان في حاجة إلى هدنة يستعيد فيها قوته لعدوان جديد، لذلك لم تؤت المراسلات ثمرتها المرجوة، فاستؤنفت الحرب من جديد بعد عام واحد، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة بقيادة القائد قطلوشاه على رأس ثمانين ألف مقاتل ونزلوا على نهر الفرات وتقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له: الكوم بالقرب من عرض [(١)] سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م، حيث دارت رحي الحرب بين الفريقين وانتهي الأمر بهزيمة المغول [(٢)]:

موقعة شقحب [٣] ـ مرج الصفر [٤] ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م

وعلى ما يبدو أن المغول لم يكونوا يستسلمون بسهولة، فسرعان ما جهزوا جيشا أكثر عدد وعدة، فأعاد قطلوشاه السير في مائة ألف من التتار والكرج والأرمن، وأسرع في السير باتجاه بلاد الشام بعد

---

(١) بلدة بالشام بين تدمر والرصافة الهاشمية. المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣١.

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٤ / ٤٨، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ١٩٧.

(٣) شقحب: قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق، المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣٢.

(٤) مرْجُ الصُّفَّرِ: مَوْضِعٌ بَيْنَ دِمَشْقَ وَالْجَوْلَانِ وهُوَ سَهْلٌ وَاسِعٌ عَلَى بُعْدِ ٣٧ كَمْ عَنْ دِمَشْقَ جَنُوبًا. وَفِي شَرْقِ قَرْيَةِ شقحب، وَيَشْمَلُ الْيَوْمَ بَعْضَ أَرَاضِي قُرَى: زَاكِيَةَ، وشقحب، وأركيس، والزريفية، وَغَيْرِهَا. جَرَتْ فِيهِ عِدَّةُ مَعَارِكَ حَاسِمَةٌ، مِنْهَا مَعْرَكَةٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الزَّاحِفِينَ إِلَى دِمَشْقَ - بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْيَرْمُوكِ - وَالرُّومِ الْبِيزَنْطِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٤ هـ، وَمَعْرَكَةٌ فِي أَيَّامِ بَنِي مَرْوَانَ، وَمَعْرَكَةٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّلِيبِيِّينَ فِي سَنَةِ ٥١٩ هـ، وَمَعْرَكَةُ التَّتَارِ وَجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَنَةِ ٧٠٢ هـ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ. الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ الْوَارِدَةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، ١ / ٤١١.

أن ذكر لـه المنهزمـون مـن المغـول فـي موقـع عـرض أن السـلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يخرج من الديار المصرية بعد وأن ليس بالشام سوي جند الشام، فجد قطلوشاه في السير بقواتـه بهدف مباغتـة المسلمين في الشام قبل مجيء القوات المصرية [١].

ولمـا علـم النـاس بأنبـاء مسير المغـول صـوب بـلاد الشـام وقـع الإرجـاف والرعـب فـي قلـوبهم وهمـوا بالرحيـل عـن بـلاد الشـام إلـى مصر وترك الناس حلب وحماه ولجؤوا إلـى دمشق، وأرادوا الذهاب إلى مصر، ولم يمنعهم إلا النداء الذي نـودي بـه فـي المدينـة وهو: " من خرج حل ماله ودمه " وكان شيخ الإسلام ابن تيميـة حاضـرا تلك المعركة، وأخذ يحرّض السلطان على القتال، وبشَّره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلاَّ هو: إنَّكم منصورون عليهم فـي هذه المرَّة. فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وأفتـى النـاسَ بـالفطر مدّة قتـالهم، وأفطـر هـو أيضـاً وكـان يـدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شي معه في يده ليعلِمهم أنَّ إفطارهم ليتقوَّوْا به على القتال أفضل من صيامهم [٢].

وبعـد أن علـم السـلطان الناصـر محمـد بـن قـلاوون بتحركـات المغول جد في الرحيل إلى بـلاد الشـام لنجدة المسلمين، وكـان أمـراء المماليـك فـي الشـام قـد تشـاوروا فـي أمـر المغـول مـابين رأي يقـول بانتظار قدوم السلطان بـالجيش، ورأي ينـادي بضـرورة دفـع المغـول عن بلاد الشام ومنازلتهم إلى حين مجي السلطان الناصـر محمد بن

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٦٧.
(٢) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٥٧.

قلاوون، ولكنهم خشوا من أن يأخذهم المغول على حين غرة ويفاجئهم في دمشق فرحلوا منها وخرجوا لملاقاة المغول، في الوقت الذي كان السلطان قد وصل إلى بلاد الشام وبلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجهوا إليه بالجيش، فلقوه في يوم السبت ثاني رمضان، وقبلوا له الأرض. ولبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على المحاربة بشقحب تحت جبل غباغب [1]، وكان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر. فوقف في القلب السلطان وبجانبه الخليفة والأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير، وعز الدين أيبك الخازندار وسيف الدين بكتمر أمير جاندار وجمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام وبرلغي وأيبك الحموي، وبكتمر البوبكري وقطلوبك ونوغاي السلاح دار وأغرلوا الزيني، وفي الميمنة الحسام لاجين أستادار ومبارز الدين سوار أمير شكار، ويعقوبا الشهرزوري ومبارز الدين أوليا بن قرمان، وفي الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماة والعربان، وفي الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير السلاح والأمير قرا سنقر بعساكر حلب والأمير بدخاص نائب صفد، وطغريل الإيغاني وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار، بمضافيهم.

ومشى السلطان والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار السلطان يقف، ويقول الخليفة: يا مجاهدون، لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم ﷺ، والناس في بكاء شديد، ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض، وتواصى بيبرس وسلار على الثبات في الجهاد.

---

(١) وغباغب: قرية في حوران قريبة من دمشق.

وعاد السلطان إلى موقفه، ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفاً واحداً، وقيل لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه، ولكم سلاحه وفرسه.

فلما تم الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع الليل، بعد الظهر من يوم السبت المذكور، وأقبل قطلوشاه بمن معه من التوامين وحملوا على الميمنة وقاتلوها، فثبتت لهم وقاتلتهم قتالاً شديداً، وقتل الحسام لاجين أستادار وأوليا بن قرمان وسنقر الكافري، وأيدمر الشمسي القشاش وأقوش الشمسي الحاجب والحسام على بن باخل، نحو الألف فارس. فأدركهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في بيبرس والبرجية فأتوه وصدم بهم قطلوشاه، وأبلى ذلك اليوم هو وبيبرس بلاء عظيماً، إلى أن كشفا التتار عن المسلمين [١].

وانتهي الأمر بأن أوقع المماليك الهزيمة بالمغول وفر قطلوشاه إلى الفرات بفلول جيشه، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر في الصحراء من شدة العطش والجوع [٢].

ولما دخل السلطان إلى دمشق وبين يديه الخليفة، وزُيِّنَتِ البلد، وبقِيا في دمشق إلى ثالث شوّال إذ عادا إلى الديار المصرية. وكان فرح السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمسلمين بهذه المعركة

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣٣ - ٩٣٤، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٦٠ - ١٦١.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣٣ - ٩٣٤، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٦٠ - ١٦١، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ١٩٧.

فرحاً كبيراً، ودخل مصر دخول الظافر المنتصر، يتقدّم موكبَه الأسرى المغول يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى، واستُقبل استقبال الفاتحين.

لقد كان لموقعة شقحب نتائج بالغة إذ إن التتار لم تقم لهم قائمة بعد هذه الموقعة ذلك أنه قضي على أغلب جيشهم في هذه الموقعة، ولم يعبر قطلوشاه مقدم التتار نهر الفرات إلا في القليل من أتباعه وعلم غازان بهزيمة الجيش، فانتشر الحزن في بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها من المدائن إلى لقاء من عاد من جيش التتار سالما لاستجلاء الخبر اليقين، إذ للهزيمة أثر سيء على أنفسهم وهم الذين كانوا يتباهون بأنهم قوم لا يعرفون الهزيمة، واستمر الحزن في تبريز شهرين على من فقد في شقحب واغتم غازان غما عظيما لما علم بهزيمة جيشه حتي اقترب من الموت، ثم جلس غازان لمحاكمة قطلوشاه وقادة الجيش المنهزم، فأنكر عليهم الهزيمة وهم بقتلهم إلا أن بعض الأمراء تشفع فيهم فلم يقتلوا ولكن أبعد قطلوشاه عن البلاط المغولي إلى جيلان وضرب بقية القادة وأهينوا[(١)].

وكاد غازان يمت كمدا وحزنا ليس من هزيمة جيشه الفاجعة في شقحب وحدها ولكن أيضا من رسالة الملك الناصر محمد بن قلاوون التي يحقر فيها من شأنه ويطلب منه الجلاء عن العراق، ويتوعده أنه سيأتي بجيوشه ليبعده عنها بالقوة، وقد نصت الرسالة على الآتي:

الحمد لله على ما جدّد لنا من النعمة التامة، وسمح به من الكرامة

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٧١ - ١٧٢.

العامة حين أعاد النعيم إلى كماله، والسرور إلى أتم حاله، فاستأنست النفوس إلى استمرار عوائدها، وارتاحت القلوب إلى معجز فوائدها، وأضاءت شمس المعالي، وطلعت بدورها بالسعد المتوالي، إذ كانت غلطة من الدهر فاستدركها، وسقطة بدت عنه فما تركها، فقرّت بذلك العيون، وتحققت في بلوغ الآمال الظنون، فلله الشكر الجزيل ما أومض في الجو بارق، وسرى في الآفاق نجم طارق.

وبعد: فليعلم الملك الجليل محمود، جامع الجيوش وحاشد الجنود، أنه تظاهر بدين الإسلام، وأشهر ذلك بين الأنام، وأبطن خلاف ما ظهر، وتظاهر بالباطل والحقّ ستر، ثم فعل ما قدره الله عز وجل وما حكم به القدر، فحملنا ذلك على أنه تقدير، وأن ليس يجدي فيما أراد الله عز وجل تدبير، فما لبث الملك إلا أيسر مدّة، وأرسل رسله إلينا مجده، وهو يطلب الصلح ويحرّض عليه، ويذكر الإسلام ويندب إليه، وزعم أنه ليس يختار الفساد في الأرض، فإن الواجب علينا وعليه إصلاح ذوي الدين وأنّ ذلك فرض، فعلمنا مقصده في مقاله، وتستر منا بستر يلوح وجه القدر من خلاله، فأكرمن رسله كرامة تليق بفعالنا، وسمعنا رسالتهم وجاوبناهم على مقتضى حالهم لا مقتضى حالنا، وأعدناهم إليه بما هم مصرّون عليه، فعاد رسوله يطلب رسولاً يسمع كلامه وليس يخفي عنا مقصده ومرامه، فأرسلنا إليه ما طلب، وركبناه فرس البغي فيا بئس ما ركب.

فما كان إلا عند وصول رسلنا إليه، فجهز عسكره وأظهر من الغدر ما لم يكن يخفى عليه، وأمرهم بما عاد وباله عليهم، وحرّضهم على ما وجدوه حاضراً لديهم، ثم تقدم معهم وعدى بهم ماء الفرات، وجهزهم

ورجع، وعلم أن الغلبة من قراه، فما كان إلا أن دخلوا البلاد، وعملوا بما أمرهم من الفساد، وتفرقت خيولهم في الأطراف والأوقاف، وقطعوا أيدي الأشجار وأرجل الزروع من خلاف، ونزلوا بالقرب من حلب، وشنوا الغارات وجدّوا في الطلب، وجيوشنا الشامية لهم بالمرصاد، وقد أخلصوا لله تعالى نية الجهاد، وهم يتقدمون إليهم كل وقت ويظهرون لهم الضعف والتأخير ليتوسطوا البلاد ويحصل هناك التدبير، فعاد منهم تومان إلى القريتين، فجهز من جيوشنا إليهم ألفان، فوجدوهم قد أخذوا أغنام التركمان، فوافوهم بالقرب من عرض فكانا كفرسي رهان، فلم يلبث الباغون ساعة من النهار، حتى عجل الله بأرواحهم إلى النار، وبقيت أجسادهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض، ولم يفلت منهم إلا من يفعل الخير إنهم قد صاروا أخياراً، ثم أخذ منهم جماعة أسارى: كرج، وأرمن، ومغل، ونصارى.

فما أقنعهم ذلك، ولا اكتفى بأرواحهم مالك، وهموا طالبين الغوطة، ولم يعلموا أن من دونها رماحاً مشروعة، وجياداً مربوطة، وعساكر يتأخرون عنهم قليلاً بعد قليل، وجيوشًا ترصدهم بالغداة والأصيل، فلما عاينوا دمشق المحروسة ظنوا أنهم بدخولها يستبشرون، وما علموا أنهم من حولها إلى جهنم يحشرون، فعبروا عليها وطلعوا إلى جبل يعرف بالمانع، فأخذ الرعب من قلوبهم بالمجامع، وتحققوا أن نتيجة الغدر الهلاك، وأن مصرع البغي ليس لهم منه فكاك، فمالوا إلى جانب البرية للفرار، وطلبوا أطراف الميمنة للذلة والانكسار، فضربت عليهم جيوشنا حلقاً، وسلبوهم أثواب الحياة والبقاء، ودارت بهم الخيول وبثت سنابكها سماء من

العجاج نجومها الأسنة، فطارت إليهم عقبان من الجياد قوادمها القوادم وخوافيها الأعنة، وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنها تطلب سويداها، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنها أرادت تروي صداها، فشربوا كأس المنون لما تبلجت صفحات الصفاح، وعانتهم عيون الرماح، وأنشأت لهم الحوافر غمامةً من الغبار، ونزلت عليهم أمطار من السهام كمطار الشرار، وأخذتهم رعود من الصهيل وأبرقت في جوانبها بروق من كل سيف صقيل، ولم تغب الشمس حتى افترشوا أديم الأرض والوعر والسهل، والتجأ من بقي منهم إلى جبل يعصمهم من القتل، وباتوا عليه ليلة الأحد، وأيقنوا أن ليس ينجو منهم أحد، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، وأيسوا من الخلاص وقنطوا من السلامة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا أن أرواحهم من أجسادهم قد ذهبت، ونادوا بلسان حالهم، وقد قربت مدّة آجالهم، اعتقنا أيها الملك الرحيم، واعف عنا أيها الملك العظيم، فإننا جميعنا مسلمون ولا تؤاخذنا بما جناه كفارنا المسرفون، فإننا منهم بريئون، فأردنا أن يطلب النصر من حيث عوّدنا من العفو، فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقاً ليذهبوا، وتركناهم من فعالنا يتعجبوا، ففروا فرار الشاة من الأسد، ولم يلتفت منهم والد إلى ولد.

فلو رأيت أيها الملك ذلك اليوم، لبقيت زماناً يروعك رؤياه في النوم، وما كنت ترى من جيشك إلا قتيلاً أو أسيرًا، وكان يومًا على الكافرين عسيراً فلله درّه من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، والقيد والأسر، وهلك الذين هم ديوية الفرسان، قد قادهم الذل والصغار ورعاة العربان، والكرج قد لحقت بقية آثارهم، وعجل الله بدمارهم،

والأرمن وقد سيق من سلم منهم في القيود إلى خزانة البنود.

ولو نظرت عيناك ما جرى من أرض حوران إلى الفرات، لراعك وأرعبك من الهول ما كنت تراه، ولو رأيت أصحابك كيف بقوا طعم الرخم والذباب، لقلت من هول ما شاهدت: يا ليتني كنت تراباً، وكيف لك بالتراب؟ ولكن روعك من السماع أسهل عليك من العيان، فنظرك إلى من عاد إليك من أصحابك يكفيك في البيان، وإنما لو حضرت لرأيت ذلك المقام مشهود، الذي فيه الملائكة شهود.

ولقد نصحنا لك أيها الملك فما ارعويت، وبذلنا من القول فما رعيت، وركبت من خيل البغي أجرى كُميت، وقلنا لك: إن من جرد سيف البغي كان به المقتول، فلم تعِ القول ولم تضع لمن يقول، فاستيقظ لنفسك، وتلق هذه المصيبة التي تدخل بها إلى رمسك، ولا يغرك بالله الغرور، واعلم أن ذلك في الكتاب مسطور، واندك المين بالإيمان، ودع عنك ما يسوله الشيطان، فإنه ما يأمرك إلا بما جنيت ثماره، ولا تحصد إلا ما زرعت بذاره.

وأنت تزعم أن الإسلام شريعتك وبه تدين، فنجتمع نحن وأنت على كلمة الإيمان، ولا تعثوا في الأرض مفسدين وتخرج عن بغداد والعراق ونعيدها إلى خليفة رسول الله ﷺ، الذي شرق به ظلام الآفاق، ونتبع نحن وأنت أمره ونؤيد به هذا الدين، ومن فعل غير هذا فعليه اللعنة إلى يوم الدين، لتعلم أنك كما تزعم متمسك بشريعة المسلمين، وإن أنت سولت لك نفسك خلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعن قليل تخلو منك العراق والعجم، ويصير وجودك إلى العدم، وقد أوضحنا لك القول لكيلا تميل، وهديناك إلى أقوم سبيل، ثم

تتقدم بإرسال رسلنا المسيّرة إليك في أتم الكرامة، وتسيّر معهم من يوصلهم إلينا في حرز الأمن والسلامة، وترتحل بمن بقي من جيشك إلى طبرستان، وتخلى لمالكها هذه الأوطان.

وبلغنا أنك قلت إن خيلك ورجلك تدخل الديار المصرية، فقد صدقت أنت لكن المنجمين غلطوا في القضية، أما الخيل فإنها دخلت مجنوبة، وأما الرجال فكان في حلوقهم الطبول وبأيديهم الصناجق مقلوبة، فقد صدقت منهم المقال، وتباركت بهذا الفأل، وعن قليل نأتيك برجال تميد من تحتها الأرض وتزحف، فترى ما يهولك حتى تتمنى أن تنجو ولو على بطنك تزحف، فتيقظ من رقدة المنام، وبادر الرحيل، والسلام [١].

يا جيل يا كل شهم يا أخا ثقة ::: يا ابن العقيدة من سعد وسلمان
يا طارقا يا صلاح الدين يا ابن جلا ::: يا عين جالوت يا يرموك فرقاني
يا بائعي الأنفس الشماء في شهب ::: في شقحب النصر أو في أرض أفغاني
يا صوت عكرمة المبحوح يقطعه ::: قصف العوالي من سمر ومران
هيا إلى الله بيعوا كل فانية ::: فصوت رضوان ناداكم وناداني

وفي الثالث عشر من شوال سنة ٧٠٣ هـ / مايو ١٣٠٣م توفي غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، وقيل في سبب موته أنه أصيب بالحمي الشديدة حزنا على هزيمة جيشه في شقحب أمام المماليك وبسبب علمه بالمؤامرة التي دبرت لخلعه من الحكم، وقيل أنه مات مسموما [٢].

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٤٢٣ - ٤٢٥.
(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٠٣، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٧٣.

وتعتبر شخصية غازان من الشخصيات القلقة في التاريخ الإسلامي؛ فقد أسلم وأعلن إسلامه وأظهر احتفاله وفرحه الشديد بالإسلام، وأظهر العدل بين الرعية وحرص على نشر الإسلام بين التتار، وأوقف المد الوثني باتجاه المنطقة العربية الإسلامية، واستبشر المسلمون بهذا الأمر، وبالرغم من ذلك فقد كانت علاقته بدولة المماليك في أشد حالات العداوة والبغضاء، ولم تفلح مساعي الصلح بين كلا الدولتين المسلمة السنية، وعلى مايبدو أن هذا راجع إلى الرغبة في السيطرة التي كانت تسيطر على المغول بصفة عامة ولم يستطع غازان أن يتخلص منها - بالرغم من إسلامه - ولازمته طيلة حياته بعدما ورثها من أسلافه، كما أن الشام التي كانت تتنازعها كلا الدولتين في عهد غازان كانت يسيل لها لعاب أي حاكم فكيف بنا إذا علمنا أن بلاد الشام كانت بعيدة نوعا ما عن السلطة المركزية المملوكية في مصر وظن غازان أن الحصول عليها سيكون أمرا ميسورا، ولاننسي أن المماليك منذ هزيمة المغول في عين جالوت وإقامة الخلافة العباسية في القاهرة وهي تقوم بدور البطولة أمام العالم الإسلامي وتظهر بمظهر المدافع عن مصالح الخلافة العباسية والمسلمين بصفة عامة، هذا الدور لم يكن المماليك على استعداد أن يتخلوا عنه تحت أي ظرف من الظروف، في حين - على الأرجح - أن غازان بعد إسلامه كان يتطلع للقيام بهذا الدور ولهذا سعي لإسقاط دولة المماليك وإعادة الخلافة العباسية إلى بغداد تحت إشرافه وسيطرته.

* * *

المصادر والمراجع

* **السيوطي:**

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ / ١٥٠٥ م):

١ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط القاهرة ١٣٢٧ هـ

٢ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، ط القاهرة، ١٢٥١ هـ

٣ - نظم العقيان في أعيان الأعيان

* **أبو شامة**

(عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن شهاب الدين الشافعي الدمشقي ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٨ م):

١ - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط القاهرة ١٢٨٧ م

٢ - الذيل على الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي، بعنوان " تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ط القاهرة ١٩٤٧ م

* **المقريزي**

(تقي الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م):

١ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزي)، ط القاهرة ١٣٣٤ هـ

٢ - البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب

٣ - السلوك لمعرفة دول الملوك

* **العصامي:**
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

* **ابن واصل**
(جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعي ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م):
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.

* **الحنبلي:**
شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، ط مكتبة القدس بالقاهرة، ١٣٥١ هـ

* **أبو الفدا:**
المختصر في أخبار البشر، ط دار المعرفة ببيروت.

* **ابن كثير:**
البداية والنهاية، ط مكتبة السعادة بمصر، ١٣٥١ هـ - ١٣٥٨ هـ

* **أبو المحاسن**
(جمال الدين بن يوسف بن تغربردي ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٥ م):
١ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي
٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

* **محمد العبدة**
أيعيد التاريخ نفسه، الطبعة الثالثة ١٤١٩ه - ١٩٩٩م.

* **مسفر بن سالم بن عريج الغامدي**
الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي،دار المطبوعات الحديثة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* **محمد حامد الناصر**
الجهاد والتجديد، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ه/١٩٩٨م.

* **النويري:**
نهاية الأرب في فنون الأدب
* **د. محمد مؤنس**
الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٩/٢٠٠٠م عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، مصر.
* **د. عليه الجنـــزوري**
الحروب الصليبية المقدمات السياسية، الهيئة العامة المصرية للكتاب.
* **القلقشندى:**
صبح الأعشى في صناعة الإنشا
* **محمد بن شاكر الكتبي:**
فوات الوفيات،تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر - بيروت
* **مصطفي طه بدر:**
محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على يد المغول، ط القاهرة، ١٩٤٧ م.
* **فؤاد عبد المعطي الصياد:**
المغول في التاريخ، ط القاهرة ١٩٨٠ م.
* **نجم الدين إبراهيم بن على الحنفي الطَّرَسوسي:**
تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق، عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي
* **الصفدي:**
الوافي بالوفيات
* **بهاء الدين بن شداد**
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق أحمد أيبيش، دار الأوائل سوريا، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

* **اليافعي**:
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان
* **ابن أيبك الدواداري**
(أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري)
الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية. (وهو الجزء الثامن من حوليته: كنز الدرر وجامع الغرر)
* **ابن الأثير**:
الكامل في التاريخ، ط بولاق، ١٢٩٠ هـ
* **قاسم عبده قاسم**:
١ - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي - عصر سلاطين المماليك، ط دار الشروق بالقاهرة، ١٩٩٤ م
٢ - عصر سلاطين المماليك / التاريخ السياسي والاجتماعي، ط دار عين، بالقاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م
* **سعيد عبد الفتاح عاشور**:
١ - الحركة الصليبية، ط القاهرة، ١٩٦٣ م
٢ - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ط دار النهضة بالقاهرة، ١٩٩٠م
٣ - قبرص والحروب الصليبية.
* **فايد حماد عاشور**:
١ - الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي
٢ - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ط دار المعارف بالقاهرة.
* **د/ راغب السرجاني**:
قصة التتار من البداية إلى عين جالوت.

* **رجب محمود إبراهيم بخيت:**
١ - تاريخ الدولة الأيوبية، ط دار الإيمان بالمنصورة، ٢٠٠٨ م
٢ - الشيعة... التاريخ الكامل، ط دار الإيمان بالمنصورة، ٢٠٠٩م
٣ - تاريخ المغول وسقوط بغداد، ط، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع بالمنصورة ٢٠١٠ م
٤ - تاريخ الإسلام في الأندلس، ط، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع بالمنصورة، ٢٠١٠ م
٥ - تاريخ دولة المماليك، ط، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع بالمنصورة، ٢٠١٠ م

* **بيرتولد شبولير:**
المغول في التاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، ط دمشق الأولي، ١٩٨٩ م.

* **الحنبلي:**
شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، ط مكتبة القدس بالقاهرة، ١٣٥١ هـ.

* **أبو الفدا:**
(إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ / ١٣٢١م)
المختصر في أخبار البشر، ط دار المعرفة ببيروت.

* **ابن الوردي:**
(زين الدين عمر، ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م)
تتمة المختصر في أخبار البشر،ط القاهرة ١٢٥٨هـ / ١٨٦٨م.

* **عبد الرحمن على الحجي:**
– التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، ط دار العلم ببيروت ١٩٧٦ م

* **أبو المحاسن:**

(جمال الدين بن يوسف بن تغربردي ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٥ م)

١ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

* **النويري:**

(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

* **القلقشندى:**

(أبو العباس أحمد، ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م)

١ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة: الثانية، مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ١٩٨٥.

٢ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط القاهرة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤ م

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د.يوسف على طويل، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، دار الفكر - دمشق.

* **محمد بن شاكر الكتبي:**

(فخر الدين محمد بن أحمد الكتبي، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)

فوات الوفيات،تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر - بيروت ١١٩٧٣ - ١٩٧٤م.

* **المقري:**

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط القاهرة، ١٣٠٢ هـ

- أزهارالرياض في أخبار عياض، ط القاهرة، ١٩٤٢م

* **ابن عذاري:**
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، ط دار الثقافة ببيروت

* **ابن عبد ربه الأندلسي:**
العقد الفريد، تحقيق الناشر دار إحياء التراث العربي، سنة النشر ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م،مكان النشر بيروت /لبنان

* **فؤاد عبد المعطي الصياد:**
المغول في التاريخ، ط القاهرة ١٩٨٠ م.

* **الذهبي:**
(شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي):
١ - العبر في خبر من غبر
٢ - تاريخ الإسلام، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م،
٣ - سير أعلام النبلاء، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

* **اللواء الركن د. ياسين سويد**
حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، دار الملتقى للطباعة والنشر، طبعة عام ١٩٩٧م بيروت، لبنان.

* **بارتولد:**
تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، ط الكويت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨١ م.

* **محمود الحويري:**
العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول، ط١ القاهرة ١٩٨٦م.

* **عبد السلام فهمي:**
تاريخ الدولة المغولية في إيران.

* **رشيد الدين:**
(فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م)
جامع التواريخ.

* **د/ محمد كمال شبانة:**
الأندلس، دراسة تاريخية، ط القاهرة، ٢٠٠٨ م

* **ابن الآبار القضاعي:**
– الحلة السيراء، ط بيروت، ١٩٦٢ م.

* **ابن الخطيب:**
– الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط القاهرة، ١٩٧٧م
– أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، ط بيروت ١٩٥٦م
– الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط تونس.
– نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب.
– اللحمة البدرية في الدولة النصرية.

* **ابن حزم الأندلسي:**
– رسائل ابن حزم، ط المؤسسة العربية للدراسة والنشر.

* **ابن حيان القرطبي:**
– المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ط دار الكتاب العربي.

* **د.سلامة محمد الهرفي البلوي**
دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

* **السيد الباز العريني:**
المغول، ط بيروت ١٩٦٧م.
* **أبو الحسن الندوي**
رجال الفكر والدعوة، دار ابن كثير، دمشق، لسوريا.
* **حافظ حمدي:**
١ - الدولة الخوارزمية والمغول، ط القاهرة ١٩٤٩م
٢ - الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي.
* – **أشباخ:**
– تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط مؤسسةالخانجي، ١٩٥٨ م.
* **د / على محمد الصلابي:**
١ - الدولة العثمانية. عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط دار الدعوة بالإسكندرية، ٢٠٠٧م.
٢ - قطز.
٣ - دولة المرابطين.
٤ - دولة الموحدين.
٥ - الدولة الأموية.
٦ - عمر بن عبد العزيز.
٧ - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.
* **بارتولد:**
١ - تاريخ الترك في آسيا الوسطي، ترجمة الدكتور: أحمد السعيد سليمان، ط القاهرة ١٩٥٨م
٢ - تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، ط الكويت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨١ م.

* **عبدالله سعيد محمد الغامدي:**

صلاح الدين والصليبيون استرداد بيت المقدس، دار الفضيلة بيروت، لبنان ١٤٠٥ه - ١٩٨٥م.

* **د. أحمد الشامي:**

صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، الطبعة الأولى ١٩٩١م مكتبة النهضة العربية، القاهرة.

* **هارولد لام:**

جنكيزخان وجحافل المغول، ترجمة متري أمين، ط القاهرة، ١٩٦٢ م.

* **الجوزجاني:**

طبقات ناصري

* **عبدالله علوان:**

صلاح الدين، ط دار السلام مصر.

* **الخضري:**

تاريخ الدولة العباسية، ط القاهرة ١٩٧٠م.

* **ابن الجوزي:**

تلبيس إبليس، تحقيق محمود مهدي استانبولي، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

* **الشهرستاني:**

(أبو الفتح محمد عبد الكريم)

الملل والنحل،تحقيق أحمد فهمي محمد، ط٢ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ.

* **القمي**

(سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري ت ٣٠١ هـ / ٩١٣م):

المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، ط طهران ١٩٦٣

م.
* د / شوقي أبو خليل
– العقاب، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.
– الآراك، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
– سقوط غرناطة، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٨١م.
– عوامل النصر والهزيمة، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية١٤٠٧هـ، ١٩٨٧.
* د / نجيب زبيب:
– الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
* د/ عبدالكريم زيدان:
– السنن الإلهية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م
* د / عبدالرحمن الحجي:
– تاريخ الأندلس، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
* د / أحمد مختار العبادي:
– دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة.
* د / سلامة محمد سلمان الهرفي:
– دولة المرابطين، دار الندوة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
* ستيفن رانسيمان:
تاريخ الحروب الصليبية، ط بيروت ١٩٦٩م.
* ابن العبري:
(غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطي، المعروف بابن العبري ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦ م).

تاريخ مختصر الدول، ط بيروت ١٩٥٨ م.

* **النسوي:**

(نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشي)

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، ط القاهرة ١٩٥٣م.

* **د/ناصر العمري:**

– سقوط الأندلس، مؤسسة المؤتمن، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

* **د / حسين مؤنس:**

- فجر الأندلس، ط القاهرة، ١٩٥٩ م.
- فتح العرب للمغرب، ط القاهرة ١٩٤٧ م.

* **جيمس رستون الابن**

مقاتلون في سبيل الله، نقله إلى العربية رضوان السيد مكتبة العبيكان، طـ ٢٠٠٢م.

* **د / محمد أحمد محمد:**

دخول مغول العراق وفارس في الإسلام، ط دار الفكر العربي، القاهرة.

د. سيد حسين العفّاني:

١ ـ صلاح الأمة في علو الهمة، ط مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩ م

٢ ـ واقدساه، مكتبة معاذ بن جبل، دار العفاني، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ـ ١٤٢١ه.

* **د / محمود سعيد عمران:**

المغول وأوروبا، ط درا المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

* **د / عادل إسماعيل محمد هلال:**

العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، ط

دار عـين للدراسـات والبحـوث الإنسـانية والاجتماعيـة، القـاهرة، ١٩٩٧م.

* **رينيه جروسيه:**

جنكيزخـان قـاهر العـالم، نقلـه إلـى العربيـة خالـد أسـعد عيسـي، مراجعة د / سهيل زكار، ط دمشق الأولي، ١٩٨٢ م / ١٤٠٣ هـ.

* **د / أحمد مختار العبادي:**

قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام، ط القاهرة، ١٩٨٨ م.

* دائرة المعارف الإسلامية

* **محمد بن مالك اليماني:**

كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة

* **عثمان عبد الحميد عشري:**

الإسماعيليون في بلاد الشام.

* **أحمد الحفناوي:**

حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام.

* **إسماعيل عبد العزيز الخالدي:**

المغول والعالم الإسلامي.

* **شوقي ضيف:**

تاريخ الأدب العربي.

* **الجاحظ:**

رسائل الجاحظ، كتاب القيان.

* **الشابشتي:**

الديارات.

* **ستيفن رانسيمان:**

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني.

* * *

الفهـرس

* * *

المؤلف في سطور

الدكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

- ولد في محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية عام (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م).

- حصل على ليسانس الآداب من جامعة طنطا (تخصص تاريخ) في عام ١٩٩٦ م.

- حصل على دبلوم الدراسات العليا (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) عام ١٩٩٧م.

- نال درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطي والقوقاز) من جامعة طنطا - كلية الآداب - عام ٢٠٠١ م.

- نال درجة الدكتوراة في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطي والقوقاز) من جامعة عين شمس - كلية الآداب - عام ٢٠٠٦ م.

* * *